وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

القدس دمشق القدس

دراسة





الدكتور حسام الخطيب

قضايا راهنة
١٦

القدس - دمشق - القدس

الدكتور حسام الخطيب

القدس – دمشق – القدس

دراسة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م

مرحبا بعد ثلث قرن

مع المتسائلين يتساءل المؤلف: لماذا يطبع كتاب مرتبط بالأحداث، بعد مضي ثلث قرن على نشره للمرة الأولى.

في الجواب: لا يكفي أن نردد التفسير المستقى من قاموس الرواج، كأن نذكر أن الطبعة الأولى نفدت أو كادت، إذ لا شأن لهذا الكتاب البسيط بمعايير البيع والشراء، مادام الناشر الأول هو «اتحاد الكتاب العرب»، والناشر الثاني «وزارة الثقافة»، في سورية العربية، وكلاهما منبرا رهان مشترك في مجالات النوعية القومية والاجتماعية، ويستحقان جزيل الشكر وصريح الإشادة بما يبذلانه من جهود وجهاد.

أما المؤلف فإنه يأمل أن يكون في إعادة تأملات هذا الكتاب ونبرات لغته دافع للمقارنة بين الماضي القريب والحاضر الراهن من شأنه أن يسعف، ولو بمقدار بسيط، في إبقاء راية الكفاح مرفوعة مرفرفة ولاسيما ما بين الشام وفلسطين، ودمشق والقدس، في مناسبة «القدس عاصمة الثقافة العربية».

ولتبقَ راية الكفاح والأمل مرفوعة خفاقة، تذكِّر الأجيال أن راية القدس - دمشق - القدس كانت على امتداد التاريخ راية البشرى إلى العزة والخلاص.

ملاحظة أخيرة: تقتضي الأمانة أن أشهد أن مشروع إعادة طباعة الكتاب الحالي لقي تجاوباً فورياً من الأديب الدكتور رياض نعسان آغا، وزير الثقافة، الذي أكد في كل مجال أن طريق الخلاص هو القدس، ولم يتردد في دعم أي نشاطٍ ثقافي يقود إلى تحرير القدس الشريف.

دمشق، كانون الأول ٢٠٠٩

حسام الخطيب

مرحبا

هذه كلمات قصار في موضوعات كبار، كتب معظمها خلال الأعوام الثلاثة الماضية، وإن كان بعضها أقدم عهداً من ذلك، وأريد لها في إبانها أن تكون تعبيراً بسيطاً شبه تلقائي عن الهموم الكبرى التي تؤرق وجدان إنسان من الناس في مرحلة من عمر هذا الوطن مشحونة بالهواجس والأشجان والتوقعات... وإنها لتنطق عن نفسها وتتبئ بما شجاها، ولن تنفع في إقامة عودها مقدمة طويلة ولا قصيرة فلنترك لها أن تقول، إن كان عندها ما تقوله، ولنفترض أنها –بمعنى من المعاني - تحاول أن تعكس بعض أصداء وشائج النجوى بين «الوطن المضيَّع» والوطن الذي يجاهد ألا يكون «مستعاراً»، في زمن عربي يقلب ظهر المجن ولا تأخذه في الباطل لومة لائم.

وما راءٍ كمن سمع.

دمشق، كانون الأول ١٩٨٠

حسام الخطيب

القسم الأول

في المصير القومي

- العرب العاربة والعرب المستعربة (مسلسل ١ -١٠)
- القدس - دمشق — القدس.
- نزوع الوحدة.
- كلام في الوحدة.
- العشاق.
- الوطن المستعار.
- استجواب لعام مطل.
- استشارة تاريخية.
- تشاؤم وتفاؤل.
- نفحة ثقة بالنفس.
- ٢٣ تموز.
- العظمة ومصيرها.

العرب العاربة والعرب المستعربة

(١)

في القاموس المحيط:

العرب (بالضم والتحريك) خلاف العجم.. وعرب عاربة وعرباء وعربة: صرحاء، ومستعربة ومتعربة: دخلاء.

والعرب في المفهوم القومي الحديث أمة تقيم في الوطن العربي بين الخليج العربي شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً وتجمعها وحدة اللغة والعقيدة والتاريخ والمصلحة والآمال والآلام والمصير المشترك.

وخلافاً للقاموس المحيط ليس هناك أدنى تفريق بين العرب العاربة والعرب المستعربة لأن الجميع يعملون لبناء الوطن الواحد، وتقاس عروبة المرء بمقدار ما يقدمه لوطنه الكبير، أما البحث عن الأحساب والأرومات فإنه عمل عقيم ليس لأنه لا يوصل إلى أية نتيجة علمية فحسب بل لأنه غير وارد في (القاموس) الحديث للمصير العربي من الخليج إلى المحيط.

ولكن هذا في الكتب وفي النظريات، أما في الحياة فالأمر مختلف بعض الشيء.

لنفكر كيف نستعمل كلمة «عرب» في لغتنا اليومية.

هذه الكلمة المقدسة في لغتنا القومية والتاريخية والوجدانية تبدو تعيسة جداً ومنتهكة في لغتنا اليومية وهناك من ينتهك حرمتها دون وعي أو قصد، وإنما نتيجة لسلسلة الخيبات والنكسات التي ما برحت حياتنا العربية تئن تحت وطأتها منذ أن فتحنا أعيننا على العصر الحديث.

وهناك من ينتهك حرمتها عن سابق تصور وتصميم وذلك تغطية لخيانة أو إخفاق أو عجز أو ربما تنفيذاً للمؤامرة الكبرى التي ما زالت تحاك ضد العرب بالجملة، ضد كيانهم كعرب وضد وجودهم كعرب.

(٢)

وعند الشق الأول من الناس (ذوي النيات الطيبة أو - بكلمة أدق - غير السيئة) تعتبر كلمة عرب كالبعير الأجرب، يلقى عليه كل اللوم في أي موضوع. فحين يأتي حديث الحرب يتبين أن العرب (هم لا نحن) انهزموا سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ وأخطأوا في معركة كذا وخسروا أكثر مما ينبغي في وقعة كذا.

وحين يأتي حديث الحضارة فالعرب (هم لا نحن) متخلفون ومتعلقون بالقشور ومازالوا في عصور الانحطاط وعلاقتهم بالعصر علاقة واهية.

وحين يأتي حديث السياسة فالعرب (هم لا نحن) متفرقون شيعاً وأحزاباً، ومتفقون على أن لا يتفقوا، وهازلون غير جادين فيما يقولونه، ومتقلبون غير ثابتين فيما يلتزمون به، وحين يأتي حديث الفكر فالعرب (هم لا نحن) لم ينتجوا أي فكر في هذا العصر وما يحسبونه جديداً في عالم الفكر أن هو إلا موجة قديمة طغت عليها موجات وموجات قبل أن تصلنا ونحتفل بها على أنها أحدث ما تمخض عنه الفكر الإنساني.

ويتحدث هؤلاء الناس عن سلبيات العرب أحياناً بضحك وبشيء من التشفي ويطنبون، وكل متحدث يقصد بكلمة «عرب» جميع العرب ما عدا نفسها أو محيطه أو رهطه، كأن العرب كتلة صماء هائلة يقف المتحدث خارج محيطها وخليجها أيضاً، وكأنه ليس منها وليست منه. وليس أسهل على هؤلاء من تفسير أية ظاهرة سلبية بكلمة بسيطة واحدة، «عرب...» ومعها هزة كتف ترفع عنهم كل مسؤولية وتحميهم من تأنيب الضمير، وبعد

ذلك يضعون أرجلهم في الماء البارد، فقد ظهر الحق وزهق الباطل، ووجدها «يوريكا» كما وجدها أرخميدس.

وبالمقابل حين يأتي دور الإيجابيات تنعكس الآية تماماً ويدخل هؤلاء داخل قوس «العروبة» وقد يخرجون منه غيرهم. فإن تحقق للعرب انتصار أو صمود أو تضامن أو مكسب على الصعيد أو شهادة من مؤرخ غربي فعند ذاك تشملهم كلمة «عرب» بكامل حروفها.

(٣)

كأنما ظاهرة العرب العاربة والعرب المستعربة لم تمت بل اتخذت منحى جديداً تماماً. فالعرب العاربة نحن المتكلمون، انطلاقاً من إقليم أو رهط أو انتماء، ولاسيما حين تكون الأيام أيام نعمى وإقبال وتفاؤل.

والعرب المستعربة هم «الآخرون» حين تحزب الخطوب ويكفهر الأفق وتقع الواقعة. والمفهوم متغير بعد لا ثابت فكل يوم يدخل نفر في مفهوم العرب العاربة ويخرج نفر إلى مفهوم العرب المستعربة. والآخرون هم المسؤولون دائماً.

كذلك هناك أناس يدخلون في العروبة ويخرجون منها بأسرع من لمح البصر، فالعروبة هي «البنت الطيبة» أحياناً و«الولد العاصي» أحياناً أخرى.

ومن الحق أن يقال أن الأقطار العربية لا تتساوى في مثل هذه الظاهرة وأن من الأقطار العربية ما هو أرحم من غيره بكثير عند استعمال كلمة «عرب» التي أخنى عليها الزمان الحاضر.

ولكن من الحق أن يجري التنبيه إلى أن هذه الظاهرة التي يخلق مناخها ذلك الشق من ذوي النوايا غير السيئة تصبح شديدة الخطورة حين يأخذ باستغلالها ذلك الشق الثاني من ذوي النوايا غير الطيبة وإننا لنعيش اليوم أزمتها وخطورتها.

(٤)

وإذن هناك شق من الناس يدخلون أنفسهم في مفهوم العروبة على هواهم، وفي أيام الإقبال والنعيم يتنسبون إلى «العرب العاربة» وفي أيام الشدة يصنفون أنفسهم في عداد «العرب المستعربة» ويتنصلون من كل مسؤولية.

ومثل هذا الموقف ينطوي على خطورة مزدوجة. فهؤلاء الناس من ذوي النوايا غير السيئة يقطعون على أنفسهم كل طريق لمواجهة مشكلة وجودهم القومي، وبالنتيجة العملية لا يكونون عرباً عاربة ولا عرباً مستعربة ولا عرباً، ولا يبقى أمامهم سوى العويل المستمر والشعور بالانسحاق والانهزام.

ثم أنهم - وهو أدهى وأمر - يهيئون مناخاً مواتياً يعمل ذوو النوايا المبيتة على استغلاله إلى أقصى حدود الاستغلال.

ألم تتم «الزيارة» الاستسلامية إياها تحت ستار من تأجيج المشاعر العامة في أكبر بلد عربي - ويلاه - ضد العرب والعروبة. ألم يكن مدهشاً ومفجعاً أن ترافق عمليات التسليم للعدو بمنطقه ومطامحه وعدوانه حفلات صاخبة من الديماغوجية الفكرية والإعلامية تنتظم كلها في خط ثابت مضاد للعروبة، خلاصته أن مصر خسرت كل شيء من خلال انتمائها العربي وأن خلاصها يكمن في تحللها من هذا الانتماء. ألم يسمع الناس هتافات في استقبال وفد العدو الغاضب من نوع: يسقط العرب وتحيا إسرائيل؟

ألم يبلغ الهوان بمحافظ الإسكندرية حد الاعتذار لوفد الغزاة لأنه تكلم معهم بالعربية لا بالعبرية؟

وماذا نقول عن كتاب وصحفيين بنوا أمجادهم في الأصل على أساس أنهم كتاب عرب، عالجوا مشكلة المصير العربي، وخفقت لبعضهم القلوب العربية من المحيط إلى الخليج، وغمرتهم أيضاً العطايا العربية من الدرهم إلى الدينار... ماذا نقول عنهم وهم يجندون أنفسهم بحماسة غريبة وصفاقة أعجب للطعن بكل ما هو عربي وللتنكر للحضارة العربية وللتملص من الانتماء

العربي والاعتذار عن هذا الانتماء أمام العدو بحجة أن مصر ليست من «العرب العاربة» وإنما هي من «العرب المستعربة»؟

ألم تقبل هذه الأبواق على نعي ما اعتبرته ملابسات تاريخية ودينية تضافرت على مصر وجعلتها عربية؟

ألم يبلغ بهم الهوان حد محاولة التعري من إهابهم العربي أملاً في أن يرضى العدو عن أجسامهم الندية التي حجبت العروبة طراوتها؟

ألم يعمل هؤلاء على إيهام الشعب العربي في مصر بأن كل وجوه معاناته ناتجة عن انتمائه العربي، فالعرب هم الذين أرادوا له أن يجوع وأن يعرى وأن يسحق تحت وطأة زيادة النسل وأن يضيع في جو الفوضى الإدارية وأن يخنع للعدو حرباً أو سلماً!!

(٥)

ما أسهل الاسترسال في إيراد الشواهد على النوايا المبيتة ضد عروبة مصر، ولكن ذلك أمر محزن جداً يكاد يتفطر له القلب ويقفز من مكانه ويتلوى على التراب.

وأسوأ من الظاهرة نفسها أن يمكن تجنيد كل ذلك الجيش من الكتبة المعروفين والكويتيين الأقل شأناً في عملية غسيل دماغ على أوسع نطاق.

إنها خطة مبيتة، ما في ذلك شك. والمؤامرة على عروبة مصر مستمرة منذ مطلع العصر الحديث لأنها مؤامرة على مصر نفسها: على وجودها وكيانها واستقلالها وتقدمها.

ولن يفيد مصر، ولا أي قطر عربي آخر، أن يدخل يوماً في مفهوم «العرب العاربة» ويوماً في «العرب المستعربة». ذلك أن المنطقة العربية بأجمعها مستهدفة لأن الآخرين يعرفون أنها منطقة عربية، وعائق في وجه الأحلام الصهيونية والمخططات الامبريالية المتنوعة.

إن نية القضاء على المنطقة ومن فيها وامتصاص إمكانياتها وتغيير هويتها مبيتة ومدروسة ومخططة. ولن يجدينا شيء إلا أن نكون «عرباً عاربة» وأن نواجه مصيرنا بقوة وبقسوة.

أما التهرب من الانتماء، أما اللجوء إلى شعار «العرب المستعربة» فلن ينجي أصحابه إطلاقاً، لأن الأعداء يعرفون الحقيقة كلها. وكل ما يمكن أن ينجم عنه هو تسهيل المهمة على الأعداء وتوفير الوقت والنفقات عليهم حتى يبتلعوا كل قطر على حدة في حين يتفرج الآخرون.

إنّ التهرب من انتماء العروبة هو تهرب من المواجهة ومن المصير ودفن لرأس النعامة في الرمال.

كلنا عرب عاربة وكلنا مسؤولون، والذي يتملص من انتمائه قد لا يدفع الثمن أولاً ولكنه سيدفع الثمن غالياً وباهظاً ومدمراً.

ولن يصمد سوى المنتمي والملتزم والمسؤول.

(٦)

وهذه الصيغة التي ارتضيناها رسمياً شعبياً، وهي أن نكون عرباً وأن نعمل باعتبارنا عرباً، وأن نخاطب العالم بوصفنا عرباً، وأن نكون يداً واحدة في السراء والضراء.. هذه الصيغة لو لم تكن قائمة في الأصل بفعل ما يمليه التاريخ والمعتقد والحضارة والإطار الجغرافي واللغة والثقافة والانتماء لكان علينا أن نجدها، أن نصطنعها اصطناعاً وأن نتعلق بها لأنها حبل نجاتنا الذي نعتصم به في عصرنا هذا المشحون بالتأزم والاضطراب والتحزب.

وهذا الوطن العربي الكبير الممتد على محاذاة البحر الأبيض المتوسط جنوباً وشرقاً، والمطل على المحيط الأطلسي غرباً، والمشرف على المحيط الهندي جنوباً، والمحتضن للخليج العربي شرقاً، والمصافح كلاً من قارتي آسية وأفريقية براً، والقريب على بعد مرمى حجر من أوروبا شمالاً... هذا

الوطن الكبير يحسدنا عليه الناس كلهم ويحاولون صباح مساء أن يلقوا في أذهاننا وأفئدتنا أنه ليس وطناً واحداً بل أوطان، وأشد ما يغيظهم - الأعداء على الأقل - أن نفيء إلى ظله بوصفه وطناً واحداً لا عشرين وطناً أو يزيد.

وهذه الخيرات التي يزخر بها الوطن العربي، مما هو فوق تربه، ومما هو في جوفه وباطنه ومما هو ناجم عن نبل موقفه ومما هو كامن في حيوية أبنائه ونشاطهم وانفتاح عقولهم وتوثب طموحهم ومرونة تفكيرهم، هذه الخيرات المادية والبشرية هي نعمة طبيعية لم يتح مثلها أو مثل جزء منها لكثير من شعوب الأرض، وحري بها أن تزيدنا تعلقاً بوطننا وإيماناً به وبدوره في خدمة رخائنا وهناءتنا وعزتنا، ورخاء الإنسانية وهناءتها وعزتها.

إن تعلقنا بوطننا الكبير ليس من قبيل الولاء الفطري العاطفي فحسب، وإن كنا لنعتز كل اعتزاز بهذا النوع من الولاء ونحرص عليه كما يحرص الإنسان على نور عينيه.

وإن تعلقنا بوطننا العربي ليس من قبيل المصلحة المطلقة، وإن كنا لنؤكد أن عروبتنا هي مصيرنا وأن مستقبلنا شعباً وأفراداً وازدهار حياتنا وتوافر متطلباتنا، كل أولئك مرهون بما نستطيع أن نثبته من عمق إدراكنا لمعنى الرابطة العربية وعملنا على إعطائها الفعالية والحيوية.

ونحن نعلم حق العلم أن وطننا في المرحلة الحاضرة ليس نسخة عن جنة الفردوس.

ونحن نعرف - والأسى يحز في نفوسنا - أية تمزقات تعصف بوطننا، وأية أمراض يعاني منها مجتمعنا واقتصادنا وإدارتنا وعلمنا وسياستنا وغير ذلك.

ونحن نعلم مدى التفاوت المخيف في الحظوظ بين شرائح مجتمعنا، ومدى النقمة التي تمور في أفئدة المحرومين والمعسرين وهم يشاهدون بذخ المياسير وإتلافهم للمال وما هو أبعد من المال قيماً ووجداناً.

ونحن نعرف أن التنافس والاختلاف والتباعد والتقاعس أمور قائمة في طبيعة الحياة. تماماً مثلما أن التعاضد والاتفاق والتقارب والنهوض أمور قائمة في طبيعة الحياة.

ولذلك نقول باطمئنان أن كل السلبيات التي تأكل وطننا العربي ليست إلا عقبات على الطريق من الممكن تجاوزها. وإن الإمكانات التي يزخر بها الوطن، وإن القوة الكامنة فيه، وإن طاقاته المعنوية والمادية هي حقائق ثابتة تشهد بها وثائق الجغرافية والاقتصاد وفلسفة التاريخ، ويجب أن تعمينا عن رؤيتها ضوضاء الأزمات وغبار الهوان والخذلان.

(٧)

شيء واحد فقط يمكن أن يهدد وجودنا ويصدع مستقبلنا. ذلك هو أن تدفعنا الصعوبات والخيبات إلى التنكر لرابطتنا العربية أو الاستهانة بها في عصر تختلق فيه الشعوب مثل هذه الرابطة اختلاقاً لتتمكن من أن تعيش وتتعاون وتصمد.

وها هي أوروبا تصنع وحدتها من ماض كله شواهد ضد هذه الوحدة، وقد أصبح بين دولها من الروابط ما يحسن أن نأخذ منه الدرس. وكان الأحرى أن نعطي نحن مثل هذا الدرس.

وإلى ذلك النفر من قومنا الذين استمرأوا لعبة الدخول في «العرب العاربة» حين تقبل الأمور، والخروج منها إلى دائرة «العرب المستعربة» حين تدبر الأمور، والقفز من فوق العربين أحياناً تهرباً من مواجهة المصير، إلى ذلك النفر نقول:

إن المساس بالرابطة العربية هو الانتحار بعينه، وهو انتحار على المستوى الفردي والخاص والإقليمي، قبل كل شيء.

(٨)

إن حديث «العروبة» شجي، ومثير للأشجان، ومحزن جداً.

وكلما يفكر الإنسان فيما آل إليه معنى العروبة - ناهيك عن أهلها وذويها، انفتحت أمامه ألف كوة على حدائق صوحت أو توشك أن تصوح تحت وطأة ريح مأساوية واثقة مما تفعله.

بعضهم ينكرها من قبيل اليأس، وبعضهم من الملل، وبعضهم من التخاذل، وبعضهم من الجهل، وهناك من بنيها من يكيد لها عن عمد وسابق إصرار وتصميم.

وما هي إلا سلسلة من أحداث وإذا العروبة من حيث المعنى على الأقل تلحق بابنتها الأوديبية فلسطين.

ونحن - أهل طيبة المأخوذين المهووسين - لا نفعل إلا أن نشد جوكاستا بكل قوانا إلى حبال المشنقة.

كفى، كفى، ما هذا بحديث يأس، ولن يكون صاحبه إلا من غير اليائسين ولو أطبق الضباب على كل رملة في الصحراء. ولكنها هزة هدرت في النفس التي يأتيها في كل يوم من الحوادث والأنباء خطب تعنى به وتراع.

ويقال شعب مشرد مثل طائرة تائهة تصفق بجناحيها فوق الأيك فتنتشر الأيك شروشها وتغرس في التراب أغصانها.

ورهائن مشنوقون بين سماء وبين أرض وبحر، وأسلحة منومة بالمغناطيس مدقوقة في صدورهم، وشواظ من نار وصواعق من لهب تتربص بهم الدوائر.

ودم عربي مسفوح، ودم صديق مسفوح وقيامة تقوم، وفتنة ينفخ أوارها النافحون.

والذنب - عندهم - ذنب العروبة وذنب ابنتها الأوديبية محتكرة آثام العصر كله.

والويل لمن يقول كلمة حق.

(٩)

أيكة واحدة فتحت ذراعها للنورس التائه وهزت أغصانها، وساقطت فوق ترابها من قطر نداها ما لأم تربتها المجرحة وهيأها لأن تسمو فوق جراحها.

كانت تسمو هذه الأيكة دائماً على جراحها وآلامها.

وكانت نقطة ضعفها دوماً أن أي نسيم مضمخ بنفحة من صحراء يجد طريقه رأساً إلى جذورها ليحلب منها هناك أعذب مودات الحنان. ما أكثر الذين رضعوا الحنان حتى بأن رشح الدم في الضرع.

وما أكثر الذين أعملوا الخناجر في ساقها يريدون أن يخلدوا أسماءهم هناك ذكرى محبة ولكنهم تجاوزوا القشرة إلى اللحاء واللحاء إلى النسغ، ليقولوا لها: اذكريني!!

وما أكثر الذين مدت إليهم أغصانها لتقيهم ضربة شمس، فلما أفلت الشمس وأنسوا في أصابعهم بعض قوة جعلوا من الأغصان الحانية تجربتهم الأولى.

وفي أذن بعض الأغصان التي أنهكها الصبر مع رحلة الحنان المستديمة كانت الأيكة تصب همسات العتبى وكان نداؤها الوحيد أن يتاح لها دائماً تحقيق ما خلقت له، أن تكون نفسها وألا تُحمل على أن تكون شيئاً آخر.

(١٠)

العروبة ليست ثوباً خارجياً ارتديناه في لحظة نسوة لنزهو به على غيرنا من شعوب الأرض.

وليست العروبة دفقة انفعال تخبو حين ينضب الوقود.

وليست العروبة مجرد نافذة على تاريخ حافل.

ولا يمكن أن تكون العروبة انتساباً طوعياً إلى ناد للفروسية أو رابطة مثل - الأميركان أكسبريس -.

العروبة مصير لبسنا ولبسناه، وهو نحن ونحن هو.

ومن تنكر لمصيره لا مصير له.

شباط ١٩٧٨

القدس - دمشق - القدس

في سلسلة حفلات التكريم التي أقيمت للشاعر العربي الفلسطيني عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) بمناسبة فوزه بجائزة (اللوتس) كان هناك تشديد واضح في الكلمات الاحتفالية التي قيلت وفي المناقشات الخفيفة التي دارت على الهوية العربية للشاعر الفلسطيني. وكعادته لم يكن أبو سلمى خطابياً ولم يركض وراء العبارات الجاهزة والمرددات العاطفية التي سئمت أصحابها ولما يسأموها.. كان (أبو سلمى) يستند إلى سياج أخضر من ذكريات العمر الخصب ممتد بين القدس والشام وكان يرد على الكلمات بلفتة إلى هذا السياج يقطف منه وردة أو زنبقة أو أقحوانة حسبما يكون الحال، ويقدمها للصحب برهاناً ناصعاً من غير سوء، يؤكد أن خضرة السياج عربية وشذى النبت عربي وإن اختلف أحياناً الاسم واللبوس.

وأحب أبو سلمى أن يقدم نفسه، وإن لم يصرح بذلك تماماً، على أنه اللسان العربي لفلسطين واللسان الفلسطيني للعرب. وكانت حقيقته العربية تبدأ دائماً من إحساسه ربما في كل لحظة من لحظات حياته أن فلسطين هي سورية الجنوبية، وأن فلسطين وسورية شيء واحد متطابق وأن إشعاع الوحدة العربية ينطلق من هذا الشيء.

كان أبو سلمى يورد الشواهد من سياج عمره الأخضر، ويترك لغيره التعليق. وكان خط عمره ماثلاً أمامه دائماً كأوضح ما يكون: القدس - دمشق - القدس - دمشق، على ألا تكون دمشق المحطة الأخيرة.

وفي إحدى الجلسات التي ضمت شعراء عرباً كباراً ومسؤولين ثقافيين رد أبو سلمى على التكريم بالشاهدين التاليين:

أولاً: في سنة ١٩٢٧ أضرب طلبة دمشق القليلون عدداً آنذاك، وأصروا على الإبقاء على نظام البكالوريا الأولى والثانية. وأذعنت الحكومة للطلبة أولي العزم، وصدرت قائمة المقبولين للامتحان، وكان في صدارة الأسماء الطالب عبد الكريم الكرمي.

ثانياً: حين احتضنت دمشق عبد الكريم الكرمي للمرة الثانية، بعد سنة ١٩٤٨، لم يجد نفسه غريباً أبداً. كان محامياً وذهب كما يذهب أي عربي سوري إلى نقابة المحامين وقال لهم: أريد أن أعمل.. وصدر قرار خاص عن النقابة بقبول الكرمي في النقابة والسماح له بمزاولة المهنة. وكان تعليل القرار قومياً لا مهنياً ولا إقليمياً. وحين اعترضت بعض الجهات الرسمية على هذا الإجراء الذي لم يحاول أن يستند إلى أي سبب قانوني أجيبت هذه الجهات بما يفيد أن المسألة قومية وفوق - قانونية.

ولم يكن الشاهدان بحاجة إلى تعليق وتفصيل.

وتكلمت السياسة في المجلس على لسان مناضل فلسطيني وأفاضت في تأكيد التطابق الفلسطيني العربي أو العربي الفلسطيني، ولكن حين وصل الأمر إلى سورية كان هناك شاهد جديد من جنس شواهد (أبي سلمى)، وهو لا يحتاج إلى شرح ولا تفصيل:

«وذكر تاريخ النضال العربي في فلسطين أن قائد الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦، لم يكن فلسطينياً وأنه كان يوقع بلاغات الثورة باسم:

فوزي القاوقجي.

القائد العام للثورة في سورية الجنوبية.

ولم يتح لأحد الحاضرين أن يقول ما كان يدور في نفسه لأنه كان مشغولاً بذكريات طفولة محدودة في فلسطين، وكان أوضح شيء في ساحة وعيه تصوره للعالم آنذاك: كان العالم عنده قسمين أو صنفين:

عرب ويهود. وكان يعرف نفسه أنه عربي مقابل اليهودي.

وتذكر تماماً أن صفته (الطارئة) التي لصقته فيما بعد إنما لصقته بعد الخروج من الوطن الذي ينسب إليه، وأنه بالتدريج تمسك بها كل التمسك ليس لأنها تميزه عن أقرانه من سوريين أو عراقيين أو مصريين أو جزائريين، ولكن لأنها توكيد حقه في الأرض التي اغتصبت، وتوكيد انتسابه لها، وسلاح كشفه للزيف الذي لحق بحقيقتها. وكان يبدو شبه متأكد أنها حين تعود إليه ويعود إليها فلن تكون هناك حاجة لأن يميز نفسه أو يميزه أهلوه بأية نسبة سوى نسبة الأصل والطبيعة.

كانون الثاني ١٩٧٩

*   *   *

نزوع الوحدة

هذا التوق العربي الأسطوري للوحدة، يصعب أن يفهمه أي إنسان غير عربي. أن العربي يعرف أن الوحدة ليست اللمسة السحرية التي ستفك كل طلاسم وجوده وتمسح بمثل لمح البصر كل همومه، إنه يعرف ذلك كل المعرفة، وقد أتيحت له منذ عقدين من السنين فرصة ثمينة للتأكد من هذه الحقيقة...، ومع ذلك تراه متعلقاً بالوحدة كما يتعلق الطفل بثدي الأمومة والغريق بحبل الإنقاذ والمريض بأمل الشفاء.

والعربي يعرف أن للوحدة مشكلاتها ومسائلها ومتاعبها وشؤونها وشجونها، وهو يعرف أن للوحدة ضريبتها الخاصة التي لابد من دفعها. والعربي يدرك أن الوحدة قد تورق بسرعة كزنبقة الصيف ولكن ثمرها الحقيقي الذي يطيب جناه هو أشبه بثمرة الزيتونة المباركة يحتاج إلى السنين الطوال من التعهد والعناية... ومع ذلك يرهن العربي حياته ومصيره ومستقبله من أجل الوحدة.

ويتساءل العارفون وغير العارفين: لماذا؟ لماذا يكون للوحدة هذا الاهتزاز في نفوس الناس الذي لا يكاد يضاهيه أي اهتزاز سوى اهتزاز النصر؟ وهيهات أن يكون نصر بغير وحدة.

وعبثاً يبحث الإنسان عن جواب واحد قاطع يفسر هذا النزوع الأسطوري.

بالطبع سيقول المنظرون أن الأصل في الحياة العربية هو الوحدة، وأن الفرع الطارئ هو التجزئة. وسيقولون وقد قالوا: أن هذه البلاد العربية كانت

إلى أمد قريب وطناً واحداً، ولم تكن أيامه سعيدة دائماً، ولا تعيسة دائماً، ولكنه كان يفرح في وقت واحد، ويواجه الشدة بقوة رجل واحد، وكان يتألم ويأمل ويدعو ويحلم من خلال وجدان جماعي واحد.

ويقول المنظرون أيضاً، أن هناك من العوامل الموضوعية ما يجعل وحدة المنطقة ضرورة لاستمرارها في الحياة، وأن ما يجمع سكان هذه المنطقة من محيطها إلى خليجها، من عوامل التاريخ المشترك والمصير المشترك والحضارة واللغة والروح الدينية والمصالح المشتركة والتكامل الجغرافي وغير ذلك، ينبغي أن يدفعها دفعاً إلى الانصهار في الوحدة الشاملة.

وكل هذا صحيح وواقعي وثابت، ولكنه لا يستطيع أن يفسر هذا النزوع الأسطوري للوحدة عند العربي، هذا النزوع الذي يجعل من الوحدة غاية الغايات ووسيلة الوسائل في وقت واحد.

أيكون من وراء ذلك نوع من الشعور الفردي والجماعي بأن الوجود العربي ناقص بغير الوحدة؟

يكون نزوع صبوة داخلية وجدانية لاستكمال هذا الوجود الناقص الذي يتطابق فيه الإنسان مع تراب الوطن فيصبحان كلاً واحداً على نحو ما أحس شاعرنا العربي القديم:

بالشام أهلي

وبغداد الهوى

وأنا بالرقمتين

وبالفسطاط خلاني

تموز ١٩٧٩

كلام في الوحدة

منذ سنوات قال لي أستاذ مختص في شؤون الشرق الأوسط في جامعة كامبردج أن السعي وراء الوحدة إحدى المشكلات الكبرى التي تعاني منها البلاد العربية. وفي زعمه أن هذا السعي يعتبر عاملاً من عوامل الاضطراب في المنطقة لأنه يثير تخوفاً لدى الأطراف الداخلة في الوحدة وشكوكاً لدى الأطراف الأخرى، وحين يتعرض هذا السعي للضعف أو الاضطراب فإنه يقيم جسراً من عدم الثقة بين الأقطار العربية المتجاورة بحيث ينتفي الحد الأدنى من التعاون الطبيعي بين الدول المتجاورة التي تجمعها مصالح إقليمية أو قومية مشتركة. وبالطبع لم يعجز الأستاذ المذكور عن إيراد الأمثلة والشواهد من خلال العلاقات المضطربة التي تسود بين بلدان المنطقة.

والحق أنه كلما طرحت قضية الوحدة العربية بشكل عملي ولاحت في الأفق تباشير منعطف سياسي جديد في منطقة الشرق العربي يعود إلى الأذهان وإلى صفحات الجرائد في الغرب كلام كثير من هذا النوع حول الوحدة وطبيعتها ومستقبلها، ويبدو معظم ما يقال منطلقاً من منطق واحد هو التشكيك والتحذير أو على الأقل الترقب والتربص في أحسن الأحوال.

وفي كثير من الأحوال تساعد السرعة التي ترافق التطورات السياسية بين الأقطار العربية على إفساح المجال أمام الشكوك والدسائس والتقولات.

وإذ يعترف المرء أن عامل السرعة، سواء في حالة التقارب أو في حالة التباعد، يتخذ طابعاً مدهشاً ليس من السهل تقبله في بعض الحالات، فإنه يبدو مفيداً أن يقترح المرء الملاحظات التالية كأساس للحكم على التطورات المتعلقة بالوحدة في المنطقة العربية.

أولاً: ليست الوحدة في وجدان العربي سعياً وراء ما يمثل سوقاً أوربية مشتركة - أو - كوميكون - أو - منظمة الدول الأفريقية - إن الوحدة العربية ليست شيئاً خارج وجدان العربي. إنها وجدانه السياسي بالضبط. إنها ميزان تحقق وجوده، إن وجود العربي يبقى ناقصاً ما لم تتحقق الوحدة.

ثانياً: إن الوحدة بالنسبة للدول العربية ومجتمعاتها هي حبل الخلاص. إن الدول العربية تشعر في حالة التجزئة أنها ضعيفة أمام الاستعمار الذي لم يتغير جوهر مطامعه في المنطقة، وضعيفة أمام العدو الصهيوني الذي لا يخفي أطماعه في احتلال المنطقة بأسرها وتسخيرها لمآربه العسكرية والسياسية والاقتصادية.

ولذلك تجد هذه الدول أن مصيرها متعلق بوحدتها - وهي تدرك ذلك على تفاوت منها. وحين يصغي حكامها لإرادة شعبها - ولابد من أن تأتي الفرصة المواتية لذلك - فإن سلوك الطريق إلى الوحدة لن يكون بعيد المنال. وحتى لو كره الوحدة كثير من الحكام وحاولوا عرقلتها فإن طبيعة التطورات في المنطقة وجسامة الأخطار المحيقة بها وقوة الضغط الشعبي سوف تدفعهم دفعاً إلى سلوك سبيل الوحدة.

ثالثاً: لن تكون الوحدة العربية دمجاً لشعوب مختلفة تتكلم لغات مختلفة وتستند إلى تاريخ من الحروب والمنازعات والعصبيات، كما هو الشأن مثلاً في القارة الأوربية. إن الوحدة العربية ستتم بين أناس يحسون بانتماء واحد ويتكلمون لغة واحدة ويحملون في صدورهم تطلعاً قومياً وحضارياً مشتركاً.

وهم على مستوى الحياة اليومية أقارب وأولاد عمومة و«أولاد بلد». ولا تكاد توجد منطقة في العالم تتداخل جنسيات أبنائها كما هو الواقع في البلاد العربية. إن الوحدة هنا إرجاع للأمور إلى نصابها.

رابعاً: كل ما يقال عن اختلاف المناهج والأنظمة والقوانين أمر مبالغ به إلى حد بعيد. إن المناهج - على ما بينها من نقاط اختلاف أحياناً - عملت أكثر من أي شيء آخر على تقريب النسء العربي بعضه إلى بعض لأنها تصبه في قالب مشترك على الرغم من تشويش - بارازيت - وسائل الإعلام بين حين وآخر. أما الأنظمة والقوانين فليست شيئاً لأنها في معظمها مستوردة من مصدر أو مصدرين، وهي لم تتطور من داخل التجربة الإقليمية حتى يقال أنها عقبة.

إن عدم إدراك النقاط السابقة وبعض النقاط الأخرى التي تختص بها طبيعة المنطقة العربية هو الذي يسبب موقف الاحتراز والتشكيك.

وإن أي تفحص جدي لما يسمى بالعقبات والصعوبات يشير إلى أنها جميعاً قابلة للمعالجة.

المهم الشجاعة والعزم ومواجهة الأمور لا ذر الرماد فوقها.

وقد أصبح لدينا ذخر من التجارب الوحدوية السابقة نستطيع أن ننطلق من سلبياته لتحقيق الوحدة التي تدوم وتنجز وتنتصر وتحرر.

كانون الأول ١٩٧٨

العشاق

في دمشق، موسم الوحدة العربية دائماً هو موسم الشعر وموسم الشعر هو دائماً موسم الوحدة العربية. إن دمشق تتألق في الربيع، ما في ذلك شك، وحين تهب أنفاس الغوطة على دمشق تجعل بيوت دمشق وحواريها وساحاتها تفوح بعطر طبيعي فاغم، يتنشقه الإنسان ولا يحس به من حيث هو شيء يشم، وإنما يستشعر في ذاته نشوة وتفتحاً وإقبالاً على الحياة وبشاشة ومحبة فائضة عن الذات. ولكن ربيع دمشق الموسمي ليس هو الربيع الوحيد.

هناك ربيع الوحدة وربيع الشعر، وهما صنوان لا يفترقان. ليس من باب المصادفة، ولا يمكن أن يكون من باب المصادفة، أن تكون دمشق مفتوحة الذراعين دائماً لنخبة صانعي صوت الشعر العربي المعاصر، وبالتالي الوجدان العربي الحديث.

في جلسة من الجلسات التي غفل عنها الزمان كان هناك محمد مهدي الجواهري، الفارس الذي امتطى سبعة وسبعين عاماً وهدها وأنهكها بالتفتح الدائم على كل أمل لوحدة العرب وعزتهم يلوح في الأفق، وكان هناك عبد الكريم الكرمي - أبو سلمى - أبو فلسطين وأبو العذوبة وأبو البساطة وأبو الذهن المستنير، وكان هناك محمود درويش، صاروخ فلسطين والعرب والعصر بوهجه البرتقالي ودويه المركب الذي لا يصنع صنعه في السمع أنمل المرء العشر ولا العشرون. وكان هناك أيضاً خالد أبو خالد شاعر النضال الذبيح، وأحمد دحبور موسيقار الكلمات التي تخترق الحجب، وكان هناك غير هؤلاء من حاملي ربابة الوحدة العربية وحداتها وعشاقها.

أكثر من جلسة ضمت نخبة صانعي الوجدان الشعري العربي مع نخبة القيمين على الثقافة في أرض الشعر والوحدة والثقافة.

لم تكن جلسات هاتين النخبتين - النخبة هنا بمعناها الطليعي لا بمعناها الفوقي - متنوعة ولا مدهشة، والحق أقول. كانت هناك ثلاثة موضوعات - أوثيمات - تشغل بال الجميع، من تكلم منهم ومنهم لاذ بالصمت.

الموضوع الأول: عشق دمشق. كان الذين غابوا عن دمشق لوقت طويل أو لبرهة. يتحدثون عن سحرها بقلب مفتوح ولهفة لا تخفى.. وكان الحاضرون من أبناء دمشق يشاركونهم الشوق والتوق والتغني والتصبي، كأنما في حالة إعادة اكتشاف، أو إزالة لحجاب المألوفية على نحو ما أراد - وردزورت - لوظيفة الشعر البسيط أن تكون.

الموضوع الثاني: وحدة العرب. كانت هناك أصوات عربية نقية تصبو إلى مطلق الوحدة وتتشهى لو لم تكن لها صفة غير صفة العروبة، وكانت هذه الأصوات تفصح أو تلمح أن ثوبها الإقليمي ليس إلا لبوسا موقوتاً، ضيقاً وخشنا وخلقاً، وتترقب تلك اللحظة التي تستطيع فيها خلع ذلك اللبوس لتستريح إلى جلدها العربي الطبيعي.

الموضوع الثالث: ولم يكن ثالثاً في كل جلسة. إلا أنه كلما طالت الجلسة كانت تلوح فرصته، وهو الفرق بين الشعر الموزون والشعر غير الموزون. كان لدى الجميع -ما عدا أصحاب القضية نفسها - ميل إلى إنكار ما يأتي به الشباب المحدثون ونعته بالغموض والفوضى واللاشيئية. وكان الشعر الحديث يتيماً ولكن في مأدبة كرام. وكانوا آسفين وغير شامتين به. وإن كانوا تندروا عليه. وشهادة الحق أن الذين كانوا أقل موهبة من بين الحاضرين كانوا الأشد تندراً والأعنف إنكاراً.

لم تكن - الثيمات - متنوعة لأنها كانت ببساطة الحصيلة المشتركة لهموم العقل الجمعي لشعب عظيم يعاني في مشرق وطنه ومغربه، ويتطلع إلى الخلاص، ربما على جناحين من وجدان الشعر، تبتدئ خفقتهما الأولى في فيحاء العرب لترف شرقاً على الخليج وغرباً على المحيط مؤذنة بانتهاء الوجود الناقص وابتداء الوجود الحي الموحد.

كانون الثاني ١٩٧٩.

الوطن المستعار

«الوطن المستعار» هو الوطن الذي حسبه بنوه خالداً مخلداً لهم، وناموا على وهم هذه البديهية ولم يخطر لهم أن يتفحصوها ويمحصوها.

«الوطن المستعار» هو الوطن الذي غفل أصحابه - ربما عن عمد - أنه يحتاج إلى (تأمين) ضد (النفس) وضد (الغير) ضد (السرقة) وضد (الحريق) وضد (الموت) أيضاً.

«الوطن المستعار» هو الوطن الذي جعل منه بنوه بقرة حلوباً يعصرون ضرعها بعشر أصابعهم صباحاً وظهراً وعصراً ومساء وفجراً، لا يتوقفون حتى لو رأوا بأم أعينهم النجيع يختلط بالحليب وحتى لو سمعوا ببنات آذانهم الأنين يطغى على الشخب.

«الوطن المستعار» هو الوطن الذي قرر أصحابه ألا يتعاونوا وألا يتآزروا وألا يبنوا معاً وألا يقوموا قومة رجل واحد لرفع مظلمة تقع أو تصحيح خطأ يرتكب أو نصرة حق أو إغاثة مستضعف يستباح.

«الوطن المستعار» هو الذي يحسبه كل فرد من بنيه ملكاً له وحده، يحق له أن يحرق زرعه متى أراد، وأن يثقب سفينته حيثما شاء له الهوى، وأن يقطع ماءه إذا رغب، وأن يفتح جسوره حين ينبغي أن تغلق، وأن يمد يده لليد التي لو تواتيها الريح لبترت واقتلعت وعاثت الفساد.

«الوطن المستعار» أبناؤه رحماء على الأعداء أشداء فيما بينهم، إذا اقتتلوا فبأسهم بينهم شديد وإن أخذهم ما يشبه الرأفة فذهبت ريحهم.

في «الوطن المستعار»، لو كان للمرء مقدار نصف ليرة في أساس عمارة من سبع طوابق إذا سحبها اهتزت العمارة وتداعت، لحسبها وهو مطمئن إلى أنه يمارس حقه، وعلى العمارة ومن فيها السلام.

وفي «الوطن المستعار» البغضاء أقوى من الحب، والاتهام أقوى من الوثوق، والتدليس (الديماغوجية) أقوى من الاستقامة، والصراحة ناقة جرباء لا يجوز الاقتراب منها، والالتواء مركبة «أبولو» تسبح في الفضاء وتسفر بين الكواكب.

هذا الوطن الذي نعيش فيه، لنحاول ألا تتنكر له حتى لا يصبح في حكم المستعار.

لنحاول ألا نجهده ونتلمظ بعذابه حتى لا تنطبق عليه الحكمة العربية المألوفة:

«أحق الخيل بالركض المعار».

لنحاول أن نصونه كما نصون عرضنا وبيتنا وملكنا وذوينا.

لنتوقف عن الشعور بالغربة فيه، ولنعامله كما لو كان لنا وهو حقاً لنا.

ولنحاول أن نبني فيه معاً، مؤسسة تنتج وهيئة تعمل ومدرسة تربي وجامعة تعلم ومحكمة تحاسب. لنعمل له من خلال المؤسسات لا من خلال ذواتنا وأهوائنا.

إنه بالمؤسسات لا بالمشاعر وحدها يكون الوطن لأهله.

ومن خلال المؤسسات يمكن للإنسان المعاصر أن يتحقق وأن يعطي وأن يصحح وأن يقوّم وأن يرضي وجدانه.

إن غربتنا في وطننا ليست مسألة (شعور) من شأنه أن يداوي بترنيمةٍ حنون أو قافية شرود فحسب. إنها غربة عن المؤسسة التي بها يصبح وجودنا ملموساً. بل هي اغتراب فعلي لا يكسر طوقه إلا التفاهم والتفاعل والعمل يداً بيد ومصيراً لمصير.

إنه وطننا هذا الذي لا يقسو علينا صيفه ولا شتاؤه، هذا الذي لا تطيق فراقنا شمسه ولا نسائمه، هذا الذي حفظ لنا شعبنا وتراثنا وثقافتنا، وأعطانا خبزنا وماءنا.

لن نستطيع أن نثبت ملكيتنا له وملكيته لنا إلا من خلال (السجل العقاري) لعصرنا.

كانون الأول ١٩٧٧.

استجواب لعام مطل

(١)

نحن عرب هذا الزمان نسألك أيها العام:

- إلى متى تبقى راياتنا منكسة وجباهنا معفرة بالمذلة وأنوفنا ممرغة بالتراب؟

- إلى متى تظل ضمائرنا حقل رماية لوخزات آثامنا حتى لا ترى ضمائرنا من حياتنا سوى وجهها الآثم القاتم؟

- إلى متى تظل ودياننا ملتقى للغربان الناعقة والحدآن الناعبة والأبوام النادبة؟

- إلى متى تظل أيدينا مشدودة إلى الأوتاد من ورائنا، وعيوننا شائهة كليلة وأقدامنا غائصة في وحل الليالي؟

- إلى متى نمضي في تحطيم كل ما يتاح له أن يبنى في حياتنا؟

- إلى متى تظل مصائرنا بيد من لا مصير لهم، بيد من لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً؟

- إلى متى يحسب على أمتنا الخائن والخائب، والمهووس، والممسوس، والمسعور والمعصوب؟

- إلى متى يؤتى لأمتنا بخفي حنين فتصدق وتصفق كأنما أتى لها برأس كليب؟

(٢)

أيها العام المطل

- نحن عرب هذا الزمان سئمنا من الاعتراف بأن مشكلتنا هي مع أنفسنا، ولكننا لا نريد أن نيأس، لا نريد أن نكف عن السؤال إياه: كيف نصفي مشكلتنا مع أنفسنا؟

نحن عرب هذا الزمان نعرف تماماً كم نحن ممتدون، وكم نحن كثر، وكم نحن أغنياء، وكم نحن قادرون. ولذلك لن نكف عن التساؤل: كيف نحول الكم الساكن إلى كم فاعل، إلى كيف، إلى طاقة عارمة؟

نحن عرب هذا الزمان نعرف أننا أكثر الناس تغنياً بالوحدة وأقدرهم على صنع التجزئة، وأكثر الناس تشبثاً بالكرامة وأقدرهم على هدرها، وأكثر الناس صراخاً في وجه العدو وأقدرهم على التمكين للعدو.

ولكننا نعرف في الوقت نفسه أن الذي ينقصنا ليس الجسم ولا القلب، ولكنه صمام في مكان ما يعيد لقلبنا النبض ولجسمنا دم الحركة ولذلك لا نفتأ نسأل:

كيف السبيل وأين المخرج؟

نحن عرب هذا الزمان نعرف أن فينا كل ما يسر العدو، وكل ما يسوء الصديق... نعرف أن فينا من يخطط للعدو بأفضل مما يستطيعه العدو... نعرف أننا لا نتقن فن المعاداة ولا نتقن فن المصادقة.

نعرف ذلك كله جيداً، ونعرف أننا نعرف... ولذلك لن نكف عن التساؤل بحرقة: من أين نبدأ؟ وكيف ننفض غبار الخمول؟

نحن عرب هذا الزمان، نعرف أنه لم تبق في العالم المعاصر أراض كثيرة محتلة، هناك بقعتان أو ثلاث حالها قد يكون مثل حالنا، ونعرف طيباً أن الشعوب استقلت، والأمم استيقظت من رقدة العدم، وحقوق الناس أصبحت معروفة ومعترفاً بها إلا حقوقنا.

ولذلك، لا تصدق أيها العام المطل، أن هناك نفراً منا يمكن أن يقزوا فوق هذه الحقائق لكي يستريحوا من وطأة ملاحقتها لهم. ونحن لا نكف عن سؤالك: هل يبقى هؤلاء في عهدك؟ هل يكون زمنك رديئاً مثل الأعوام التي سبقتك؟.

(٣)

أيها العام المطل:

منذ زمن طويل فقدنا طعم الجدة في الأعوام المطلة.

كل عام كان يحمل لنا معه مآسي، وضحايا، ومصائب، وخيبات. وفي أجسادنا تتكسر نصال الأعوام الجديدة على نصال الأعوام المنصرمة، ونحن مصرون على أن نحس بها كلها ونتلمظ مرارتها ونختزن آلامها.

نحن نتطهر بآلامنا أيها العام المطل، ولا نريد منك أن تكون أقل إيلاماً من الأعوام التي مضت..

سؤال واحد نطرحه عليك من خلال توقعاتنا التي طالت، وأحوالنا التي ترامت، وأوضاعنا التي تردت حتى لم تبق هناك زيادة لمستزيد:

لماذا لا تكون عام الزلزلة؟

أول كانون الثاني ١٩٧٨

استشارة تاريخية

تقول مصادر التاريخ الأندلسي أن سقوط الأندلس كله بدأ ببلدة بريشت سنة ٤٥٦ للهجرة، وتوالت بعدها السلسلة المحزنة بسرعة مذهلة بالنسبة إلى معايير تطور الأحداث في الأزمنة الماضية.

- القرن الخامس الهجري:

صقلية ٤٦٤، طليطلة ٤٧٨، بلنسية ٤٨٧.

- القرن السادس الهجري: شلب ٥٩٣.

- القرن السابع الهجري:

جزيرة ميورقة ٦٢٧، البونت ٦٣٣، قرطبة ٦٣٣، بياسة ٦٣٤، بلنسية ٦٣٦، شاطبة ودانية ٦٣٨، لورقة وقرطاجة ٦٤٠، إشبيلية ٦٤٦، مرسية ٦٦٨.

وبعد ذلك توقفت السلسلة مؤقتاً، على الرغم من عدم تدخل القوات الدولية بسبب عجز السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة في ذلك الحين - المراجع لا تذكر اسمه - عن جمع مجلس الأمن لاتخاذ الإجراءات المناسبة.

وبعد ذلك تكمل السلسلة انحدارها وفي سبع سنوات فقط تكون المسألة قد انتهت ويسدل الستار. إذ تسقط رندة سنة ٨٩٠، ومالقة سنة ٨٩٢، ووادي آش والمرية والمنكب سنة ٨٩٤، وبسطة ٨٩٥، وأخيراً غرناطة ٨٩٧هـ.

وتقول المراجع أن العام الهجري ٨٩٧ هو نفسه العام الميلادي ١٤٩٢. وفي العام كانت لفريناند وإيزابيلا فرحة مزدوجة. إنهاء الوجود العربي في الأندلس واكتشاف أمريكا.

ولا تذكر المراجع الأندلسية في ذلك الحين شيئاً عن العلاقة بين الحدثين الخطيرين. ولكن مراجع التاريخ الحديث تشير إلى أن أميركا حفظت هذه الذكرى، وما أن أتاحت لها قوتها المتصاعدة في القرن العشرين أن تخرج عن نطاق عزلتها حتى استعادت ذكرى مولدها ولم تتنكر لمغزاه ومعناه أبداً ولاسيما في سلسلة الأحداث التي توالت منذ سقوط فلسطين سنة ١٩٤٨ إلى سقوط جنوب لبنان سنة ١٩٧٨. ذلك أن كل شيء تم بفضل مساعي دولاراتها ومعداتها المتدفقة كالسيل على مملكة فردناند وإيزابيلا الجديدة.

وتختلف المراجع أحياناً حول تحديد دور أميركا في الماضي وفي الحاضر. ولكن ما لا تختلف عليه هو مواصفات الطرف العربي في الماضي:

- دويلات كحال الشهب في السماء لا تكاد تلتمع حتى تتهاوى.
- ملوك كالمماليك يغير كل منهم على الآخر ليوسع ملكه ولا يتورعون عن الاستنجاد بالأجانب الذين كانوا يستولون عادة على ملك الطرفين العربيين المتقاتلين.
- بأس الحكام العرب فيما بينهم شديد ولكنهم رحماء على الكفار.
- كان الانهماك في اللهو والترف يزداد في القصور والبلاطات مع ازدياد الانحدار العسكري.
- كان الذين يدفعون الثمن دائماً هم سكان الحواضر والمدن الذين أضحت حياتهم سلسلة من المحن والآلام والفرار المتواصل بحثاً عن المأوى.

وبما أن المراجع الحديثة مضطربة ومتداخلة فإنه من الصعب المقارنة بين الماضي والحاضر. ومع ذلك يبدو من المؤكد أن هناك فرقاً لا يمكن تجاهله وهو وجود قوات دولية في عصرنا الحاضر وظيفتها أن تجعل عملية الاستلام والتسليم منظمة ومتناسقة... وهي ميزة خاصة بعصرنا لا نجد لها أثراً في الماضي.

آذار ١٩٧٨

تشاؤم وتفاؤل

١ - في مقالته الشاملة الصريحة في جريدة (الثورة) بتاريخ ١٩٧٩/٢/١٤ حول «الحياة القومية بين ردود الفعل الطبيعية وردود الفعل المرضية» أصاب أستاذنا الدكتور حافظ الجمالي عدة أهداف بحجر واحد، ولكن الدريئة الأساسية التي رماها فأصمى (أصابها في الصميم) هي التساؤل عن طبيعة ردود الفعل العربية في مختلف مستويات حياتنا المعاصرة. وأن الدكتور الجمالي –شأنه شأن المفكر الحصيف - لا يقرر ولا يجزم في مثل هذه المسألة التي تحتاج إلى سبر علمي وسبر فكري وسبر نفسي من خلال المعايير العامة المتفق عليها في مثل هذه الأحوال. ومع ذلك لا يسهل على الإنسان أن يلاحظ ما في كلام الدكتور الجمالي من مرارة شديدة حين يتحدث عن التدهور العام الملحوظ في ردود فعلنا السياسية والعملية والعلمية والعقلية وغيرها، وحين يجد نفسه إزاء أحد التفسيرات المحتملة التي سبق له أن تحدث عنها، وهو (التركيز على الذات).

٢ - وبالطبع لا يعتقد الدكتور الجمالي ولا غيره أن (التركيز على الذات) هو سبب أو تعليل.. وإنما هو جزء من ظاهرة التدهور العامة، بل ربما كان يشكل الرابطة المشتركة لمختلف تجليات هذه الظاهرة، كما أنه - في الوقت نفسه - مؤشر للمرض الأساسي الذي قد ترجع إليه معظم العلل في حياتنا المعاصرة وهو فقدان القوام الاجتماعي سواء على مستوى الأمة العربية بمجملها أو على مستوى كل قطر على حدة، إلى درجة أن الإنسان لو ترك المسلمات الكبرى التاريخية والجغرافية والروحية جانباً، وسأل السؤال الدنيوي الخشن بالصيغة التالية مثلاً:

- ما هي البراهين التي تثبت من خلال تصرف الناس وأعمالهم الملموسة (لا أقوالهم المعلنة) أنهم:

آ - يحسبون حساباً لصالح الوجود المشترك الذي يعيشونه مع الآخرين، فلا يثقب أحدهم مثلاً مركباً يمخر البحر به وبالآخرين، أو يخلع نافذة في طائرة تقله مع آخرين، أو يكلف نفسه عناء رفع حجر عن وسط الطريق كان قد أسند إليه سيارته المتعطلة؟

ب - يفكرون في التصرف العملي لدفع الخطر الداهم الذي اقتلع من قبلهم أهلاً لهم على دفعات، ومازال بؤس هؤلاء المتجدد شاهداً صارخاً على ما ينتظر غيرهم إن استمرت الأحوال على هذا المنوال.

جـ - يظهرون من التعاطف العملي فيما بينهم ما يطمئن إلى أنهم سيكونون أرحم فيما بينهم من الطبيعة، أن ثارت ثائرتها يوماً وزلزلت زلزالها؟.

٣ - هناك أناس يظنون أنفسهم متفائلين فيقولون:

- ألا يكفيكم أن الجريمة في البلاد العربية أقل درجة مما يتوقع أن تكون عليه في مثل الظروف الاجتماعية التي تعيشها البلاد.

ألا يكفيكم أن العربي حين يجد نفسه في بلاد الأجانب يلتقي بشكل بديهي مع العربي الآخر، وينسى الحواجز المصطنعة التي تفصله.

- ألا يكفيكم هذا التفجر التعليمي المذهل؟

- ألا يكفيكم ...؟

٤ - إن مثل هذه المناقشة الدنيوية بالطبع لا تغفل وجود قناتين يتمثل فيهما التماسك العملي الذي هو مدار الحديث.

القناة الأولى: التماسك من خلال التصرفات العامة للفرد أو للوحدة الاجتماعية. وإن نظرة سريعة إلى حال الأشجار التي غرست منذ سنوات

على طريق المطار أو مقاعد كلية الآداب التي بدأت الدراسة في مبناها الجديد قبل خمس سنوات على الأقل، لا يمكن أن تشجع الإنسان على الاعتقاد بأن كل شيء على ما يرام.

القناة الثانية: المؤسسات المختلفة التي تشكل عصب الجسم العام والتي من خلالها تتم عمليات التربية العامة والإدارة العامة والاقتصاد والسياسة والدفاع وغيرها. وإن أكثر الناس تفاؤلاً لا يستطيع أن يقول أن هذه المؤسسات على مستوى البلاد العربية كلها، تعطي أية نسبة مقبولة من الإنتاج الذي يفترض أن تقدمه لتكون قوام الجسم العام.

* * *

هل تتضمن هذه الأحكام نفياً للحياة العربية المعاصرة؟ معاذ الله والوطن والحياة.

إنها لا يمكن أن تكون كذلك.

لأنها - أولاً - أحكام عامة غير ثابتة، وربما كانت واقعة في شرك مبالغة كبيرة ناجمة عن صعوبات المرحلة.

ولأنها - ثانياً - لا تنطلق من منطلق النعي، بل هي نقد ونقد ذاتي ناجم عن اعتقاد جازم بأن الحياة العربية يجب ويمكن أن تكون وسوف تكون أفضل مما هي عليه بكثير.

وإن الطريق إلى المستقبل لا يكون بالتستر على الصدوع وإنما بالكشف عنها حتى الأعماق المتسوس لكي يمكن بناء شيء سليم ومتين وقادر على البقاء.

وبهذا المعنى ما أظن إلا أن الدكتور الجمالي هو مبشر المستقبل وبدون هوادة.

شباط ١٩٧٩

* * *

نفحة ثقة بالنفس

تقول الأخبار:

«بدأت المحكمة العسكرية الصهيونية بمحاكمة الفدائيين اللذين اشتركا في عملية (دير ياسين) التي ترأستها البطلة الشهيدة دلال المغربي بالقرب من حيفا في العام الفائت وقتل بنتيجتها ٣٤ صهيونياً وجرح ٧٢ آخرون بينما استشهد فيها تسعة فدائيين وأسر اثنان».

وتورد الأخبار العالمية صورة الفدائيين وهما يرسمان شارة النصر بمنتهى الثقة والاستبشار. كما تورد صورة أحدهما وهو يحاول الانقضاض على جندي صهيوني بصق عليه في المحكمة.

هذه الوقائع التي نسمعها كل يوم تذكرنا على الفور بالصور التعيسة المنهزمة المتشككة التي يلوكها يومياً بعض المثقفين وبعض المنهزمين وبعض الثرثارين.

في كل يوم نسمع عن عملية فدائية جديدة في الأرض المحتلة ويقول المتشككون: قد أصبحت هذه العمليات روتينية. وهي لا توقع في صفوف العدو الإصابات الكافية ولا تؤثر في موقفه.

ويسمعون عن صمود أهلنا في الأرض المحتلة وعن إخفاق أطراف المؤامرة الخبيثة في ترهيب أو ترغيب أي طرف فلسطيني للاشتراك في المفاوضات.

ويقولون: المؤامرة ماشية والمخطط مرسوم.

ويسمعون عن صمود القطر العربي السوري في وجه أعتى الهجمات الامبريالية. ويسمعون عن الحركة الوطنية داخل مصر. ويسمعون عن الصعوبات التي يواجهها نظام الخيانة هناك، ويسمعون عن عمليات الثورة الأرتيرية، ويسمعون ويسمعون.. ويهزون رؤوسهم: لا فائدة.

* * *

إن الوضع العربي الآن صعب جداً، ما في ذلك شك. وإن الهجمة الامبريالية الصهيونية تبلغ الآن ضراوة لم نعرف لها نظيراً من قبل بعد أن أقامت ركيزة لتحركها في قلب المنطقة العربية وبعد أن خرقت حواجز لم تكن تحلم يوماً ما بإمكان خرقها، وبعد أن نشرت حالة من التراخي واللامبالاة في قطاعات معينة من الحياة العربية.

ولكن هل من خيار في مواجهة هذه الأخطار المصيرية سوى الصمود والتصدي والتضحية وتمتين الثقة العربية.

إن الحياة العربية تزخر بالإيجابيات من حولنا فلماذا يراد لنا أن نغمض أعيننا عنها؟

وهذا الخبر وحده عن معنويات الفدائيين اللذين يتعرضان لعقوبة الإعدام أو السجن المؤبد واللذين فقدا تسعة من رفاقهما، ألا يكفي للتأكيد بأن هذا الشعب العربي بحر لا ينضب من العزيمة والثبات والإيثار؟.

هل هذا حلم أم واقع؟

يقول العارفون في صفوف الثورة الفلسطينية، أنه ما إن يعلن أي تنظيم عن عملية فدائية انتحارية حتى يبدأ التنافس بين الشباب على شرف الأولوية في مجابهة الخطورة وفي الاندفاع في طلب الموت... ويمضي هؤلاء الشباب إلى مصيرهم المحتوم، وهم يعرفون بالضبط ما ينتظرهم، ويصبح أملهم الوحيد في الحياة أن يسجلوا ولو نقطة واحدة لصالح الوطن قبل أن يودعوا الحياة.

«أن يودعوا الحياة».

كلمة يسهل أن تكتب أو أن تقال عن الآخرين، ولكن ليتصور أحدنا أنها تتعلق بنفسه أو بولده!!

ليس هذا حديثاً عن (خوارج) وصلوا إلى الطريق المسدود ولم يكن أمامهم سوى افتداء العقيدة بالدم. وإن بطولة شبابنا العربي لتستدعي عن استحقاق كل ما قيل في أدبنا العربي في البطولة والتضحية وطلب الموت قبل الحياة. إن هؤلاء الشباب يستندون إلى سياج عظيم من صمود شعبنا في الأرض المحتلة، وإصراره على انتمائه إلى أمته العربية، ورفضه كل أشكال الإرهاب والإغراء، ووفائه المستمر لقيمه ومبادئه، وتحديه الأسطوري لأعتى الهجمات والمؤامرات. إن هؤلاء الشباب يستندون إلى جدار واحد من أبناء الشعب العربي الذي تعذب وتعرض للخيبات وعانى وضحى وأسيئت معاملته، ودفع دفعاً مدبراً إلى التراخي والقنوط، فما لان ولا هان، وظل دائماً ينتظر الفرصة المناسبة ليدفع ويقدم ويضحي وليضع حقوقه اليومية جانباً في سبيل الحق القومي الكبير، وليميز بين البطولة الحقيقية وبين الادعاءات الزائفة، وليطالب دائماً بأن تكون الأمة العربية صفاً واحداً وخندقاً ممتداً من المحيط إلى الخليج.

لقد تفشت اللغة الخطابية في مرحلتنا الراهنة وهي جزء من مؤامرة التضليل والإرباك، حتى بات المرء يفتش عن الكلمة التي لم تستهلك فلا يجدها إلا بشق النفس. ولذلك يكفي أن يقال للناس:

- افتحوا أعينكم جيداً على كل عمل إيجابي وقدروه حق قدره، لتمنحوا أنفسكم فرصة تدعيم الثقة بالنفس وبالمقدرة على الاستمرار.

آب ١٩٧٩

* * *

«٢٣» تموز

ها قد مضى ربع قرن ويزيد على ذلك البيان المهلهل ذي الصياغة الرديئة الذي أذيع من راديو القاهرة في ٢٣ تموز ١٩٥٢.

يومها لم يستطع الإنسان أن يصدق أن الملك فاروق انتهى.. وكان في وهم كل الناس أنه، بفساده، قادر على أن يستمر إلى أبد الآبدين. وكان في وهم كل الناس ظلماً أن مصر خنعت واستكانت وجاعت بحيث لا يرجى أن تقوم لها قائمة.

ولكن مع الهدوء الذي رافق انقلاب الضباط الأحرار، ومع البساطة وعدم الاكتراث بالتظاهرية في الإخراج أيقن الناس لحظة فلحظة أن مصر مصران، وأن مصر العربية هي الأقوى وهي الصامدة وهي الموجودة وهي التي لابد من أن تنتصر في النهاية.

وتماماً مثلما قال ميخائيل نعيمة في تقديمه لديوان العقاد والمازني سنة ١٩٢١:

«ألا بارك الله في مصر. فما كل ما تنشره ثرثرة - ولا كل ما تنظمه بهرجة. وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام وتؤله رصف القوافي. فكم زمّرت لبهلوان، وطبلت لمشعوذ، وطيبت لسكران.

غير أني عرفت اليوم بالحس ما كنت أعرفه أمس بالرجاء. عرفت أن مصر مصران لا واحدة. مصر ترى البعوضة جملاً والمدرة جبلاً، ومصر ترى البعوضة بعوضة، والمدرة مدرة. مصر لها ميزان بكفة واحدة، ومقياس بطرف واحد، ومصر لها ميزان بكفتين ومقياس بطرفين. فهي تفصل بين الرطل والدرهم. وتميز بين الفتر والفرسخ.

إن مصر هذه - مصر الثانية - قد قامت اليوم تناقش الأولى الحساب. فانتصبت وإياها أمام محكمة الحياة. وسلاحها الوجدان الحي. ومحكها الحق.

فكأنها تقول لها: - أما أن تثبتي لي حقك باعتباري فأسكت. أو أريك كل ما فيك من زيف فتسكتين -. وبعبارة أخرى أن مصر تصفي اليوم حسابها مع ماضيها».

* * *

لقد بدأ الضباط الأحرار بشعارات ثلاثة مبهمة: الاتحاد، النظام - العمل.

وسرعان ما أضاءت شعلة القومية العربية والثورة صدور الأصيلين منهم وسرعان ما انبرى من بينهم فارس شق الغبار إلى الذرى البعيدة وغالب الزمن فصنع وحدة وصنع مجداً، ولكن الزمن عاد فغلبه وقلب له ظهر المجن... واليوم... اليوم فقط يفهم الناس كيف ولماذا؟

ولقد منحتنا ثورة الثالث والعشرين من تموز نشوة يصعب أن تستعاد حتى في الذكرى.. يومها لم نكن نرضى بأقل من قطاف النجوم. وبدا لنا أن الماضي العظيم أوشك أن يستعاد حقيقة واقعة. وكانت مقدرتنا على مسابقة الريح في هبوبها ومناطحة البحر في تماوجه يقينا ثابتاً ليس لأحد أن يدنو به إلى درك المناقشة.

ومن الحق أن نعترف أننا أسرفنا كثيراً وطرنا على أجنحة لحمتها وسداها من الشموع. ولكن مع ذلك كان لنا مستقبلنا وكانت لنا قيمنا وكان لنا استعدادنا المطلق للبذل وللكفاح.

واليوم، بعد ثماني سنوات من غياب الرجل الكبير، يراد لعقارب الساعة أن تعود القهقرى بأسرع مما انطلقت.

اليوم تنكث «بنيلوبي» بعد أن تنكرت لكل معاني الوفاء، ما حاكته الأيادي المعروقة من غزل. وتمعن في تقطيع الخيوط وأحياناً تحرقها وهي تتشفى.

حتى الماضي، عند نقطة البدء، أصبح يخيفها لأنه في كل لحظة يمكن أن يكون نقطة بدء جديدة. ولقد سلت منا دمنا وأعصابنا وكل نقطة نشوة عرفتها عروقنا في الماضي.

سنظل نؤمن أن مصر مصران..

ولكن هل يأتي البرهان قبل أن تجف منا العروق؟!.

تموز ١٩٧٨

* * *

العظمة ومصيرها

ما أكثر ما سوف يكتب عن الفقيد الراحل هواري بومدين، البدر الذي خر فجأة من الأعالي يوم كان الناس يشخصون إليه بأبصارهم يستزيدونه إسهاماً في شؤون الشرق العربي، ومسعى نبيلاً لرص الصفوف وجمع الكلمة، وأيداً ودعماً لكل خطوة وحدويه في المشرق يكون أساسها تحرير الأراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق الفلسطينية المغتصبة.

كان بومدين مشرق الوجه كبدر التمام، رافع الرأس كأسد يحمي الغابة، حازم النظرة ثاقبها كأنما يرى إلى البعيد من خلال عين بصيرية متجاوزة للمحسوس، وكان ثبت الفؤاد كفارس مؤمن يدفع عن عرضه وبيت عبادته، وكان واضحاً كأن وضوحه رأد الضحى، وكان عملياً وخشناً وواقعياً ومبدئياً في وقت واحد، وكان متفهماً وعنيداً في وقت واحد، إذا اقتنع أقدم ونفذ وفعل، وإذا لم يقتنع اعترض وصرح وأعلن، وكان يعرف ما يريد في وقت عشيت فيه الأبصار، واختلطت فيه الرؤى، وانكمشت قلوب الرجال، وقصرت أيديهم، وجمدت أكفهم، وعشعش العنكبوت في ضمائر أكثرهم.

* * *

وكان بومدين يحب الجزائر لأنها صورة نفسه ولأنه صورتها، ولم تكن له ذات خارج التطابق مع ذات الجزائر، وكان ماثلاً في ساحة وعيه دائماً أنه يفعل ما يفعله لأنه فتى الجزائر، وكانت تضاريس طباعه تحتفظ بنتوءاتها وامتداداتها وخشونتها ونعومتها، ولم تستطع المصالحة أو التهذيب أن تجعل منها مهاداً سوياً وكانت هذه التضاريس هي عينها تضاريس الجزائر العجيبة،

ببحرها المفتوح أبداً على العالم، وجبالها المستعصية على كل ما هو غير جزائري، وصحرائها التي تعطي وتمنع وترضى وتغضب من خلال قانونها الطبيعي الخاص. وفي كل بلاد العالم هناك بحر وجبل وسهل وصحراء. لكن في الجزائر بالذات تتساوى معاني هذه الأقانيم بحيث تشكل مركباً فريداً من نوعه يجعل الجزائري محبوباً ومرهوباً وقريباً من القلب وبعيداً عن قبضة اليد العاطفية. إنه حب متمرد لا ينطبق قانونه عليه دائماً لأنه مركب من طبيعة خاصة وتجربة مرة خاصة.

وكذلك كان بومدين: حباً وتمرداً، قرباً واستقلالية، واقعية ومبدئية.

* * *

وكان بومدين يحب فلسطين لأنها قضيته، ولأنها كانت ماثلة في ذهنه يوم كانت قضية الجزائر تملأ قلبه وجوانحه، وكان بومدين مستعداً لأن يعطي كل شيء لفلسطين. ولقد سمعها الكثيرون من فمه بأشكال مختلفة، وسمعها «الراوي» بأوضح عبارة:

«إذا كانت هناك فرصة لمعركة تحرير حقيقية، فأنا أرسل نصف جيشي كدفعة أولى، وحين يبدأ القتال وتتأكد حقيقة المعركة أرسل نصفه الآخر».

وكان دائماً مستعداً لأن يفعل ما يجمع عليه الفلسطينيون، وكان يقول لهم: أوضحوا ما تريدون ونحن لن نتأخر.

وكان يحب سورية والعراق ويعمل على جمع شمل البلدين الشقيقين. وكان دائماً يعتقد أن ذلك مفتاح الخلاص. وقد سمعتها منه أذناً لفهم في مقابلة خاصة في الثلاثين من تموز سنة ١٩٧٠ بعد تصاعد حملة روجرز، وكان منذ ذلك الوقت يخشى على مصر أن يؤدي بها تفتت العزيمة إلى الوقوع فريسة في يد العدو.

وكان بومدين يحب العرب ولغتهم وقرآنهم. وقد جعل من «التعريب» قضية يومية له وشغلاً شاغلاً حتى أصبح المعيار في الجزائر واضحاً:

أن يكون الإنسان مع التعريب فذلك استمرار لنضال الجزائر واستبسالها وثورتها.

أما أن يكون ضد التعريب، فذلك يعني أنه فقد الجزائر.

* * *

شيء واحد فقط يتمنى المرء لو أنه يعفى من قوله. ولكن كل شيء من حول المرء يدفعه لأن يقوله:

- نحن في هذه البلاد العربية تصنع كل يوم آلهة لنا ونصر على أن تظل لحمتها وسداها من تمر.. ربما لكي نأكلها في الوقت المناسب، وربما لكي نلقي بها في البحر حين يحلو لنا ذلك.

كل أولئك الذين فعلوا شيئاً ما في مضمار النهضة العربية الحديثة، أكلهم العقوق، أو ألقوا في البحر، أو صلبوا في الساحات.

أما آن لنا أن تنتهي من هذه المأساة التي قد تكون أشد فجيعة من وفاة رجل عظيم، لأنها تعني الوفاة الأبدية لمبدأ العمل العظيم.

كانون الأول ١٩٧٨

القسم الثاني

زوايا من التخلف

- آذان ناقلة وعيون عازلة (مسلسل ١ -١٠)
- التخلف والإصرار على التخلف
- التخلف وفقدان المعايير
- القراءة ومشكلة التخلف
- التخلف من الداخل
- الإدارة والتخلف
- التخلف والتعميم
- تخلف وخلاف وانقسام
- ساعات الكترونية ومواعيد غير الكترونية.

آذان ناقلة وعيون عازلة

(١)

في مذكرات نشرها موشي دايان قبل سنوات توصيف لعناصر الإستراتيجية الإسرائيلية العسكرية تجاه مصر، وتحديد للخطة العسكرية الثابتة للوصول إلى قناة السويس اتقاء لأي خطر محتمل من جانب مصر.

(ملاحظة أولى):

يجب ألا يخطر لأحد أن هذا الكلام أصبح قديماً الآن، فالإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية باقية على حالها مهما تغير موقف الطرف الآخر.

المهم أن موشي ديان روجع فيما كتبه، وسأله أحد الصحافيين:

- ألا تخشى أن يقرأ العرب ما كتبته ويكتشفوا الأسرار العسكرية الإسرائيلية؟

ويقال أن ديان أجابه بأن العرب ليست أمة قارئة.

(ملاحظة ثانية):

بعد الذي حدث وصار وتم لم يعد الإنسان يشعر بالحرج الشديد جداً حين يستشهد بأقوال دايان، فقد أصبح دايان وأضرابه من الإرهابيين حجة وثقة لدى إخواننا وجيرانهم.

والمهم ثانية، أن دايان ينطق عن الهوى، ومن بين كل من على سطح البسيطة هو آخر من يحق له انتقاد العرب ذوي العيون النجل أو الحور، ذلك أن القراءة لا تكون إلا بالعينين الواسعتين الكبيرتين وما شأن عين شوهاء وأخرى عوراء بالقراءة وما أشبهها... فلندع موشي دايان وشأنه ولننسَ أننا بدأنا به الكلام.

(٢)

قبل حوالي شهرين من الهجوم الإسرائيلي (المفترض أنه مفاجئ) في السادس من حزيران ١٩٦٧ نشرت الصحف الإسرائيلية تفاصيل عن مناورات إسرائيلية ضخمة في النقب وأعقبت ذلك تقارير وصلت من الأرض المحتلة تحدد بالضبط كيف أن الهدف المرسوم للمناورات هو الوصول إلى قناة السويس، وكيف أن الطيران يقوم أولاً بضربة صاعقة، ثم يأتي بعد ذلك دور المدرعات في هجوم سريع كاسح، إلى غير ذلك من التفصيلات التي تحققت تماماً خلال الهجوم الإسرائيلي على مصر عام ١٩٦٧. يومها قدمت هذه التقارير إلى مسؤول عربي كبير، وكان هناك اجتماع مقرر للقيادة العربية الموحدة، واتضح فيما بعد أن القيادة العربية الموحدة كانت على معرفة طيبة بطبيعة المناورات وأهدافها والمبادئ العسكرية التي استندت إليها. ولكن تبين من النتائج العملية أثناء الحرب أن التقارير قرئت بالعينين الكبيرتين الخارجيتين فقط، ولكن العينين كانتا عازلتين، فلم توصلا المادة المعينة إلى المراكز المختصة في الدماغ.

(٣)

أكثر المسؤولين في البلاد العربية - إلا من رحم ربك وما أقلهم - يحرصون على أن تصل إلى مكاتبهم كل أنواع الصحف والمجلات والوريقات التي تصدر في البلاد العربية، إضافة إلى بعض ما يصدر في البلاد الأجنبية (كالتايمز) و(لموند) و(نيوزويك) مثلاً. تدخل إلى المسؤول الكبير وترى على مكتبه الأكوام يومياً. تسأله هل قرأت تعليق ميشيل أبو جودة، أو محمد حسنين هيكل، أو ايريك رولو. فيقول لك، لا وماذا فيه؟ فتقول: في تعليق فلان كيت وكيت.. وبعد دقائق يدخل ضيف فيسأله المسؤول الكبير: هل سمعت بما كتبه ايريك رولو، إنه يقول: كيت وكيتان... وبعد أيام تسمع ضيف المسؤول الكبير يروي للناس أنه قرأ في لموند أو النهار أو... أو... أن ايريك رولو يقول كيت وكيتان وثلاثة وأربعة.

تذهب المويات مذهب الأقوال المحققة وتبنى عليها المواقف والسياسات أحياناً. وتكون (قيل) عن (قال)..

إنها الآذان الناقلة أما العيون فمعزولة عازلة.

(٤)

من هذا القبيل روى راوٍ أنه اقترح خطة بسيطة لإنشاء مكتبة صحفية متواضعة، جداً جداً لإحدى المؤسسات العربية المهتمة بالعمل السياسي... وناقشه من هو أعلى منه رتبة في موضوع الخطة. قال له: لماذا جريدة (انترناشيونال هيرالد تريبيون) مثلاً؟ ألا يكفي أن تقرأ الأخبار في جريدة (...). كل الجرائد متشابهة (مثل بعضها). قال للمسؤول: هناك وجهة نظر محلية ووجهة نظر خارجية، في فهم الأحداث والتعليق عليها. قيل له: أتصدق تحليلات الجرائد، هي كلام فارغ. قال: هناك صياغة محلية مناسبة للخبر، وهناك الخبر في صيغته الدولية: يجب أن نتحقق من النصوص. قيل له: وهل المسألة كتابة رسالة جامعية، الخبر هو ما يناسبنا، وكل خبر ينسخه ما بعده وعلى الدنيا السلام.

* * *

تدخل مسؤول آخر من بقعة أخرى من بلاد العرب. قال: نحن لدينا أكبر (...) في البلاد العربية ولدينا حوالي ألف موظف هناك ولكن ليس لدينا مكتبة... لم يبق على الموظفين إلا أن يضيعوا وقتهم في القراءة (موظفون في مؤسسة سياسية لا سياحية!..) من شاء منهم أن يطلع على أي خبر فليأخذ من السوق جريدة وليقرأها في البيت.

... قال الراوي: فجأة دق المسؤول جرس الخدمة، وحين أطل الآذن قال له بالبساطة التي تقال بها عبارة (صباح الخير):

- خذ الجرائد والمجلات إلى السيارة.

وتأبط المذكور كومة كبيرة وخرج بها إلى حيث لا يعلم إلا الله ما يفعلون بها.

(٥)

حين راجعت الحلقات السابقة من هذا المسلسل في الصحيفة التي نشرته عرفت تماماً أن الله فتح لي فتحاً طيباً إذ وضعن وجهاً لوجه أمام معين لا ينضب من الشواهد المؤيدة لما تذهب إليه فكرة المسلسل من أن عيون عرب هذا العصر لا تعتبر القراءة من وظيفتها وإذا حدث ذلك على سبيل الخروج عن القاعدة فإن العيون عازلة، أي لا تقوى على إيصال المادة المقروءة إلى مكانها المناسب من تلافيف الدماغ. والمعين الذي أعنيه هو (الأغلاط المطبعية). وما كنت أود أن أبدأ بهذا المعين الذي له أول وليس له آخر، لولا أن الأغلاط المطبعية استفزتني ودفعتني إلى ذلك دفعاً.

العنوان: آذان، أصبحت بلا ألف وسطى فإذا هي إذن بالمفرد لا بالجمع. (ولا أدري كيف ستكتب في هذه الحلقة.

دايان وأضرابه (بالضاد)، أصبحت (وأحزابه)، ولم يبق لها معنى.

- ولننس (بالسين دون ألف مقصورة) أصبحت كالعادة بألف مقصورة ولم يراع فيها حذف حرف العلة من آخرها، وبذلك أصبحت غلطة نحوية شائنة، ولو أنها تتكرر يومياً.

الفقرة قبل الأخيرة، قلب عاليها سافلها وحل كل سطر مكان سطر آخر، كما كان يحدث للقصائد العربية القديمة التي كانت تضطرب رواية أبياتها من حيث التسلسل، ويقبل هذا الاضطراب على أنه وجهة نظر، وتصطاد له التفسيرات. المهم أن السطر الثالث في الفقرة قبل الأخيرة أتى خامساً والخامس أتى ثالثاً واختلطت أحرف الجر والأفعال والأسماء، وظل بينهما السطر الرابع سليماً معافى لا يبرح مكانه الصحيح.

* * *

أذكرتني هذه الأخطاء التي وردت في عمودين صغيرين فقط بما تعج به كتبنا وجرائدنا ومجلاتنا من أغلاط مطبعية تفسد كل معنى للكتابة. وفي وهمي أن الناس لا يقرأون وإن قرأوا فإن معظمهم لا يميزون. ولو كان الأمر غير ذلك

لكان ينبغي أن تقوم ثورة ضد أساليب الطباعة، أو على الأقل لقامت مشاحنات بين الناس نتيجة لما تحدثه أخطاء الطباعة من سوء تفاهم. إن (العيون العازلة) تلعب هنا لعبتها وتصبح حكمة ونعمة لأنها تخفف من وقع الخطأ على النفوس. ذلك أنه في معظم الحالات تمر المادة المغلوطة دون تمييز، وتبنى عليها الأحكام ويجاب عليها كما لو أنها صحيحة ويستمر حوار الطرشان.

أتراني أبالغ؟

منذ عدة سنوات أدرس في الجامعة - كما يفعل غيري - كتباً وأمالي مشحونة بالخطأ المطبعي، على الرغم من الجهود التي تبذل في تصحيح المسودات... ولم يحدث إلا نادراً أن أتى طالب، ممن وظيفتهم الأساسية الدراسة والتمييز في القراءة، واستفسر عن كلمة مغلوطة أو اعترض على معنى تأتي به الغلطة المطبعية مخالفاً للسياق. بل ما هو أدهى وأمر أن الأغلاط المطبعية تكتب في أوراق الامتحان تماماً كما وردت، أي أنها تحفظ وتهضم وتردد ثم تدون دون أن يحس القارئ بما اعتورها من خطأ. ومن أطرف الأمثلة التي يمكن أن تذكر هنا، أنني في إحدى السنوات لاحظت في أجوبة طلبة السنة الرابعة من قسم اللغة العربية (لا قسم الجغرافيا) إصراراً على أن دانتي صاحب الكوميديا الإلهية كان يكره المرأة مثل توفيق الحكيم، ووردت في الأوراق تنويعات وتفصيلات لهذه الكراهية التي لم أسمع بها من قبل... ولما تكررت هذه التهمة في الأوراق رجعت إلى الأملية فإذا بها تقول إن دانتي كان يتمتع بإحساس خلقي قوي جداً ولذلك عمل على محاربة الرذائل النفسية كالحسد والجشع والخسة والمراءاة والكذب الخ...

وقد تبين لي - ويا للهول - أن كلمة (المراءاة) طبعت خطأ وأصبحت (المرأة) وأن القراء النابهين لم يستطيعوا أن يميزوا الخطأ حتى في مثل هذا السياق النصي الصريح. أما السياق الفكري للموضوع فكان أشد وضوحاً... إذ كان كلام الطالب حول (الكوميديا الإلهية) يبدأ بالإشارة إلى التقديس الذي نالته بياتريس، محبوبة دانتي، من خلال الكوميديا وينتقل إلى تأكيد مكانتها

الرفيعة في جنان الخلد إلى جانب القديسين. ولم يخطر ببال الكثيرين من القراء أن يتساءلوا كيف يجتمع كره المرأة مع تمجيدها في قصيدة صوفية مخصصة للتأمل والسمو.

لو كانت هناك عيون تقرأ وتميز لما صبر الناس على هذه الأخطاء المطبعية التي أصبحت جزءاً عضوياً من كتاباتنا المطبوعة والتي أصبح غيابها، لا حضورها، يلفت النظر. ومن الخطأ أن ينظر إلى هذه الظاهرة من وجهها التكنيكي فقط. إن الخطأ المطبعي أصبح يساهم إلى جانب أنواع الخطأ الأخرى، في تخريب عمليتي الإيصال والحوار بين الكتاب والقراء كما أصبح عاملاً مشجعاً على الاتجاه السائد في حياتنا الفكرية والسياسية نحو إهمال قيمة كبرى من قيم الحضارة المعاصرة، وهي الدقة، وإبقائنا أسرى للغموض والإبهام والتحوير.

وإن العيون العازلة - بموقفها السلبي من المادة المقروءة - تتحمل مسؤولية كبرى في هذا المجال.

(٦)

حين بدأت مسلسل (آذان ناقلة وعيون عازلة) لم تكن في ذهني صورة وافية لمدى تغلغل هذه الظاهرة في حياتنا اليومية على الرغم من شعوري الدائم بوجودها وبخطورتها. والآن بعد أن احتلت هذه الظاهرة ساحة انتباهي الواعي أصبحت شواهدها تطارد وعيي في كل مستوى من حركتي اليومية، أصبح كل شيء يذكرني بالآذان الناقلة التي توصل كل ما تسمعه إلى التلافيف المختصة في الدماغ مباشرة دون تصفية أو تمحيص، وبالعيون العازلة التي لم تتعود القراءة أصلاً، وحتى إن قرأت فإنها مثل السلك العازل لا تسري فيها شحنة الكهرباء ولا توصل إلا القليل إلى المركز المختص في الدماغ. والأمثلة التي ذكرت في المسلسلين الماضيين ليست أعجب الأمثلة ولا أغربها، ولكنها تتصل بقطاعين من الناس يفترض أنهم يجب أن يكونوا أكثر من غيرهم

اعتماداً على المادة المقروءة. أما قطاع المسؤولين فيكفي منه ما ذكر سابقاً، ومن يدري لعل الرياح تجري فجأة بغير ما اعتادت عليه وتصبح العيون ناقلة ولو إلى حين وتغدو العاقبة بالتالي غير محمودة ولا سعيدة، وإذاً فلتكن وقفة أطول عند القطاع الثاني، قطاع المثقفين والجامعيين. هؤلاء الذين يجب أن يكونوا عيوناً تقرأ وأسلاكاً توصل وتلافيف تحلل وتمحص... ماذا نجد عند هؤلاء؟ التيار السماعي هو الأصل. إنهم دائماً يسمعون أنه حدث كذا وصار كيت وقليلاً ما يقرؤون كذا وكيت. إن المسألة تحتاج إلى مسح إحصائي بالطبع ولكن أية نزهة في أروقة كليات الجامعة مثلاً أو في غرف الأساتذة أو حتى في صفوف العلم تقود المرء إلى الاقتناع بأن الآذان هي التي تعمل وتنقل وأن العيون القارئة ليست على ما يرام.

مثلاً، اجتماع مهم حول موضوع كالتفرغ الجامعي، توزع مادته مسبقاً على المشاركين في الاجتماع ليقرأوا هذه المادة ويضعوا تعليقاتهم عليها. ما الذي يحدث؟ يتكرم بعض المشاركين وهم قلة على الأغلب فيحضرون معهم الوثائق التي وزعت أصلاً أما الآخرون فيطالبون بوثائق جديدة دون أي شعور بالإثم. وإذا تغاضينا عن بعض الاستثناءات النبيلة فإن الجميع تقريباً يطالبون بالاستماع إلى ملخص لما تحويه هذه الوثائق ويتناقشون بعد ذلك على أساس هذا الملخص، ويقدمون آراءهم ومقترحاتهم في أمور شديدة الأهمية من خلال لحظة السماع العابرة. وليس الأمر مقتصراً على الجامعة أو المثقفين إذ أن معظم الاجتماعات التي تعقد لتقرير المصير في مختلف مستويات الحياة لا تشذ عن التيار السماعي، ولعل هذا - من بين أسباب أخرى تمت إليه بصلة - هو السبب في كثرة ما تتعرض له قراراتنا وأنظمتنا وأوامرنا ونواهينا من تعديل أو نقض أو إبطال. ولقد أصبحنا نسمع قراراً ما فلا نتعجل بالحكم عليه مخافة أن تلحق به التعديلات قبل أن نفرغ من فهم ما يترتب على النص الأصلي. ولاشك أن القارئ يتذكر بهذه المناسبة المرسوم ١٦٧ وتعديلاته طيبة الذكر، على الرغم من أن مجال الكلام منصرف إلى غير موضوع المراسيم والقوانين.

(٧)

ولنبق في المجال الجامعي...

حدث في بعض الفترات أن قرارات مجلس إحدى الجامعات في القطر كانت تلغى أو تعدل قبل أن تصل نصوص القرارات إلى الجهات التنفيذية في الكليات، ويمكن أن يتصور الإنسان أي خلل يحدث من جراء الاستعدادات التي تتخذها الجهات التنفيذية لتطبيق قرار ما في حين يكون القرار في الجهة المركزية قد أصابه التعديل أو النقض أو التأجيل... ومن أجل علاج هذه الظاهرة اقترح مرة أحد القائمين على أمور الجامعة ألا يعرض لإعادة البحث أي قرار لم تمض على اتخاذه مدة ستة أشهر وأقر الاقتراح، ولم يكن هناك مجال فيما بعد، وجرياً على القاعدة، للعدول عنه نظرياً، وأظن أنه جرى الاكتفاء بالعدول عنه عملياً...

وإن المرء يتحاشى ذكر المسميات بأسمائها ويفضل التلميح على التصريح، لأن المقصود هنا ليس مؤسسة بعينها ولا شخصاً بعينه وإنما الظاهرة العامة - آذان ناقلة وعيون عازلة -، التي تعتبر عمليات التعديل السريع للقرارات جانباً من أبرز جوانبها ولكن ما أكثر هذه الجوانب وما أشد خطرها على المستويين العام والخاص.

إن الكلمة المقروءة تكاد تفقد وظيفتها الحيوية لأنها لا تقرأ، وإذا قرئت لا يعتد بها إلا القليلون، ومعظم الناس لا يميلون إلى الربط بين الكلمة وبين الفكر الذي تدل عليه والموقف الذي تكشف عنه. ويحدث كثيراً أن تنطلق أحكام عامة، مدحية، أو ذمية أو تصنيفية بشأن أشخاص يعملون في صناعة الكلمة وتسري هذه الأحكام سريان النار في الهشيم دون أن تصحبها نظرة في الكتب التي يؤلفها هؤلاء أو الأمالي التي يدرسونها أو المقالات التي يدبجونها.

كأنما المادة المقروءة شيء والحياة شيء آخر.

وإن أخشى ما يخشاه المرء أن يكون هذا الوهم متجذراً في حياتنا أكثر مما نتصوره للوهلة الأولى.

(٨)

في المسلسل السابق دار الحديث حول جوانب من ظاهرة (التيار السماعي) لدى الشرائح العليا التعليمية والإدارية من المؤسسة الجامعية. وكان المرء يود لو استوفى جوانب أخرى من الظاهرة لولا أن بعض مظاهر (الشماتة) بدأت تصدر عن ذلك النفر القليل جداً من الطلبة الجامعيين الذين يخطر لهم أن يوسعوا دائرة قراءاتهم لتتجاوز الكتب والأمالي الجامعية المقررة للامتحان. وخوفاً من أن ينتشر ما أكتبه انتشاراً سماعياً - وهناك ما يدل على وجود هذه القابلية - ويصبح من خلال الآذان الناقلة كرة ثلج متزايدة الحجم، وينقل لإخواني وأبناء طبقتي الأكاديمية بشكل يخالف ما قصد به وما وضع له، قلت في نفسي لأعرج على إخواني الطلبة قليلاً، فربما يكونون أرحب صدراً. وهم على أي حال تعودوا طول الاحتمال.

* * *

لوحة الإعلانات في الجامعة لا تعني عند الطلبة أي شيء، إنها مجرد إثارة بصرية في طريق التأكد السمعي. يقرأ الطالب إعلاناً حول موعد الامتحان فيسارع إلى مكتب العميد أو الوكيل أو رئيس القسم ليسأل بدهشة:

- صحيح أن موعد الامتحان هو يوم كذا بتاريخ كذا...

وتوضع على لوحة الإعلان أسماء المنقولين من جامعة بيروت العربية إلى جامعة دمشق، وإزاء كل اسم الصف الذي نقل إليه المقررات التي طولب بها.

وفجأة يكتظ باب رئيس القسم بجمهرة من الطلبة، وكل واحد منهم يسأل السؤال نفسه:

- إلى أي سنة نقلت وما هي المقررات المطلوبة مني؟

ويوضع على مكان بارز من باب العميد أو الوكيل أو رئيس القسم إعلان يفيد أن أوقات المراجعة للطلاب هي كذا ولغير الطلاب هي كذا..

وفي كل دقيقة يدق طالب الباب ويقول: ممكن أن أسأل سؤالاً.

وتقول: ألم تقرأ الإعلان على الباب..

ويقول: إنما هو سؤال صغير..

وتجيبه، وتجيب الذي يليه، والذي يلي الذي يليه، ويظل الإعلان مصلوباً على الخشب.

* * *

في الفحص توزع أوراق الأسئلة على الطلبة. قاعات عديدة وطلبة كثيرون، ما شاء الله. يدخل أستاذ المقرر فتشرئب الأعناق وترتفع الأصابع. يكون السؤال:

- تحدث عن نشأة المأساة اليونانية وبيّن تطورها الفني. وتحدث عن واحد فقط من ممثليها.

ويسأل الطالب الأول:

- يعني نتحدث عن المأساة اليونانية.

ويسأل الثاني:

- هل نتحدث عن تطورها الفني، وكم سطراً تريد؟

ويسأل الثالث:

- هل ينبغي أن أتحدث عن اسخيلوس أم عن سوفوكليس أم عن يوربيدس؟

ويسأل الرابع:

- ما المقصود بهذا السؤال يرجى شرحه؟

ويقول الأستاذ:

منذ سنوات احتفل في الولايات المتحدة بطباعة النسخة المليون من مؤلفات جبران خليل جبران، وهو كاتب معروف جيداً في البلاد العربية، وما نظن أن مجموع من مؤلفاته بالعربية يتجاوز عشرة آلاف نسخة أو عشرين ألفاً في أحسن تقدير.

إن أرقام نسخ شكسبير في البلدان المتقدمة مذهلة حقاً وهي تبلغ الملايين وكذلك شأن دوستويفسكي وتولستوي وتشارلز ديكنز.

ولقد ماتت منذ زمن (مارغريب ميتشل) مؤلفة رواية «ذهب مع الريح» ومازال ورثتها ينعمون بالريع الذي تدره عليهم إعادة طباعة روايتها سنة بعد سنة.

وهذا الموضوع متشعب جداً ونؤثر أن نمسه مساً جانبياً لأن فيه جوانب عديدة، فلننتقل إذن من هذا الجانب الكمي إلى الجانب الكيفي.

إن القراءة في المجتمعات المتقدمة هي فن استيعاب سريع وفن تمييز دقيق. إن عيون الناس في تلك المجتمعات ناقلة، ربما على حساب آذانهم.

وهي تنقل بسرعة لأنها معتادة على ممارسة القراءة، وتستوعب لأنها توصل، ويصحبها عادة تمييز شديد. ومن هنا كان كل ما ينشر في البلدان المتقدمة يقرأ بسرعة ويستوعب بسرعة ويخضع أيضاً للتمييز والتمحيص.

وبالطبع هناك فروق بين مجتمع وآخر، وبين مادة مقروءة وأخرى. ولكن من خلال ملاحظة شخصية يستطيع الإنسان أن يدعي أن المادة المقروءة الرديئة التي تنشر مثلاً في المجتمعات الغربية إنما تجد الإقبال لدى الزوار والقراء الأجانب والجاليات الغريبة.

وهناك ما يسمى عادات القراءة السليمة. وهي تعلم في المدرسة منذ الصغر، وإذا فات المرء ذلك فإن هناك مدارس للكبار تعلم الإنسان اقتصاد الوقت في القراءة وتدربه على الاستيعاب والتمييز.

وأذكر أنه بعد وصولي إلى كامبردج بفترة وجيزة أتيحت لي الفرصة لقراءة رواية (يوليسيز) لـــ جيمس جويس مع زميله في الجامعة، وكنا نقرأ في كتاب واحد وكانت تفرغ من قراءة الصفحة وأنا مازلت في منتصفها، وقد صبرت بعض الشيء، ولكنها في النهاية اقترحت علي الانتساب إلى مدرسة تعلم القراءة الصحيحة.

وبالمقابل، الناس في المجتمعات المتقدمة يستخدمون آذانهم استخداماً معتدلاً جداً إلا في حالات الاستماع للموسيقى. بل قل أنهم يوفرون آذانهم من أجل زيادة طاقة الاستمتاع بالموسيقى. وهم لا يسألونك في الشوارع عن وزارة الداخلية ولا عن المسرح القومي ولا عن عيادة الطبيب فلان. إنهم يحملون الخريطة ويقرأون ويتابعون ويميزون.

(١٠)

وكنت وعدت قبل قليل بتلمس أسباب الظاهرة، ولكنني إذ أتهيأ للموضوع أجد أن الكلام على الأسباب ربما امتد ليمس جميع جوانب التخلف الثقافي والاجتماعي والإداري بوجه خاص، ولذلك سأقتصر على اللمح وأترك التفصيل لمناسبة أخرى.

وبالطبع نظام التعليم يأتي في رأس قائمة الأسباب. ولقد تعبنا لكثرة ما تحدثنا عن عقم الطرق التربوية عندنا وسلبيتها. ولكن حين يكتشف المرء أن نظام التعليم لا يكاد يخلق حتى الحد الأدنى من عادة القراءة وما ينبغي أن يرافقها من استيعاب وتمييز، يكتشف أيضاً مدى بعدنا الحقيقي عن روح العصر الحديث.

وكذلك يتحمل النظام السياسي - الإداري جانباً من المسؤولية في هذا المجال. فالسياسة العربية المبنية على الارتجال لا تعلم الناس احترام الكلمة المقروءة. وكذلك الأنظمة الإدارية التي لا تتقيد بقواعد ولا تلتزم بما تقوله للناس. وتبدل قراراتها وقواعدها في كل طرفة عين.

وكذلك يتحمل نظام الطباعة عندنا جانباً من المسؤولية، فالإخراج الرديء وغزارة الأغلاط المطبعية عاملان مثبطان جداً، وتأثيرهما السلبي أضخم مما يخطر للمرء عند الوهلة الأولى.

وهناك أسباب تاريخية أهمها قرب العهد بانتشار الأمية وشيوعها. وكذلك تعود الناس من خلال مقاومة الاستعمار والاستبداد الاعتماد على الهمس وتجنب الوثائق المكتوبة.

وهناك أسباب أخرى أعمق من هذه الأسباب. ولكن ذلك كله لا يعفينا من ضرورة مواجهة ظاهرة (التيار السماعي) واعتبار الانتقال منه إلى (التيار الكتابي) شرطاً لازبا للانتماء إلى العصر.

كانون الثاني ١٩٧٨

* * *

التخلف والإصرار على التخلف

إزاء أي عوج في التفكير أو السلوك أو النظام العام يواجهك الناس عادة بالعبارة التالية:

- نحن متخلفون..

ودائماً مع هزة من الكتفين أو زمة للشفتين أو ابتسامة ملتوية أو تحريك رأس. كأنما هذه الكلمة تحل المشكلات جميعها، ونفسر أسرار الكون العويصة، وتفتح باب الكهف المليء بالعجائب بدلاً من عبارة «افتح يا سمسم».

والأنكى من ذلك أن الجاني والمجني عليه في أية واقعة أو حادثة أو مجادلة كلهم يرددون هذه الكلمة مرتاحين إلى أنهم (وجدوها) أو وصلوا (رأس الرجاء الصالح). والأنكى من ذلك أن جمهرة الناس ترددها كما ترددها ألسنة المسؤولين. وكم من مسؤولين سمعناهم يرددونها مع زفرة مفادها أن لا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك بدلاً من إجراء تحقيق لمعرفة سبب العوج، أو معالجة وضع بانت المسؤولية فيه، أو مؤاخذة مرؤوس على انحراف واضح جر إليه أو انجرف إليه.

قديماً كانت كلمات مثل: معليش، وماشي الحال، ومشيها، وخطية، ولا تعصدها.. هي مفاتيح التعامل..

هذه الكلمات كانت ترمز إلى موقف واضح من الأمور يتمثل في قول الشاعر الذي كان كثير من أساتذتنا يصرون على أنه إكسير السعادة والهناء وراحة البال:

دع المقادير تجري في أعنتهـا ولا تبيـتن إلا خـالي البـالي

وكم مرة فرض علينا أن نكتب هذا البيت على سبيل التمرن على الخط حتى تمتلئ به صفحات دفاترنا لأنه من الحكم المعلقات التي كان أساتذتنا - أو بعضهم على الأصح - يعلقونها في صدورهم.

أما الآن فعلاً كيف يفسر المقصود بهذه الكلمة التي اكتسبت سيرورة أشعار جرير وسحر تعويذات الوثنيين.

إن التخلف الذي نعرفه حالة اقتصادية اجتماعية فكرية اكتشفته بلدان العالم الثالث - آسية وأفريقية وأمريكا اللاتينية - على أثر جلاء القوى الاستعمارية عن أراضيها وبنتيجة المقارنة مع البلدان المتقدمة. ومن الحق أن هناك ظروفاً تاريخية واجتماعية وسياسية تضافرت لتخلق حالة التخلف هذه. ولكن ما هو أحق من ذلك أن السلطة الاستعمارية، استمرأت حالة التخلف هذه وهشت لها وبشت ووضعت الترتيبات على أساس عدم إزعاج التخلف والمتخلفين، بل سهلت الظروف التي تجعلهم يسنيمون أكثر فأكثر إلى التخلف، واعتبرت هذا الموقف نبلاً أوربياً متحضراً قائماً على احترام العادات.

ولكن المستعمرين ذهبوا أخيراً، وصحيح أنهم خرجوا من الباب ليدخلوا من الشباك، وصحيح أن ما خلفوه لنا من تخلف هو إرث كبير وعميق ومتمكن وضارب الجذور. ولكن يبقى صحيحاً أكثر أن التخلف - حالة - نسبية ومحكومة بعوامل تغير كثيرة ومتفاوتة بين بلد وآخر، وليس من المستحيل التغلب عليها أو على الأقل زحزحتها وتقليص مقوماتها والانتقال منها إلى حالة أفضل.

أما اعتبارها - قدراً - و - مصيراً - و - كتبة - فهو مخالف لطبيعة الأشياء.

وأما اتخاذها تفسيراً وحيد الجانب لكل ظواهر العوج والخطأ فهو حمق يدين عقول أصحابه بالدرجة الأولى.

وأما الاعتقاد بعدم إمكان تجاوز هذه الحالة فهو العجز بذاته.

وليس لمثل هذه المواقف من تفسير سوى أن التخلف المضروب علينا بحكم الظروف أصبح إرادة ذاتية تتمثل في - الإصرار على التخلف - وههنا الطامة الكبرى التي يجب أن نتصدى لها بكل ما أوتينا من قوة.

نيسان ١٩٧٨

التخلف= فقدان المعايير

قد يكون التخلف عند الاقتصاديين هو العجز عن استثمار الموارد وعن بلوغ مستوى معين من الإنتاج.

وقد يكون التخلف عند التربويين هو ارتفاع نسبة الأمية وانخفاض مستوى المتخرجين وعجزهم عن التلاؤم مع الواقع.

وقد يكون التخلف عند السياسيين هو عجز الدولة عن انتهاج سياسة ثابتة خاصة بها واضطرارها تبعاً لذلك أن تدور في محور التبعية.

وقد يكون التخلف عند علماء الاجتماع هو اضطراب العلاقات الاجتماعية وانتشار المرض والفوضى والجريمة والكراهية واللاتعاون والنميمة والتهديم (مما نعرفه جيداً ولا ننكره).

ولكن عندنا نحن الذين ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء يمكن أن يلخص التخلف بكلمة واحدة هي: «فقدان المعايير».

وقد تكون هذه (الفضيلة) هي العلامة المميزة للمجتمع المتخلف التي لا تتداخل مع علامات المجتمعات الأخرى وسماتها. إذ أنه مع وجود هذه العلامة المميزة لا تبقى للمجتمع مقدرة على فعل أي شيء ابتداء من الحفاظ على النفس والأرض والكيان وانتهاء باحتلال المكان المشتهى تحت الشمس.

إن المجتمع الرأسمالي، بصرف النظر عن موقفنا منه، يستند إلى خلفية متينة من الأنظمة والقوانين والقيم وآداب السلوك والتصرف، وله معاييره الواضحة الملموسة.

وكذلك استطاع المجتمع الاشتراكي أن يطور لنفسه أنظمة وقوانين وأخلاقاً وآداباً ومعايير لتعامل الناس فيما بينهم وتعاملهم مع السلطة وتعاملهم مع الآخرين.

والمجتمع الزراعي القديم ذو البنى التقليدية كانت له معاييره وأعرافه وطرائق تعامله.

وقد يختلف الناس حول تقييم هذه المجتمعات وتقدير معاييرها، وقد يقبلونها أو ينكرونها، وقد يدعون إليها أو يحاربونها، ولكن مع ذلك هناك شيء ما يقبله المرء أو ينكره أو ينتقده.

والمشكلة في المجتمعات المتخلفة في هذه الحقبة من الزمن أنها مجتمعات بلا معايير لا يعرف فيها المرء كيف يكره وكيف يحب، وماذا يقبل وماذا يرفض، وفي أحيان كثيرة لماذا يفعل كذا ولا يفعل ذاك.

هذا على مستوى الفرد، أما على مستوى الجماعة فالمسألة أدهى وأمر. إن مثل هذه المجتمعات –مهما اختلفت الأسماء والصفات التي تختارها لنفسها - لا تعرف هل هي مع التقدم أم مع المحافظة؟ هل هي مع الحرية أم مع الأسر؟ هل هي مع الانطواء القومي أم مع الانفتاح الإنساني؟ هل هي مع الشرق أم مع الغرب؟ هل هي منتصرة أم مهزومة؟ ومن هم أصدقاؤها ومن هم أعداؤها؟ وما هو مآلها ومستقبلها؟

في مثل هذه المجتمعات لا توجد معايير للتعامل الخارجي لا على المستوى المادي ولا على المستوى المعنوي.

الكلمات التي تحرك الحياة في مثل هذه المجتمعات هي عادة: تغير، اختلف، تأجل، تعطل، بطل، ألغي.. وهناك دائماً:

الأنظمة تغيرت، وفلان اختلف مع فلان بعد أن كانا فرسي رهان، والمؤتمر تأجل دون إبداء الأسباب وكان أبسط شيء في العالم هو معطل، وللدوحة معطل ولبيروت معطل وللزبداني معطل، والتعليمات بطلت، والمسابقة ألغيت..

في مثل هذا المجتمع لا تعرف من صديقك ومن عدوك؟ لا تعرف متى تنتقد ومتى ينتقدونك؟ لا تعرف من الذي سيغضبه كلامك ومن الذي سيرضيه إلى حين. وإذا أخطأت لا تضمن أن تقع في خطيئة أكبر حين تحاول تصحيح الخطأ.

مجتمع كهذا بلا معايير لا يمكن أن يقدم إنتاجاً، ولا أن يوفر سعادة، ولا أن يدرأ خطراً، ولا أن يقيم ثقافة، ولا أن يصنع مجداً.

كل ذلك لأن المعايير غير موجودة.

وبما أن التفاؤل أفضل من التشاؤم فلنقل:

إن المعايير غير موجودة لأن مجتمعنا في حالة بحث جادة عن معاييره الخاصة.

حزيران ١٩٧٨

*   *   *

التخلف ومشكلة القراءة

كلما ناقشني صديق فيما أكتبه يخطر لي السؤال التالي:

هل هناك قراء للمرء من غير أصدقائه؟ أحياناً يخيل إلي أن عملية الكتابة والقراءة عندنا هي أشبه بعملية مجاملات اجتماعية منها بعملية حوار فكري واسع النطاق وحي ومتجدد كما ينبغي أن تكون في الأصل.

وهناك سببان يدفعان المرء إلى مثل هذا الاعتقاد:

الأول: أن كل ما يدور في عالم الكتابة والقراءة محصور بين نخبة ضيقة من هواة الكتابة ومحترفيها. ويكاد المرء يجازف بالقول إن طبقة القراء لا وجود لها أو على الأقل هي غير معنية بإثبات وجودها. وهكذا تنحصر دائرة المهتمين بالقراءة الذاتية - أي بما هو غير مقرر لضرورات العمل أو الامتحانات - في أولئك الذين يمارسون الكتابة وربما من أجل أن يعرفوا ماذا يكتب زملاؤهم وكيف ولأي غرض، تماماً كما يراقب السائق مسيرة السيارات من حوله ليعرف كيف يتحرك في شارع مزدحم.

الثاني: إن أصدقاء المرء يتعطفون عليه بين حين وآخر ويتكرمون بقراءة عنوان مقالة له أو فقرة من مقالة أو مقدمتها أو خاتمتها. ويشيرون إلى ذلك عند اللقاء بأدب اجتماعي جم، كما يشيرون مثلاً من باب المجاملة إلى زرقة عيني مولود جديد أو مشروع ابتسامة على شفتيه.

ولكن - كما هو الشأن في كل ظاهرة - لا يعدم المرء استثناءات خيرة. وهناك دائماً أناس يقدمون للمرء بين حين وآخر ملاحظة نافذة أو ناقدة، أو فكرة مضيئة، أو يربطون بين مقال ومقال، أو يقترحون على المرء كتاباً يعالج الفكرة المطروحة معالجة وافية أو جديدة أو مغايرة. وهؤلاء - مع

الأسف - قلة قليلة، ومع ذلك نراهم يفضلون الصمت أحياناً لئلا يتهموا بالتصنع أو التفاصح أو التعالم أو - المنفخة - الفكرية.

ويقول بعض الأصدقاء أن هناك طبقة قراء واعية ومتابعة في قرى الريف الكبيرة وفي المدن الصغيرة.. وتقول التجربة أن هذه الفئة أيضاً محدودة العدد جداً. وأنها مجرد قشرة ثقافية على سطح المجتمع وأن ما يدور بينها يظل في نطاقها كفئة مختصة بنشاط نوعي معين يفتقر إلى الصدى الاجتماعي الواسع.

وبالطبع هذه الملاحظات العابرة يصعب أن تعبر عن الحقيقة بدقة. ويجب أن يجري تناول مسائل القراءة عن طريق المسح والاستقصاء. وربما كان من الأفضل أن يبدأ الأمر بحملة سبر صحيفية تحاول سبر عدد القراء الذين يتابعون الصحف، وكذلك أفضليات القراء بالنسبة لكل مادة تنشر في الصحف. وأن المرء ليتمنى بوجه خاص أن يعرف رأي القراء في الصفحات الثقافية اليومية التي تنشرها جرائدنا، والتي أصبح ملء أعمدتها الفارغة يشكل هماً يومياً للمحررين.

وهناك طرق علمية للمسح والاستقصاء يمكن أن يكلف بها فريق من الباحثين أو الصحفيين من خلال خطة واضحة المقاصد، وعلى أساس نتائج المسح يمكن أن تتم التعليقات والتحليلات، وبعد ذلك توضع وصفات المعالجة.

إن مسألة القراءة يجب أن تثار باستمرار، وهي شديدة الصلة بمشكلة التخلف. وقد دعتني لإثارتها في الأصل ملاحظات الأصدقاء حول ما أكتبه أحياناً.

وفي هذه الملاحظات ما هو قيم وجدير بالاعتبار. وفي بعضها ما يخيف فعلاً. قال لي أحدهم في مجمع من الناس، وهو ليس غير ذي أهمية:

- ما هذا النشاط.. كل يوم تطلع علينا بمقالة...

وعرفت أن الصديق الكريم يطل على الجرائد مرة في كل أسبوع على أفضل تقدير.. ربما من أجل تفقد العناوين.

وما أكثرهم.

نيسان ١٩٧٨

* * *

التخلف من الداخل

لو سأل سائل: ما هو الشيء الذي نحتاجه أكثر من غيره؟ ما هو أبلغ نقص في حياتنا المعاصرة؟ لكان الجواب دون تردد، إنه المحاكمة الداخلية. والمحاكمة الداخلية تعني قدرة المرء على أن يمحص ما يسمعه ويستخلص من مختلف الأخبار والروايات والمواقف ما هو أقرب إلى الحقيقة أو على الأصح ما هو أقرب إلى المعقول.

ولو سأل سائل: ما هو أكثر شيء أخفقت التربية العربية في بنائه داخل نفوس الشاب والمواطن لكان الجواب أيضاً المحاكمة الداخلية، أي تكوين معيار داخلي لقياس الأمور ووزنها واتخاذ المواقف بشأنها.

ولو سأل سائل: ما هو الشيء الذي استطاعت الدعاوات المضادة والمؤامرات الفكرية والحرب النفسية المعادية أن تحققه في داخل ذواتنا لكان الجواب: خنق المحاكمة الداخلية، خنق ذلك الصوت الصامت في ذات الإنسان الذي يشكل مصفاة تنقي ما يصب في داخله من مادة إخبارية أو فكرية وتستبعد ما بدا لها فجاً أو مضخماً أو مختلفاً وتقبل ما حمل معه شاهد صدقه أو معقوليته أو احتمالية صحته.

في حياتنا اليومية نعرف أناساً يقال لهم في الصباح: بعد دقائق سيحدث كسوف للشمس. ويصدقون وينتظرون فلا يحدث الكسوف ويقال لهم بعد ساعة: ليس هذا أوان الكسوف ولا الخسوف، ولا يعقل أن يحدث كسوف في هذا اليوم. فيصدقون ولا ينتظرون. ثم يقال لهم: قد يحدث الكسوف وقد لا يحدث، فيصدقون وينتظرون ولا ينتظرون في آن واحد.

في حياتنا اليومية نعرف كتلاً من الناس يقال لها: ها الخطر آت من الشرق. ها هي جيوش التتار تزحف. ها هي طلائع هولاكو وجنكيز خان تلوح في الأفق. فيصدقون. ويبنون الأسوار، ويشقون الخنادق ويقيمون المتاريس، ويتربصون. وتمضي أيام وليال وهم في يقظة وحذر وتوجس... وفجأة يقول لهم قائل دون مقدمات ولا اعتذار ولا تصحيح ولا تظاهر بالأسف: لن يأتي الغازي من الشرق بل سيأتي صحب لنا أحبة، طالما أبعدهم عنا العواذل، ومعهم جرار الماء وبشائر الخصب وبيارق الحضارة... وتصدق الكتل وتقبل وكأن ذلك أبسط شيء في الوجود؟!

من الذي محا من هؤلاء الناس محاكمتهم الداخلية؟ وأفقدهم بصيرتهم ووضعهم في دوامة لا يعرفون أين هم منها وأين هي منهم؟

من الذي عطل عقول الناس الداخلية وسلط عليها فنون التشويش الطفيلي وأربكها؟

من الذي أهلك الناس وجوعهم وقتلهم عطشاً وزادهم خوفاً على خوف حتى أصبحوا يقبلون كل جديد، كل نأمة أو حركة أو خطوة، لعلها تخرجهم من انتظار (غودو).

لم يكن كل ما يحدث مصادفة أو مجرد (تخلف) كما يجيب المتفقهون كلما عرض عارض من عوج أو قصور، لم يكن كل ما حدث ابن لحظة أو ساعة أو أسبوع أو شهر.

كان كل شيء يعد بأناة وإحكام حتى تأتي لحظة يستطيع فيها شخص وحده، شخص بمفرده، في وضح النهار، وبأعلى نبرة ممكنة، وبهامة مرفوعة، وبنظرة متحدية، وبقدم مطمئنة، وبتصميم عنيد، أن يشق البحر إلى الشاطئ المسموم، وأن يفعل فعلته، وأن يسلم ما تبقى من حياء القوم وحياتهم ومستقبلهم وخيلهم ورجلهم، وأن يعود من «الزيارة» وكأنه أتى برأس كليب، وأن تقام الزينات والأفراح وأن يطبل المطبلون ويزمر المزمرون. وإن يكن في كثير من هذه المظاهر زيف واصطناع.

لا يمكن أن يكون كل الذي يحدث وليد مصادفة.

لا يمكن أن يكون من تأثير وحي هابط لساعته، أو ومضة من فكرة شرود... منذ زمن بدأ التحضير للخطة الكارثة. إنه زمن سياسي ما في ذلك شك. ولكن من ورائه الزمن الإعلامي ثم الزمن التربوي ثم الزمن الفكري. بدأ الزمن الإعلامي حين أصبحت الصحافة والإذاعة والتلفزيون والجرائد والمجلات كالبالونات المنفوخة الملونة شكلاً ووظيفة ومضموناً.

وبدأ الزمن التربوي حين أصبحت المدارس مداجن لتفريخ بيض الشهادات الموحد الخالي من النكهة ومن المادة الغذائية.

وبدأ الزمن الفكري حين عطلت العقول ومنعت المحاكمة الداخلية ووضعت مقاييس على الأدمغة لضبط عملها ضمن الحد الأدنى.

إن تعطيل المحاكمة الداخلية هو الأصل وإعادة تشغيلها تقتضي إعادة نظر في كل شيء وفي كل مستوى من الحياة، وويل لنا إن لم نفعل ذلك على الفور.

تشرين الثاني ١٩٧٧

* * *

الإدارة والتخلف

تعتبر الإدارة أحد المعايير الأساسية للتمييز بين التقدم والتخلف. وأن سوء الإدارة ولا فعّاليتها متلازمان تلازماً شديداً مع التخلف الاجتماعي والاقتصادي. وتشكو معظم بلدان العالم الثالث أمرَّ الشكوى من إخفاق الإدارة في التعامل مع مهمات البناء الاقتصادي والاجتماعي، وتطوير سائر مرافق الحياة باتجاه الفعالية المعاصرة، وتضع مختلف هذه البلدان مشروعات أعمار جديدة من الناحية النظرية، ولكنها دائماً تواجه الإخفاق الكامل أو النسبي لدى التطبيق بسبب عامل رئيسي هو لا فعالية الإدارة... وهناك حكومات في آسية وإفريقية وأميركا الجنوبية تبدو عاجزة عن تطبيق الحد الأدنى من الخطط والمشروعات بل من برنامج العمل الرسمي اليومي. وهكذا يصدر الأمر في هذه البلدان من قمة الهرم الإداري ويتدحرج بين صعود وهبوط فيفقد قدرته على الدفع وما أن يبلغ القاعدة حتى تكون قوة دفعه صفراً أو ما يقارب الصفر.

وهكذا تضيع المعاملات وتتأخر القرارات وتضطرب الأوامر وتكثر الإلغاءات والتعديلات وتنتفي المعالجات النوعية الخاصة لصالح المعالجات التعميمية الضخمة... وبالتالي يصبح وصول المواطن إلى هدفه الإداري منوطاً بوسائل أخرى غير الطريق الرسمي المستقيم، من مثل الوساطة والرشوة والضغط وغيرها مما يعرفه معقبو المعاملات أفضل معرفة.

ويميل معظم الناس إلى التقليل من شأن هذه الظاهرة الخطيرة. ويتخذها - حتى الذين يعانون منها - وسيلة إلى التندر والسخرية. وكم من نكات تروى، وكم من تمثيليات هزلية تعرض على المسارح العامة وعلى الشاشة الصغيرة، وكم من قصص تروى حتى في أعلى مستويات الحكم حول هذه الظاهرة. وتمس هذه النكات عادة صلب المشكلة وهو اتجاه الفساد الإداري

إلى مزيد من التدهور على شكل سلسلة هندسية، فما كان من المؤسسات سليماً اليوم لابد من أن يتعرض في الغد إلى موجة الفساد وهكذا دواليك.

وعلى المستوى الاختصاصي كذلك تشغل هذه الظاهرة كثيراً من المسؤولين، وتوضع غالباً دراسات ومقترحات ومعالجات صحيحة من الناحية النظرية، ولكنها تتبدد كسفاً حين توضع موضع التطبيق.

إن مشكلة الإدارة معقدة جداً لأنها مقياس (بارومتر) التخلف وأداة القضاء عليه في وقت واحد، فهي تعكس ما في المجتمع من علاقات تقليدية وتقصير عن التجاوب مع متطلبات الحياة المعاصرة وفي الوقت نفسه يفترض فيها أن تكون أداة لتجاوز هذه العلاقات والأخذ بيد المجتمع باتجاه التطور والفعالية والمعاصرة.

ومن هنا كان حل مشكلة الإدارة مرتبطاً أشد الارتباط بالعقلية السياسية التي تدير بلدان العالم الثالث. فحيثما كانت هذه العقلية قادرة على تجاوز العلاقات التقليدية من قبلية وإقليمية وغيرها كانت أقدر على مساعدة الجهاز الإداري في ترسيخ التعامل على أساس (علاقة العمل) القائمة على الموضوعية ووضوح المعيار. وعلى عكس ذلك إذا لم تستطع العقلية السياسية انتزاع نفسها من العلاقات التقليدية فإن الولاءات الإدارية تغدو مضطربة بغير ناظم ينتظمها، وتصبح حظوظ الإدارة في النجاح تابعة لمقدرة فرد أو مجموعة من الأفراد على عزل المؤسسات التي يتولون إدارتها عن المؤثرات التقليدية الطاغية وربما إلى حين فقط.

ومن هنا كان تأثير الأشخاص (المديرين ورؤساء المؤسسات) كبيراً جداً في بلدان العالم الثالث، ومن هنا كانت بداءة الإصلاح مرتبطة بالحرص على (وضع الرجل المناسب في المكان المناسب) والتأكيد على معايير مثل المقدرة والكفاءة والنزاهة وهو أضعف الإيمان طبعاً.

وما لم تعط بلدان العالم الثالث مشكلة (الإدارة) حقها من الاهتمام الجدي فإنها ستبقى ضعيفة المقاومة أمام تحديات العصر، وعلى وجه التخصيص أمام العملاق الإداري الفعال للبلدان المتقدمة المستند إلى أضخم الإمكانات كذلك والمتأهب لابتلاع كل مقصر على سطح المعمورة.

أيلول ١٩٧٩

* * *

التخلف والتعميم

(١)

الاستنتاجات الجريئة التي ينثرها بعض كتابنا ونقادنا يميناً وشمالاً كما تنثر حبات الملبس في الأعراس والأفراح كانت دائماً تثير في نفسي عجباً وإعجاباً، وإن كانت لا تثير موافقة ولا إقراراً. وأعتقد أنه من الخير لهذه الروح الجريئة في الاستنتاج والتوصل إلى الأحكام أن تستمر شريطة أن يوجد دائماً من يمحصها ويناقشها ليفرز فيها ما هو افتراضي وما هو تعسفي وما هو أقرب إلى الصحة.. لكن المشكلة أنه بسبب النقص الذريع الذي يعاني منه ميدان البحث الجاد والنقاش الموضوعي قد تمضي أحكام كثيرة دون مناقشة وتذهب مذهب الحقائق المقبولة ولاسيما عند جمهرة القراء، وههنا تكمن الخطورة وههنا يجب الاحتراز.

إن (التخصيص) هو أبرز مميزات المعرفة المعاصرة، ولم تقم الحضارة الإنسانية في عصرنا إلا بنتيجة تطور العلم الذي ابتعد عن العموميات وانطلق من ميدان التجربة الجزئية والواقعة الملموسة. وألغى كل الأفكار المسبقة والتصورات التي لم يقم على صحتها الدليل، حتى لو كان معظم الناس يعتقدون بصحتها وصدقها. وقد أكد العلم أن الحقيقة العامة لا تسبق الحقيقة الخاصة أو الجزئية وإنما تبنى عليها، وأصرت مناهجه على مراعاة درجة من الدقة والتدرج في التوصل من الخاص إلى العام ومن الظاهرة الفردية إلى الحكم الشامل. ولم تختلف هذه الدقة الصوفية بين مناهج العلوم الخاصة ومناهج العلوم الاجتماعية، ولاسيما

العلم التاريخي وما ينبثق عنه من تاريخ أدبي وتاريخ حضاري وعلم آثار وغير ذلك.

إن الإنسان المعاصر، سواء أكان عالماً أم مؤرخاً أم كاتباً أم رجل أعمال، هو إنسان دقيق تخصيصي، حذر من التعميم. ومستند إلى ذخيرة كبرى من حصيلة المعارف الإنسانية الممحصة. ومن هنا كانت الدقة المتناهية في الإشارة إلى المراجع والمصادر وفي تحديد ما هو مقتبس من الآخرين بنصه وما هو مقتبس بمعناه دون مبناه، وما هو مقتبس بتصرف كثير أو قليل.

إن هذه البدهيات لا تحتاج أصلاً إلى من يذكر بها.. ولكن ماذا يصنع المرء سوى أن يستجير بالذكرى أن نفعت، إزاء ما يراه في حياتنا الفكرية والأدبية من استهانة بأبسط قواعد التفكير المعاصر، ومن طيش في إطلاق الأحكام، ومن هوى في التقييم، ومن طمس لأصحاب الأفكار المقتبسة، ومن إخفاء للنصوص الأجنبية التي يجري النقل منها تشويهاً وتحريفاً، ومن ادعائية عريضة واستهانة بعقول الناس في نهاية المطاف.

معاذ الله أن أزعم أن هذا هو النمط السائد في كتابتنا العربية، فهناك تيار معافى لا سبيل إلى نكرانه، ولكن لنرفع أصبح الاتهام في وجه الأحكام المتسرعة والمجازفة وفي وجه كل بحث لا يكشف عن الأصول التي بني عليها فقد نكون أحوج إلى الدقة منا إلى الابتكار.

(٢)

ومرة ثانية إذا جاز أن تخص عصرنا الحالي بسمة معينة يمكن أن ينفرد بها عن سائر العصور التي سبقته فإن هذه السمة لابد أن تكون التخصيص أي السعي وراء تحديد السمات والملامح الخاصة وتجاوز التعميم والابتعاد عن الحكم بالجملة على الأفكار والناس والأشياء.

ولو أننا أخذنا واحدة تتصف بها المجتمعات المتقدمة على اختلاف نظمها ومعتقداتها - لكان التخصيص هو هذه السمة سواء من حيث الإيمان به أو المقدرة على تحقيقه.

وفي البلدان الأقل تقدماً نلاحظ ادعاء مستمراً لصالح التخصيص وهرباً مستمراً من ممارسته إلى التستر وراء الأحكام العامة والعبارات الجاهزة والصفات التي تدل على كل شيء وعلى لا شيء في وقت واحد.

وبالطبع ترتبط المقدرة على التخصيص بفعاليات عقلية أخرى من أهمها الدقة والموضوعية والتعمق والمنهجية، ويأتي – التخصيص - قمة في التقدم العقلي لأنه خلاصة لمجموعة مترابطة من الملكات والفعاليات الفكرية. ولذلك كانت ممارسته صعبة على العقل الذي لا تدخل هذه الفعاليات في صميم تركيبه.

والمشكلة أنه في بلدان العالم السائر في طريق التقدم يزداد عدد المتعلمين ويرتفع مستواهم، ولكن ينمو إلى جانب ذلك اتجاه إلى ما يمكن أن يسمى «المنفخة» الفكرية، فالمفكرون الكبار والعلماء الكبار والوجهاء الكبار والمسؤولين الكبار يأنفون من الكلام في الخصوصيات والدقائق والمسائل الصغيرة واليومية والملموسة، ويفضلون أن يخوضوا في المسائل الكبرى للتنظير والإيديولوجيا والمصير القومي وأهداف التربية والمعاني المختلفة لكلمة «ثقافة»، ويستطيع المرء من هؤلاء أن يحدثك ساعة مثلاً عن أهداف الصهيونية وطبيعتها العدوانية لكنك لن تسمع من أي منهم على الإطلاق تحديداً نوعياً - هذه الكلمة يتيمة الأب والأم في حياتنا الفكرية - لمشكلة الاستيطان الصهيوني في الأراضي العربية المحتلة ولا اقتراحاً خاصاً بمعالجة هذه المشكلة عن طريق استخدام السلاح «النوعي» المناسب في لحظة من الزمن معينة وعلى بقعة من الأرض محددة. إن حل مثل هذه المشكلة وغيرها جاهز دائماً في العبارات الجاهزة - كليشات - والمبادئ العامة، وما على المهتمين بالأمر إلا أن يطبقوا المبادئ العامة على الحالات الخاصة وتنتهي المسألة.

ولقد جرى اختيار مثال سياسي هنا أولاً لأن السياسة هي من أكثر فعاليات الحياة حاجة إلى التخصيص بحيث يمكن أن يقال إنه لا وجود لسياسة بغير - تخصيص -.

وثانياً: لأن الهم الأول الذي يعيش في وجدان جميع فئات الناس في المنطقة العربية هو الهم السياسي. ذلك أن مواجهة العدو الصهيوني وتحقيق الأهداف القومية في الوحدة والحرية والبحث عن صيغة الحكم الأفضل وحشد الطاقات العربية في خدمة المواجهة وما يمت إلى ذلك بصلة، هذه الأمور هي التي تشكل محور الاهتمام الرسمي والشعبي... ومن السهل أن نرى أنه - على الرغم من ذلك - يغرق هذا الهمّ الأول في تعميمات لا أول لها ولا آخر حتى عند أولئك الذين يفترض أنهم الأكثر وعياً والأعظم مسؤولية.

إن التصريحات والبيانات العربية حول الأحداث والمناسبات المتصلة بقضية الصراع ضد العدوان الصهيوني مثلاً تكاد تكون ذات صيغة واحدة حتى أن أكثر من ثلاثة أرباع مادتها مشترك ويصلح لكل المناسبات... ولطالما شكا الضيوف الأجانب - سواء منهم الصحفيون والسياسيون - من عمومية ما يسمعونه من تعليقات لدينا.. وكذلك من عدم تفريقنا في الحديث بين ذلك الصنف من السياسيين المختصين الذين يحيطون إحاطة جيدة بشؤون المنطقة وبين صنف آخر من غير المختصين بالمنطقة الذين يفدون إلينا للتعرف على وجهة النظر، إنهم جميعاً يسمعون كلاماً واحداً ولا يجدون أجوبة معقولة لأسئلتهم الملموسة.

إن التعميم خطأ طبعاً، ويجب أن نقول أن هنالك استثناءات خيرة تخرج عن منطوق الظاهرة التي نتحدث عنها وهي تتمثل في سياسيين ومثقفين ومسؤولين يهتمون اهتماماً متفاوتاً بمسألة التخصيص في الفكر والقول.

كما أن الكلام هنا لا ينطبق على المقابلات الصحفية التي تتم بمناسبة هذا الحدث أو ذاك.

يضاف إلى ذلك أيضاً أنه خلال السنوات الماضية بدأ الكلام العربي يتطور بشكل ملحوظ باتجاه التخصيص. ولكننا مازلنا بعيدين عن بلوغ الغاية في هذا المجال.

(٣)

إن موضوع التعميم والتخصيص يقع في الصميم من تجربتنا في العالم المعاصر، وهو ليس موضوعاً - أكاديمياً - كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانه غير المثير، ولا هو موضوع منطقي أو نظري أو كلامي، كما يخيل لبعض الناس، وإنما هو موضوع عملي يتصل بصميم تجربتنا في التخطيط السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي كذلك.

ولا يحتاج الإنسان إلى كبير عناء ليلاحظ أن البلدان المتقدمة، على اختلاف مذاهبها ومناهجها في الحكم والسياسة، تنحو بتفكيرها دائماً منحى تخصيصياً نوعياً، أي تعالج كل حالة معروضة من خلال تفصيلات الحالة وظروفها وتعمل دائماً على الانتقال من المبدأ العام إلى الواقع الخاص حتى تكون الوصفة منطبقة على الحالة وبالتالي فعالة في مداواتها. ويصح ذلك فيما يتصل بوضع برنامج سياسي لحزب معين، أو وضع خطة ثقافية لرابطة أدبية، أو إقامة مشروع لمكافحة الفقر في منطقة معينة.

وفي المناطق غير المتقدمة من العالم، أو المتخلفة، أو النامية، أو – العالمثالثية - يدور التفكير في إطار النظريات الكلية والمبادئ العامة والقواعد الشاملة، ويظهر العجز جلياً في إقامة الصلة بين الموقف العام والموقف الخاص، ويميل معظم الناس إلى أن يكونوا منظرين وإيديولوجيين، لأنهم يستسهلون هذا الأمر، ولأنهم لم يتدربوا على التفكير النوعي والعيني.

ويعتقد بعض الناس أن اللجوء إلى المبادئ العامة والنظريات يعفي من المسؤولية ويبعد عن الالتزام، وهذا صحيح تماماً، ولكن حتى لو

افترضنا وجود الرغبة في الالتزام فإنه من الملاحظ وجود عجز عن الربط بين المبدأ العام والحالة الخاصة لدى معظم العاملين في قطاعات الحياة في العالم الثالث، ربما لأن المسألة في الأصل هي مسألة تربية عقلية، وربما لأن وسائل الإعلام والتثقيف تنحو كلها هذا المنحى العام.

وبالطبع يرجى ألا يوحي هذا التصنيف بأن العالم ينقسم انقساماً حاداً إلى فكرين: فكر تخصيصي نوعي متقدم، وفكر تعميمي كلي متخلف، فهناك في العالم المتقدم - كما هو معروف - اتجاهات نظرية واتجاهات عملية تجريبية، وهناك في العالم المتخلف أفراد وأحياناً مؤسسات وقطاعات عرفت طريقها نسبياً إلى التخصيص. وهذا حديث يطول وله جوانبه التي يعرفها ذوو الشأن والمختصون.

وحتى لا يظل الكلام في مجال التعميم، وحتى لا تقع عليه شبهة التخلف التي يصعب أن ينجو منها على أي حال!! -، نقدم بعض الأمثلة من واقع المؤتمرات العربية.

في الجلسة العامة لأي مؤتمر يتحدث الناس عن الخطوط الرئيسية لمواقفهم ثم ينقسم المؤتمر إلى لجان خاصة لكي توضع التفصيلات وتعالج الحالات المعروضة وتتخذ الإجراءات المناسبة. أما الذي يحدث في مؤتمراتنا فهو أن الناس يعيدون في اللجان الخاصة ما يقولونه في الجلسات العامة، ويشددون على المبادئ والمنطلقات ويكررون ذلك، حتى أن معظمهم لا يصلون إلى التفصيلات والصفات المطلوبة.. ولذلك تطول المؤتمرات العربية ويمل الناس منها ولا يسمعون ربع ما يقال فيها.

بل أكثر من ذلك، تكون هناك قضية عامة وقضية واقعية خاصة، فيميل معظم المتحدثين - على الرغم من ارتفاع المستوى السياسي والفكري للكثيرين منهم - إلى التحليق في أجواء القضية العامة وربما نسوا وجود التحدي الخاص. فهناك مثلاً التسوية السياسية - العامة النظرية - وهناك

التسوية السياسية المطروحة في وقت معيّن وبصيغة شبه محددة. والمواقف معروفة ومعلنة من التسوية العامة، ولكن التحدي الأساسي الذي يواجه مؤتمراً سياسياً يتصدى لمشروع معيّن في التسوية هو أن يبين الموقف الخاص المطلوب إزاء التسوية: خطورتها النوعية، الوسائل العملية لإحباطها، البديل المطروح من ضمن برنامج زمني منظم.

وويل لمؤتمر يكرر على مسامع الناس المواقف العامة المعلنة سابقاً ويطلب منهم أن يستنتجوا بأنفسهم كيف تعالج الأمور الملموسة التي تطرح في واقعهم.

إن مثل هذا التعميم هو الذي يفقد المؤتمرات العربية ملموسيتها ويبعد عنها الجمهور الذي يتأكد له في كل حين أنها ليست سوى مآدب كلامية. وأي شيء هو التخلف إن لم يكن هذا؟.

أواخر ١٩٧٨

* * *

تخلف خلاف وانقسام

تقول العرب: «إرضاء الناس غاية لا تدرك» وتقول الفرنجة: «إذا أردت أن ترضي كل الناس فإنك لن ترضي أياً من الناس».

ونحن الذين اخترنا لأنفسنا (حرفة الكتابة) ماذا نستطيع أن نفعل سوى أن نستمر في محاولة إرضاء الناس مهما كانت المثبطات قوية والشواهد على الإخفاق ساطعة؟.

أقول هذا بمناسبة التعليقات المختلفة التي أسمعها حول ما تكتبه الأقلام الأدبية في الصحافة. وأحصر كلامي بما يتعلق بما يجود به علي القلم الضنين.

إذا كتبت في النقد قالوا: نقد أدبي على الصفحة الأخيرة! هناك قضايا عامة كثيرة: التسوية والسادات والفتنة والوحدة.

ويقال لهم: نعم، وإننا نتحرق تحرقاً مع المصير العام، ونكتب في غير هذه اللمحات ونعمل في غير هذا المجال، ولكن هذه اللمحات الخاطفة شخصية يفترض في الإنسان أن يقدم فيها انطباعاته حول موضوعات مختلفة تؤرقه خلال ممارسته لفكر أو أدب أو نضال أو صلة اجتماعية. ونحن نكتب هنا في الأدب كما نكتب في السياسة والفكر والقضايا القومية.

ويقال لنا: ولكن أية لغة سياسية هذه التي تكتبون.إن بعض هذه اللمحات تمس الموضوعات مساً رقيقاً، وهو كلام على هامش السياسة. أين التحليل والتعليل والربط وإعلان الموقف؟.

ونقول: إن صفحات المجلات مملوءة بالأبحاث الطويلة والتعليقات القصيرة والملاحظات الساخنة. ونحن هنا نقدم انطباعات شخصية ونلتقط جوانب من الموضوعات المطروحة ونتوخى الطرافة، ونتمنى لو نحاور القارئ دون أن نثقل عليه، ونجهد كي نمس ناحية ما خفية لا تدركها التعليقات المباشرة.

ويستمر الأخذ والرد، ويظل الأمر في الصحافة، كما في الأدب، كما في العلاقة الاجتماعية، كما في لُجَّة النضال، كما في التربية والتعليم، كما في الصلة الشخصية، هو هو:

(فقدان المعايير)

وهكذا يكون كل شيء صحيحاً وغير صحيح في وقت واحد. وهذا شيء غير الخلاف. فالخلاف في الرأي والاجتهاد موجود في كل مكان وفي كل زمان، وهو غير خارج عن نطاق المعايير. إن الخلاف كذلك كان ومازال يقاس بالمعايير.

«الشيء بالشيء يذكر»

في معرض الكلام على الخلاف أذكر حواراً كان لي منذ زمن مع أحد الأصدقاء الأجانب من المهتمين بالمنطقة العربية. كنت أقول له: لماذا تأخذون علينا وجود خلافات بين هذه المنظمة الفلسطينية أو تلك في نطاق منظمة التحرير الفلسطينية، أو بين هذه الدولة العربية أو تلك في نطاق الجامعة العربية؟ لماذا تعتبرون هذه الخلافات ظواهر خطيرة ولا تضمونها في إطار الحوار الديمقراطي كما تصنفون خلافاتكم في حياتكم الحزبية أو في السوق الأوربية أو في مداولاتكم الثنائية مثلاً؟

قال صديقي بجدية ظاهرة:

«ما بينكم ليس خلافاً وبالتالي ليس حواراً ديمقراطياً. إنه ببساطة انقسام. عندنا يوضع الخلاف دائماً في الإطار الأوسع لدائرة المصلحة المشتركة ويستقي اعتباراته من كونه ظاهرة جزئية في مدار وآفاق أوسع. ولذلك لا يؤدي الخلاف عندنا إلى حرق الأخضر واليابس إلا حين يتجاوز الصالح المشترك وعند ذاك يصبح انقساماً. وبذلك تتصارع الأحزاب والفئات من خلال منظور عام وتبقى هناك اعتبارات جوهرية دون مساس».

يومها حاولت أن أدافع أو أسوغ أو أفسر، ولكن ما يراه المرء كل يوم من حرق الاعتبارات العامة عند أول نقطة خلاف في الحياة العربية يجعل السكوت في هذا المعرض من ذهب.

أيلول ١٩٧٩

ساعات الكترونية ...
ومواعيد غير الكترونية

تأخير، تأجيل، إلغاء

هذه المفردات وأمثالها مما نستعمله في حياتنا اليومية كأنه أبسط شيء في الوجود هي مفتاح التعرف إلى الموقع المتخلف الذي يحتله العرب في العالم المعاصر.

يقولون لك ببساطة شربة الماء أو تنفس الهواء أو رشوة الموظف:

تأخر موعد المحاضرة ساعة ونصفا.

وتأجل اجتماع الخبراء إلى الأسبوع المقبل.

وألغي المؤتمر أو المجلس أو حتى الامتحان.

ويتكرر ذلك كل يوم في حياتنا، كأنما كل موعد لدينا هو موعد مبدئي يحدد كيفياً بانتظار ما سوف يقرره الواقع.. حتى أصبح الإنسان يفضل أن يحدد المواعيد بالأيام لا بالساعات فيقول مثلاً: إن الطائرة تصل يوم الخامس من شباط الموافق للثامن من ربيع الأول، ولا لزوم لتحديد الساعة، إذ يستطيع المعنيون من ركاب ومستقبلين وموظفين أن يكيفوا برامجهم وفق هذه الحقيقة.

* * *

وعلى مستوى حياتنا اليومية تتخذ هذه الظاهرة شكلاً أشد خطراً وتبدو أعمق جذوراً. فالموعد دائماً هو: الساعة الثامنة - الثامنة والنصف - التاسعة

أو حول ذلك. واللقاء هو (الصبحيات) أو (الظهريات). إن وحدة القياس هنا ليست الثانية ولا الدقيقة ولا الساعة. إنها تقريباً نصف النهار. وحتى هذه المواعيد الجزافية التقريبية يجري خرقها بمنتهى اللااكتراث ويمحى هذا الخرق بمجرد اعتذار بسيط من باب رفع العتب.

* * *

وبالطبع كلما تعقدت أساليب حياتنا وخضعت لمبدأ التنظيم المعاصر بدت ظاهرة المواعيد غير الدقيقة صارخة وشديدة الخطورة، وأخذ شعور المرء بها يزداد حدة، كما أن الأضرار الناجمة عنها تستفحل وتتفاقم، لأن حلقات العمل في العصر الحديث مترابطة ومتساندة وفقاً لمبدأ التسلسل الزمني، وأي خلل في حلقة منها تتبعه سلسلة من الأشكال المختلفة للخلل في الحلقات الأخرى.

* * *

ومقابل هذا التهاون في مسألة الوقت، نجد أن الوسيلة المادية الخاصة لضبط الوقت متوفرة في البلاد العربية بنسب تلفت النظر. فما أكثر الساعات في بلادنا، وما أكثر حرصنا على شراء أحدث أنماط الساعات من الكترونية ومذهبة. ومن ساعات تضبط الثواني وأجزاء الثواني، وإن من يلاحظ هذا التسابق على شراء الساعات وإهدائها واستهدائها وما يرافق ذلك من حرص على التأكد من دقتها الفائقة ربما ظن أننا أكثر الناس تقيداً بالوقت ومحافظة عليه!! وههنا العجب، وههنا المفارقة.

قد تكون ظروف حياتنا صعبة ومعقدة، وقد تكون رغبتنا في تحقيق طموحاتنا المختلفة سبباً من أسباب اضطراب المواعيد في حياتنا، وقد يكون من المناسب أو اللائق أو المنصوح به أن يبتعد الإنسان عن القسوة في النقد. ولكن مع ذلك يسمح الإنسان لنفسه بهاتين الملاحظتين العابرتين:

أولاً: البساطة التي ترافق استخدامنا لمصطلحات التأخير والتأجيل والإلغاء قد توحي للسامع - خطأ أو صواباً - أننا لا ندرك أي خرق لنظام الحياة الحديثة المبنية على الدقة والضبط نقدم عليه في مثل هذه التصرفات المتكررة.

ثانياً: الإقبال المخيف في البلاد العربية على شراء الساعات الحديثة الالكترونية والمذهبة مما يدفع المرء إلى الاستنتاج - خطأ أو صواباً - أننا نستعيض عن مراعاة الدقة بشراء ما يعادلها مادياً، وبذلك نرفع عن كاهلنا، عبء ضبط الزمن، ونستريح.

ولقد آن لنا أن نعالج هذا الجانب الخطير من تخلف حياتنا وأن نعطيه من الأولوية ما يستحقه لأنه مرتبط بحياتنا اليومية بل بدقائق أيامنا وليالينا.

شباط ١٩٧٩

* * *

القسم الثالث

الثقافة والمصير

- تخطيط الثقافة
- الثقافة والتغيير
- في الثقافة والتوهج
- في الثقافة والجيل
- في الثقافة والتشتت
- انتماء
- حصار الثنائيات
- تقسيمات على وتر جائزة نوبل
- الزيارة والثقافة (١ -٢)
- ميرتشا ناديا
- لغتنا الجميلة ومسؤولياتها
- لغويات.

تخطيط الثقافة

التخطيط للثقافة. هل هو ممكن؟

أن نخطط للصناعة، للعلم، للزراعة، شيء طبيعي، والشاذ ألا نفعل ذلك. ولكن أن نخطط للثقافة، فذلك أمر لا يسهل إطلاق القول فيه.

لماذا؟

ببساطة، هناك عشرات المخاوف التي تلابس مفهوم التخطيط للثقافة. وكلها مخاوف ذات خطر حقيقي على الإنسان الذي يخطط لصالحه والعقل الذي يخطط له.

أول هذه المخاوف أن يتولى التخطيط للثقافة من ليس من أهلها، من يحسبها ربطة عنق من متجر ذائع الصيت أو وساماً مزخرفاً من سلطان. وأبرز هذه المخاوف أن تعامل الثقافة كما الصناعة فيقال أننا بحاجة لأناس تتوافر فيهم مواصفات ثقافية معينة، كأن يكون الجدار العقلي الذي يقيهم من الأفكار الجديدة أو الوافدة أو المستوردة بسمك عشرة سنتيمترات وارتفاع عشرين.

ومن أكثر هذه المخاوف توقعاً أن يدرك المخططين الملل، قبل أن يغرسوا الغرسة الأولى، ذلك لأن التخطيط للثقافة كزراعة الزيتون يقوم بها جيل لصالح جيل، ولا يأكل من ثمر زرعه فيه إلا كل طويل عمر.

ومن المخاوف أيضاً ما تدركه المعرفة ولا تحيط به الصفة، وهو حولنا وحوالينا فلندعه وشأنه

ومع كل ذلك لا بأس بأن نقول: إن أضرار التخطيط - مهما بلغت - لن توصلنا إلى مناخ ثقافي أسوأ مما نحن فيه بدون تخطيط.

فلنحاول. ولكن لنضع في ذهننا بوضوح.

- إننا لا نريد أن نخطط لنصنع الإنسان ثقافياً، وإنما لنتيح له الفرصة لأن يكون لنفسه ثقافته.

- إننا لا نريد إمَّعات مثقفة تعرف من الثقافة نغمها وديباجتها فحسب، وإنما نريد بشراً أسوياء يغنون الثقافة ويحيونها ويطورونها دائماً نحو الأعمق والأصدق.

- إننا نريد طليعة تشق الطريق أمام شعب متطلع إلى الثقافة وتأخذ بيده، لا نخبة تتشدق بالثقافة وتعقدها لتبعد الناس عن سلوك طريقها.

- إننا نريد ثقافة تذلل للإنسان سبل الفهم والعيش والاستمرار، لا ثقافة ترفع نفسها فوق الإنسان بحيث تصبح هي الغاية وهو الوسيلة.

- إننا نريد ثقافة حية كما الشجرة، تنمو وتزهر وتورق وتثمر وتتجدد أبداً.

كانون الأول ١٩٧٦

الثقافة والتغيير

(١)

الثقافة سلاح فعال، ولكنه ليس وحيد الاتجاه إنها سلاح ذو ثلاثة حدود على الأقل.

فقد تكون الثقافة سلاحاً في اتجاه التغيير والكشف والارتياد حين تكون سلاح أمة ناشئة أو طبقة صاعدة أو شعب عريق يتجدد.

وقد تكون الثقافة سلاحاً في اتجاه السكونية والتستر على الزيف والتقوقع حين تكون سلاح طبقة ظالمة أو نظام يقارب أن يبيد أو مجتمع ضلت موازينه.

وقد تكون الثقافة سلاحاً في اتجاه البلبلة والتخبط ونفي الحياة حين تتحول من سلاح عام إلى سلاح فردي، من سلاح الأمة أو الشعب أو الطبقة أو الإنسانية إلى سلاح الذات والمأرب والانتهاز، أو بالضبط حين يتمثل حامل السلاح، في غير سياق الحب، بقول الشاعر:

إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر.

ومن هنا لا وجود لثقافة مطلقة، أو مطلق ثقافة، هناك دائماً ثقافة منسوبة أو مضافة أو موصوفة. وأن القفز على هذه الحقيقة لابد أن يفضي إلى الضياع والبحران واللافعالية.

(٢)

من مشكلات ثقافة التغيير أنها هي نفسها بحاجة إلى تغيير بل إلى دوام التغيير.

وكما أن السلاح الصدئ لا يصيب من العدو مقتلاً، فكذلك الثقافة التي لا تتجدد لا يمكن أن تفلح في تحريض العقول والنفوس.

على أن التغيير في الثقافة قد يكون أصعب مثالاً من التغيير الذي يراد لسلاح الثقافة أن يحدثه وهنا المعضلة.

ذلك أن تغيير الزي الخارجي أو الموقع الاجتماعي أو الولاء السياسي ممكن إذا توافر له الظرف الخارجي مقروناً بالحسم والعزم. ولكن أن يغير الإنسان اختياره الثقافي، أن يغير فهمه ومفهوماته وذوقه وطريقة محاكمته فتلك معاناة حقيقية وعملية ولادة معقدة وثبات لا يقدر عليه الكثيرون.

وأنه بالوعي والإرادة والشجاعة الداخلية يحدث في الثقافة التغيير.

ولكن التغيير الثقافي وحده لا يكفي إن لم يتمثل في تغيير في الموقف والمسلك والالتزام، بل إن خطورة هذا التغيير تكمن في أنه يستتبع مسؤولية الموقف. ومسؤولية الموقف تستتبع الصمود في وجه احتمالات العداء والخصومة والتشكيك وسوء الفهم ونقمة المستفيدين من كل صيغة قائمة.

ويصدق ذلك على المستوى الفردي كما يصدق - بنسبة أقوى وأخطر - على المستوى الجماعي.

وإذاً فإن تغيير الثقافة ليس لعبة مسلية، أو كلمة تقال ويمضي صاحبها في سبيله.

إنها معاناة، وجهاد، ولعبة خطر ولكن أحبب بها من لعبة ومن معاناة ومن جهاد حين تلوح تباشير أفقها الإنساني، وحين تصبح هماً عاماً مكتوباً على الجبين الجمعي لمن أدركوا أية مصلحة لهم تكمن في التغيير.

شباط ١٩٧٩

* * *

في الثقافة والتوهج

الثقافة أشبه ببستان مفتوح على الآفاق الإنسانية، له إلى الخارج بريق ولمعان، وهو في الداخل مصقول ومتوهج في غير بهرج.

مشكلته وميزته أيضاً أنه بلا أسوار، وأنه يغري من الخارج، وأنه لا يكشف عن جوهره بمثل ما يوحي بريقه.

ولكل إنسان أن يدخله مرتاداً أو معانياً أو متفرجاً أو جاداً أو هازلاً أو مجرباً أو عابثاً أو مفرجاً عن هم أو باحثاً عن مكان في الوجود.

وليس الدخول إلى بستان الثقافة هو المشكلة، ولكن المشكلة هي التفاعل مع التوهج، هي أن يصبح المرء جزءاً من هذا التوهج ليشع مع الذين هم على شاكلته حتى يصبح واحداً في كل وكلا في واحد.

* * *

مشكلة بعض الناس أنهم لا يمكن أن يتوهجوا، وحدهم أو مع المجموع، لأن الطبيعة خلقتهم لشيء آخر، ليس بالضرورة أفضل من الثقافة أو أدنى منها، ولكنه شيء آخر. هؤلاء، غالباً ما يدخلون البستان من الباب الخلفي، وينصبون أنفسهم أعداء لكل زهرة يانعة أو شجرة مورقة، أكثر ما يحزنهم أن يتوهج التفتح من حولهم، وتظل ضغينتهم أبداً متوفزة، وتظل معاولهم أبداً مشحوذة للهدم والتدمير.

وإن عالم الثقافة ليسعهم برحبه، وكذلك بغياب الملموسية في معاييره، وإنه ليفسح لهم أثمن فرصة ويمد لهم أرحب ذراع. ولكنك تراهم أبداً

مشغولين بالممرات الخفية، يتلصصون على التوهج تلصصاً، ويتفحصون الكؤوس والأطباق والنفايات، لعلهم يكتشفون لطخة حمرة على عقب لفافة تبغ، أو فضلة قماش في سلة المهملات، ليصطنعوا منها زوبعة في فنجان، تطمئنهم إلى أن مصير الثقافة في متناول أيديهم، وأنهم موجودون على وجه من الوجوه.

* * *

ومن حسن حظ هؤلاء الناس وأمثالهم أن بستان الثقافة ليس له شرطة ولا قضاء ظاهريان، وهم يدركون هذه الحقيقة جيداً فيبالغون في انتهاك قيم الثقافة والتمادي على نظافتها وصفائها، وقد يتحدثون عن سهولتها وليونتها وطواعينها باستبشار لا يخفى، وقد يجترئون على أخص خصائصها بعد أن أزالوا هيبتها في نفوسهم.

* * *

ولكن الزمن يمهل ولا يهمل، وقد علمنا تاريخ الثقافة وتاريخ الفن وتاريخ الفكر أن البقاء للأصلح تماماً كما هو الشأن في تاريخ الحياة. وقد يخطر للمرء أن يقول أن النقد موجود وهو الذي يميز الصالح من الطالح، ولكن النقد يصعب أن تكون له سلطته الظاهرة ولاسيما في تلك الفترات من حياة المجتمعات التي تختلط فيها القيم وتضطرب المعايير، ويكون الناس فيها أحوج ما يكونون إلى قيم ثقافية وفنية متبلورة. إن النقد في هذه الفترات يعاني هو نفسه من البلبلة والتخبط وكثيراً ما يفقد مصداقيته ومقدرته على تأليب الناس من حوله.

* * *

وما أكثر ما يمكن أن يطرح من آراء وأن يقترح من حلول. وما أكثر ما تصدى الناقدون ومؤرخو الثقافة لهذه المعضلة وتساءلوا: كيف يحدث أن

يطفو على سطح الثقافة والفن في فترات معينة أشخاص وأعمال في غير المستوى المقبول وكيف يحدث أن يلعب الزمن لعبة التنخيل، فيذهب الزبد جفاء وأما ما ينفع الناس فيبقى؟.

* * *

لعل أجمل ما يربح الإنسان من تفسيرات هو الاعتقاد بوجود وجدان خفي لدى جماهير الناس الذين يقرأون ويتلقون، وأن هذا الوجدان له حكمته الأصيلة التي تفعل فعلها ببطء وروية على تعاقب الأيام، وتميز ما هو لصالح الإنسان وما هو موات ٍ لذوقه السليم مما هو مضاد للحياة ومنفر للذوق.

وقديماً حاول الكثيرون النفاذ إلى هذه الحكمة وقالوا أن سر دوام السحر الفني يكمن في الوحدة والانسجام والتناسق والتألق ونصاعة البيان.. وتبيَّن فيما بعد من التجربة أن كل نوع من أنواع التفسير يحتاج بدوره إلى ما يفسره وهكذا دواليك.

وإذن تبقى مشكلة الثقافة وميزتها أيضاً أن أبوابها ونوافذها مفتوحة على مصراعيها أبداً. وأن حراسة هذه الأبواب والنوافذ غير ممكنة، وأن تقنين ما بداخلها في المعايير الملموسة غير ممكن أيضاً. وأن الأصالة والإبداع فيها شيء تدركه المعرفة ولا تحيط به الصفة.

ومن أجل ذلك، ربما، يظل للثقافة ذلك التوهج المسحور الذي يفزع إليه الإنسان ليجعل الحياة ممكنة ومحتملة وإنسانية.

ولتختلط فيها بعد الأمور، فتلك علامة حيويتها وديناميتها وقابليتها للتغير باتجاه تنقية ذاتها والحفاظ على روائها وألَقِها العجيبين.

أيلول ١٩٧٩

* * *

في الثقافة والجيل

(١)

ثقافة العالم المعاصر متجاوزة لحدود الأمم، وعلى الرغم من استمرار الطبع القومي للثقافة بنسب متفاوتة فإن استعمال مصطلح «الثقافة العالمية المعاصرة» أصبح له ما يسوغه، وبالتالي أصبح إنسان هذا العصر نهباً لتيارين متلازمين: الأول تيار الثقافة القومية أو الطبقية أو المحلية والثاني تيار الثقافة العالمية.

وبالنسبة للجيل العربي المعاصر، شأنه شأن الأجيال الناشئة في بلدان إفريقية وآسيوية كثيرة، تتضاعف المسؤوليات وتتهجم التحديات، ويبرز خطر الضياع في الدوامات المتلاطمة، أو التخلف عنها أو الاطمئنان بالانسلاخ عنها والبقاء خارج دائرتها.

وإنها لمشكلة جدية، وضاغطة، ولها ما يبررها.

لنتصور حركة الثقافة في عصرنا على المستوى العالمي.

في لحظة إلهام تومض فكرة في ذهن نير، تتلقفها المطبعة تلقف الجائع النهم، تؤطرها بسحر الحرف المطبوع، ينشرها الناشرون في بقاع الأرض وأصقاعها، يتصدى لها المترجمون يلبسونها أثواباً لغوية جديدة. وينبري لها الناقدون، ويشيدون بمحاسنها ولا يخفون المآخذ، يرفع عليها العالم رايته. تصبح تراثاً مشتركاً، تتعرض للتفاعل مع غيرها من الأفكار، ينتج تركيب جديد، يغنيه تفاعل جديد.. إنه الفكر الحديث يعيش في توتر دائم. القرائح تتلظى بلهيب الإبداع. والعلم يقود الإنسان مع إطلالة كل فجر إلى آفاق لم

تحلم برؤيتها عين، وكلما انحسر الستار عن أفق نجمت مشكلات فكرية وحضارية ونفسية، يلهث الفكر من ورائها، يسعى إلى استيعابها، ومن أمامه تتشعب المتاهات وتعبس العقبات وهو أبداً معقود اللواء، يوليسي العزم، قد يكبو ويلتوي عليه المسير ولكنه، ومن ورائه بنات (الميوز) السبع، لم يعرف التوقف عبر الأجيال.

والشاب الظامئ إلى المعرفة، ما عساه يفعل إزاء هذا الموكب المتماوج ذي الألوان الطيفية؟

تكل عيناه ولا يستطيع أن يرى كل ما يود أن يراه. يغتاله الوقت قبل أن يستوفي بعض فيض من القرائح المبدعة، واللغة هذا الحاجز الذي يظل حاجزاً رغم آلاف سلالم المترجمين، اللغة تصد المثقف إن طمح، تفتح له نافذة وتغلق عليه نوافذ.

وإذاً ما العمل؟ وشبابنا كلهم مثقلون بالمسؤوليات مشدودون إلى الوراء بحبال من تركة المنشأ أو الطبقة أو الأسرة؟ ما العمل ومطالب الحياة تتحدى باستمرار؟.

في لحظة من اللحظات يبدو الجمع بين متطلبات الحياة ومتطلبات الثقافة لدى الشباب المثل بالمسؤوليات عقبة سيزيفية لا أمل بتخطيها. في الجامعة يكون نصيبهم من الثقافة محدوداً. فهم موزعون بين العمل والدراسة، والتسهيلات الثقافية المتاحة لهم أندر من حبة المطر في سنة القحط.

ما العمل وبعد الجامعة تأتي زحمة العمل وضرورات الكسب، وتطل الالتزامات الجديدة بأنفاسها اللاهثة وزخمها الضاغط.

(٢)

الموقف السلبي جبه كثيرين فحرقهم: مناهضة الثقافة، الاستسلام للخمول، التشكيك في نتاج الفكر الإنساني. مواقف سلبية لجأ إليها الكثيرون من الشبان عبر التاريخ، ولكنها لم تؤو أحداً لأنها كانت كملجأ لا سقف له ولا جدار.

الموقف الإيجابي. نعم، هو هو المطلوب ولكن كيف؟

قديماً قالت الحكماء: «ما لا يدرك كله يدرك جله». واليوم نقول بعبارة جديدة، الثقافة ضرب من الانتقاء. الثقافة لا تقاس بالكم بل بالكيف. والسعيد السعيد من عرف كيف ينتقي سواء في مجال قراءة الكتب وفي مجال الاستماع إلى المحاضرات أو في مجال تذوق الفنون كالاستماع إلى الموسيقى أو مشاهدة اللوحات الفنية.

إن الكتب كالناس. هكذا يقول عباس محمود العقاد. وحقاً ما يقول. إذا عرفت أي الكتب يجب أن تقرأ، إذا عرفت مقدار الوقت الذي يحسن أن تعطيه لهذا الكتاب أو ذاك فإنك تسير في طريق بناء شخصيتك الثقافية. إن مقدرتك على الاستيعاب محدودة وكذلك وقتك محدود. فلتحدد إذن ما تريده من الكتب ولتنتق الصنف الذي يلائمك أكثر من غيره.

أما كيف تنتقي وعلى أي أساس. فها هنا يبرز دور النقاد ومراجعي الكتب. ها هنا يبرز دور الصحافة الفكرية التي تقدم الكتب وتعرضها وتنقدها. ها هنا أيضاً يبرز دور الجامعة التي توجهك باتجاه هذا الأفق أو ذاك. ولكن مهما قيل في دور المؤسسات الخارجية فإنه يبقى على الشاب المتطلع إلى الثقافة عبء كبير وتحدٍ داخلي. ذلك هو تطوير نفسه من الداخل. تطوير المعيار الخاص الذي يقوم له مقام الدفة من السفينة ويوجه قراءاته في الكتب وإسهامه في مجال الفنون، بحيث تصبح جهوده في المجال مترابطة ومتكاملة.

(٣)

يضحك كثيرون ولاشك، إذ يقرأون هذا الكلام. عند العشرات من شبابنا ليست المسألة نوع الكتب التي تنتقى أو نوع اللحن الذي يسمع أو نوع اللوحة التي تشاهد. إنها أصلاً مشكلة أن يقرأ المرء كتاباً أو يصغي إلى عزف رفيع أو يقف لحظات أمام لوحة فنية.

وما أكثر الشباب الذي يلقاهم المرء هنا وهناك، ويفاجأ بأنهم لم يقرأوا في حياتهم كلها أي كتاب بدافع الفضول الشخصي. أي كتاب على الإطلاق. ومن هؤلاء من يحمل الإجازات والشهادات الجامعية في فروع المعرفة المختلفة. ومن هؤلاء من يتولى مراكز تعليمية أو تثقيفية هامة. وتفاجأ اللجان الفاحصة لحملة الإجازة الجامعية في بلادنا بانخفاض نسبة إقبال الشباب على الكتاب، ويحدث كثيراً أن يطلب من الشاب المفحوص تسمية أي كتاب فيقدم على تسمية كتاب جامعي مقرر، ويسأل عن مؤلفه فلا يحير جواباً أو يسأل عن الكتاب فيحصر الحديث بالأجزاء المقررة لأنه لم يحدث له أن فكر في الاطلاع على ما ليس مقرراً في الامتحان. أي كتاب، ولاسيما إذا كان المؤلف أستاذاً لهم. إن الكتاب يصبح هنا سلعة تجارية ترمز إلى الجشع والاستغلال من الأساتذة الذين يقررون كتباً بدلاً من الأمليات لا يخفون امتعاضهم من الأساتذة الذين يقررون كتباً بدلاً من الأمليات الجامعية حتى ولو كان الفرق في السعر زهيداً. وإذ تسألهم عن السبب يجيبون أن الأملية تكون محدودة ومركزة والكتاب أقرب إلى الاستفاضة وتكتشف أن علاقتهم بالمادة المقررة علاقة نجاح آلي في الامتحان، وليس يدخل في اعتبارهم الفرق بين الكتاب والأملية في جمال العرض وفي الاستيعاب وفي اتساع الكتاب للأمثلة الكاملة والتحليل والتعليق. ويخيل للمرء أن الجامعة تنشئ الطالب على إدمان المذكرات بحيث يصعب عليه في المستقبل أي تناول غير أوتوماتيكي للمادة المقروءة. والمشكلة أن القراءة المتبصرة عادة نفسية كغيرها من العادات. وإذا لم يكتسب الشاب هذه العادة في الجامعة وفي المعاهد الأخرى وفي مراكز تنشئة الشبيبة فإنه لن يكتسبها في المستقبل أبداً. وسوف تضطر الأمة بعد عقد أو عقدين من السنين إلى تسليم أمورها لجيل تقوم ثقافته على الالتقاط المبعثر المجزأ ويعجز عن تناول أية مشكلة من أصولها.

(٤)

إن الحديث يجري هنا عن الكتاب بوصفه ما يزال الأداة الأولى للتثقيف الجدي، وأنني أبعد ما أكون عن اتهام الجيل بالانغلاق الثقافي فهناك من يقرأ الصحف الخفيفة ويغشى الندوات، ويستمع من حين لآخر إلى برنامج ثقافي في الإذاعة والتلفزيون. ومن الواضح أن هذا النوع من الالتقاط الثقافي يذكر بالفلاَّحات الفقيرات (اللقّاطات) اللواتي يمشطن الحقول بعد الحصاد لالتقاط البقايا المنسية. إن الكتاب مازال الأداة الأولى للثقافة الجادة. والجيل الجديد في أوروبا ثائر ومعوز نسبياً (بسبب تعدد مجالاته الاستهلاكية). ولكنه غير متخلٍ عن الكتاب، بل إن الكتاب هو الوسيلة الثورية الأكثر رواجاً في صفوفه والأكثر تأثيراً.

إن ظاهرة الانصراف عن الثقافة الطوعية المتمثلة بالكتاب ذاته مسألة تربوية لها جذورها الاجتماعية والاقتصادية، وإن الارتفاع النسبي لثمن الكتاب العربي، وفقر تسهيلات الإعارة عن طريق المكتبات الجامعية والعامة، واضطرار الشبان إلى البحث عن عمل في مرحلة مبكرة من السن، كل هذه المعوقات تزيد المشكلة تفاقماً ولكنها ليست لب المشكلة أبداً؛ ومن المستحسن العمل على معالجتها بسرعة، وهي حتماً قابلة للمعالجة، ولكن يظل الوجه الأول لمشكلة الإعراض عن الثقافة تربوياً. وستبقى هذه المشكلة قائمة إذا لم يتوصل المعلمون بالذات إلى إقناع الجيل الناشئ أولاً بأن الثقافة ليست ترفاً ولا هي وسيلة رخيصة للنجاح، ولا هي عامل هامشي في تكوين شخصية الإنسان وفي بناء المجتمع، وثانياً بأن الثقافة لا تلقن ولا تحقن حقناً من الخارج وإنما تكتسب بالسعي الذاتي والممارسة المستأنية. إن الثقافة سلاح الإنسان المعاصر في سعيه لبناء نفسه من الداخل وكذلك في سعيه للتلاؤم مع الوسط وللإسهام في مؤسسات الحياة الاجتماعية من حوله، وهي بذلك وسيلة وغاية في وقت واحد.

لقد أصبحت الثقافة في عالمنا المعاصر شرطاً من شروط الممارسة المثمرة للحياة الخصبة، وبغير ثقافة لا تبنى شخصية، ولا تتحرك طبقة، ولا ينهض مجتمع، ولا يستطيع إنسان أن يحدد أين ينتمي وكيف يتصرف ومن يشرك.

إلا أنه على الرغم من كل ما يقال عن الثقافة يظل صحيحاً أن الثقافة ليست كياناً مستقلاً ولا ناطحة سحاب تزاحم أجواء السماء، إنها شكل مرهون، بمضمون محدد، وكأس يتخذ لون الماء الذي في داخله، ويحسن أن نضع في ذهننا أننا نتحدث هنا عن الثقافة التي تنبثق من واقع الجيل لتصب في بحر مستقبله المنشود. وأن مضمونها بالتالي هو مضمون حياته وطموحاته وتطلعاته.

* * *

في الثقافة والتشتت

من الظواهر التي لا تفوت المرء ملاحظتها على الساحة الثقافية العربية اليوم تشتت اهتمامات المثقف العربي وتشعبها بين أدب وثقافة ولغة وسياسة واجتماع وفن. يرافق ذلك تشتت في اهتمامات الأديب العربي بين شعر وقصة ومسرح ومقالة وبحث.

وإذا دلت هذه الظاهرة على شيء فإنما تدل على اتساع مدرج المسؤوليات التي يلقيها الواقع على كاهل المثقف العربي وتعدد المشكلات التي تطرحها الحياة من حوله وتأزمها، بحيث يجد نفسه موزعاً بينها عاجزاً عن الاستقرار على سلم أفضليات معين.

أسوأ شي في المشكلات العربية المعاصرة أنها مثل كرة الثلج، تتضخم مع مرور الأيام وكذلك مع ازدياد الأيدي التي تعالجها. إن جميع شعوب العالم المعاصر لها مشكلاتها، وظروف العالم الثالث بالذات تضع مثقفيها أمام مشكلات والتزامات مؤرقة، ولكن ما يميز المشكلات العربية أنها معلقة الحلول مستمرة التضخم، ومضطردة التفتق عن ذيول وعقد وعقابيل. كل مشكلة من مشكلاتنا هي (داحس والغبراء) تفنينا ولا نفنيها.

أتراني أبالغ؟

لنسأل..

أين نحن من القضية الأولى، قضية فلسطين؟ وهل يملك أي مثقف أو أديب عربي أن يتجاهل ما تمليه عليه هذه المشكلة من هموم والتزامات؟

أين نحن من قضية اللغة العربية؟ وهل يستطيع أي كاتب أن يحس بارتياح مع اللغة وهو يرتعد فرقاً مما يمكن أن تستحيل إليه كلماته التي

تتراوح احتمالات قراءتها تراوحاً شديداً حسب نباهة القارئ ومراسه في فك الرموز. هذا طبعاً إذا لم نتحدث عن تفاوت القرائح والعقول.

أين نحن من قضية الثقافة العربية؟ وهي اليوم ممزقة الأوصال، سريعة تبديل الأثواب، لا تستقر على اتجاه، ولا تبني صرارة فوق صرارة، تطلعاتها شعبية وإنسانية، وأنفاسها مترفة ومترفعة، ونتاجها مفعم بنية الالتزام، ونقدها منفلت لبرالي الأفق.

أين نحن من قضية التعليم؟ وقد ترامت به الحال حتى أصبحت الشهادة الجامعية جواز مرور غير ثقافي إلى مزاولة غير اختصاصية لقطاعات من النشاط لا يمكن أن تقوم إلا على الاختصاصات.

وأخيراً.. ما هي قضية أدبنا؟ وأين هو من المعركة الأدبية المعاصرة في العالم؟ ولماذا يظل هكذا يأخذ ويأخذ؟ وهل صحيح أنه قادر على العطاء العالمي ونحن المقصرون عن تقديم ثمراته إلى العالم أم أنه غير قادر ونبرته ما زالت محلية ومستعصية على الترجمة والتحويل؟

إن كثرة القضايا التي تطرحها الساحات الاجتماعية والسياسية والثقافية تشتت المرء وتتناهب اهتماماته، فما يكاد يحط على مشكلة حتى تشرئب أمامه مشكلة أخرى أقوى نداء وأفجع استغاثة وأشد إلحاحاً.

على أن التشتت بحد ذاته ليس هو العيب. إن العيب كل العيب أن يقودنا التشتت إلى التهويم، إلى ترك جانب التحليل والحذر والتحقق إلى جانب التعميم والتهويل والانسياق وراء شطحات الوهم. ولكن لنعترف أن التشتت يشكل تربة خصبة لمثل هذه المنزلقات التي تنزلق إليها الكتابة العربية اليوم.

وإزاء مسلسل الهموم الكبير هذا لنحاول أن نكون أكثر تركيزاً وأقل تشتتاً، لنحاول أن نختار منها وأن نضعها في بؤرة ضوئنا بدلاً من أن نسقط بين رحاها وثفالها. وليكن رائدنا احترام موضوعنا واحترام قارئنا، وإلا فأنى لنا أن نحترم أنفسنا؟.

تشرين الثاني ١٩٧٦

* * *

انتماء

في رواية «البذرة الضارية» تترك الكاتبة اليوغسلافية غروزدنا أوليويك لبطلتها الفتاة اللقيطة فرصة كاملة للبحث عن أبويها، وعن هويتها وعن انتمائها وعن عالمها الخاص. ومن خلال بحثها المحموم تقابل عدداً كبيراً من المرشحين لأبوتها بينهم الطبيب العجوز والسكير المدمن والعصامي الفظ... وتكتشف بالتدريج أن (انتماءها) هو المحتاج إليها أكثر مما هي محتاجة إليه. كما تكتشف أن الآباء المرشحين لا يشبهون بأي حال من الأحوال الصورة المفوفة التي رسمتها في وجدانها لأبيها المنشود... وتنتهي بعد ذلك إلى اكتشاف أكبر وهو أن العالم كله لقيط، والناس - كبارهم وصغارهم - لقطاء لا انتماء لهم ولا أساس ولا امتداد، وبذلك يصح لديها أخيراً أن الإنسان الفرد هو الذرة، ولكنه ذرة قائمة بذاتها ومنبتة ومنخلعة عن الذرات الأخرى في العالم. إن الإنسان - كما يستنتج من تهويماتها - يحيا لنفسه ويموت لنفسه ويصنع عالمه الخاص، وليس هناك من يستطيع أن يحيا عن أو يموت عنه أو يبني له عالمه. وإذن فلتكف عن البحث عن انتماء، ولتعش لذاتها منفية منبتة مستقلة.

وتبدو البطلة واثقة من الاستنتاجات التي توصلت إليها، وتقرر إيقاف المسعى وتبتر بحزم علاقتها مع رفيق دربها لأنها بكل بساطة لا تحتاج إلى رفيق. وحين تجلس بعد ذلك على درج منزل في شارع الأمير ميخائيلوفتش في بلغراد لتستمتع بانقطاعها البنيوي عن العالم تتكشف الغلالة عن عينها وترى فجأة في وجوه المارة أجزاء من وجهها كما تنظر في اتصال السماء

بالأرض واتصال الناس بالناس وتقرر أن كثيرين يرون في وجهها جزءاً من وجوههم، وعند ذاك لا يعنيها أن تكون ابنة طبيب متقاعد أو جندي ألماني مغتصب، أو عاهرة متشردة أو عصامية صلبة العريكة.. فهي بنت هذا العالم وفي داخلها يمور نداؤه ويرتفع على كل نداء آخر.. وهكذا تقرر ألا تكون وحيدة مهما ترامت بها الحال.

كل سطر في الرواية كان يؤكد تفيض هذا الاستنتاج. وكل تجاربنا في هذا العالم صعبة ومريرة، وكلما كبر الإنسان وكبرت تجاربه مع الآخرين زاد اقتناعه بالعزلة وضعف اتصاله البنيوي بالآخر. ومع ذلك من ذا الذي يقوى أن يعيش بغير الناس وبمعزل عن العالم. إن هذه الحقيقة فوق كل الفلسفة وكل الضجر وكل الاحتجاج الذي يعج به فكر العالم وأدبه. ولذلك لم تحتج العودة إليها إلى براهين كثيرة عند غروزدنا أوليويك. نعم، يعيش المرء لنفسه ولكن أين؟ في هذا العالم. نعم يموت المرء لنفسه، ولكن ما معنى الموت سوى مغادرة هذا العالم؟ نعم، يبني كل منا عالمه الخاص، ولكن من اسمنت هذا العالم ومن آجره وفوق كل ذلك من ماله وترابه.

ليت هذه الحقيقة تظل ماثلة في كل ما تكتبه.

كانون الأول ١٩٧٦

* * *

حصار الثنائيات

ذلك النقد الشفوي الذي يدور باستمرار حول الكتاب والنقاد ونتاج القرائح يؤلف تياراً سماعياً له قوة الفلكلور في سرعة تسربه إلى الذهن وفي قوة إقناعه. وفي كثير من البلاد التي تعتبر فيها القراءة والكتابة نوعاً من الفعالية الرسمية التي يفترض أن توفر نصيباً كافياً من (اللياقة) و(الشكلية) و(التهذيبية) تتضاءل قيمة ما يكتب إلى درجة تصبح معها الكتابة (بضاعة للتصدير) و(للإعلان عن التربية الرفيعة)، أما حرارة الواقع وتوهج الحقيقة والقناعة الداخلية وما إلى ذلك فإنها تترك جميعاً للأحاديث الشفوية وللتعليقات الساخرة في المجالس وللغمزات والتوريات الملغومة والهمسات الثنائية. حتى يخيل إلى المرء أن هناك مستويين من التعبير يتعايشان وفق خطين متوازيين قد يتقاربان أحياناً إلى درجة كبيرة، ولكنهما في أغلب الأحيان متباعدان جداً.

* * *

أحدهما - وهو التحريري يتعامل مع الحقيقة المخصصة للتصدير، والآخر - وهو الشفوي - يتعامل مع الحقيقة الداخلية، مع القناعات والمفهومات المتغلغلة في صميم النفوس.

ولقد وجدت هذه الظاهرة في القديم، يوم كان الفكر والأدب متصلبين بالنخبة وبثقافة الطبقات المحظوظة، ويوم كان السامع المفترض للكلام البليغ والرصين هو الخليفة أو الأمير أو المتنفذ أو ذا الشأن أو الأستاذ العلامة على الأقل.

وفي هذه الحالة كانت (اللياقة) هي المعيار الداخلي (لناسج) الكلام، وهي امتحان مقدرته ومنجاته أيضاً. وقد عرفت الأقوام السالفة من بناة الحضارات كالعرب والفرس واليونان والرومان هذه الظاهرة، وإن كان العرب واليونان - والحق يقال - قد أظهروا في عصور اليفاعة استعداداً طيباً لإلغاء الهوة بين مستويي التعبير الخارجي والداخلي.

وقد استطاع أدب القرن العشرين في كثير من المجتمعات المتقدمة أن يرفع لواء الثورة على ثنائية التعبير هذه، وجعل تحديثه الأساسي هو العمل على ضغط الهوة بين المستويين بهدف تحقيق التطابق بينهما، وقد قطع في هذا المجال شوطاً كبيراً حتى صح أن يقال أنه لا شيء في أدب القرن العشرين يشبه ما قبله.

وفي كثير من أجزاء العالم اليوم تستعار تقنيات حديثة لخدمة هذا الغرض من مثل الحوار الداخلي والذاكرة الراجعة والذاكرة القافزة والقطع السينمائي والرمز والأسطورة وغير ذلك..

ويجري الحديث كثيراً عن رصد تيار الوعي وعن التغلغل في أعماق مرحلة ما قبل الكلام وعن نبش مخبوءات اللاشعور، ولكن يظل معظم ما ينتج من أدب –وربما من نقد أيضاً- خاضعاً لمبدأ اللياقة العامة، مما يتيح للتيار السماعي أن يظل صاحب الحقيقة الداخلية ومحتكرها. وبالطبع ليس يقع اللوم هنا على الأدب بوصفه فعالية إنسانية ذات استقلال نسبي، ولكنه يقع على مرحلة من النمو الاجتماعي تنسحب فيها الثنائية على مجمل عقول الناس وتصرفاتهم وأفعالهم.

* * *

ومع ذلك فإن المرء يسمح لنفسه بأن يقول أن الفعالية الأدبية كانت دائماً متأثرة مؤثرة، بمعنى أنها وليدة الظرف الاجتماعي ونتاجه، ولكنها أيضاً عامل فاعل في خلق شرط إنساني جديد عن طريق التمهيد للتغيير المنشود

والدعوة إليه وإشعال جذوة الحماسة في نفوس الطليعة التي تندب نفسها للقيام بهذا التغيير.

وبهذا المعنى الدقيق، يمكن القول أن أهل الأدب من كتاب وشعراء ونقاد، بل أهل الفن بأنواعه، مطالبون بأن يضعوا على ساحة وعيهم ضرورة العمل بشجاعة على تضييق الهوة القائمة بين خط الحقيقة الخارجية وخط الحقيقة الداخلية بحيث تصبح العلاقة بينهما علاقة تداخل وتطابق نسبي بدلاً من أن تكون علاقة تواز وتباعد.

إن العمل على محاصرة هذه الثنائية في مجال الإنتاج الأدبي يمكن أن يكون طريقنا إلى محاصرة الثنائيات الأخرى المختلفة التي تكتنف حياتنا المعاصرة وتسبب لمسيرتها العامة شللاً وخللاً، وتسبب للسائرين انخلاعاً داخلياً وإحباطاً وعجزاً عن أعمال الطاقات الكبرى التي تمتلئ بها النفوس والتي تموت مع أصحابها في نهاية العمر وهي بعد عذراء لم تنفخ فيها ريح الحياة المقدسة.

حزيران ١٩٧٩

* * *

تقسيمات على وتر جائزة نوبل

١ - فحوى الخبر:

وردت النقاط التالية المشتركة بين وكالات الأنباء حول منح جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٧٨.

- منحت الجائزة مشاركة بين نجمي السلام: أنور السادات ومناحيم بيغن.

- رشح السادات من قبل هنري كيسنجر، وزير خارجية أميركا السابق، مع بيان معلل. وكان كيسنجر قد نال الجائزة نفسها قبل خمس سنوات تنويها من اللجنة بجهوده في إنهاء حرب فيتنام.

- لم تذع لجنة الجائزة اسم الجهة التي رشحت مناحيم بيغن.

- في بيانها حرصت اللجنة على التنكير بحلقات الصراع العربي الصهيوني ثم أشارت إلى الجهود المخلصة التي بذلت من أجل تحقيق السلام بدءاً من زيارة السادات للقدس التي أحدثت ثقباً في الحاجز النفسي الذي كان ينتصب بين الطرفين –حسب تقدير اللجنة. كما أشارت اللجنة إلى أهمية - رد الزيارة - التي قام بها بيغن إلى مصر، وأشادت باتفاق - كامب ديفيد - والجهود الكبرى التي بذلها نجما السلام بالإضافة إلى الرئيس جيمي كارتر، ثالثهما!!!

- لفت النظر في بيان اللجنة وجود - قيمة مستقبلية - غير مألوفة في البيانات السابقة.

إذ حرصت اللجنة على التأكيد على أنها بمنحها الجائزة لا تكرم ما مضى وإنما ترمي إلى تشجيع الجهود التي يبذلها - النجمان - بالإضافة إلى - ثالثهما - في سبيل إنجاز «معاهدة سلام».

٢ - عقدة جائزة «نوبل»:

ما أكثر المقالات التي كتبت في الصحف والمجلات العربية حول جائزة نوبل، حتى أنه يمكن الحديث، بشيء من المجاز، عن وجود عقدة نفسية في الصحافة العربية التقليدية هي عقدة الحرمان من جائزة نوبل. وتتصل هذه العقدة بالجائزة الأدبية التي رشح لها سابقاً كتاب مثل طه حسين وميخائيل نعيمة وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم. هناك سؤال يؤرق الصحافة العربية ولاسيما في مصر:

لماذا لا يفوز عربي بجائزة نوبل؟

٣ - جائزة نوبل للآبقين:

تدل إحصاءات منح جائزة نوبل أن أول الناس حظاً في هذه الجائزة هم صنفان من الناس:

أ - الآبقون – أو - المنشقون - أو - المدافعون عن حقوق الإنسان؟؟ أو – الهاربون - من الستار الحديدي -. أي الخارجون على شعوبهم وأوطانهم.

ب - معتنقو الديانة اليهودية أو المتقربون منها.

ملاحظة: التصنيف هنا مبني على الإحصاءات ويرجى ألا يفهم من ذكر الصنف الأول أية مناصرة للاشتراكية ولا من الصنف الثاني أية معاداة للسامية. وبالنسبة للصنف الثاني نحن نذكره مع جزيل الاحترام ولا نخلط بينه وبين الصهيونية أبداً. ورائدنا في ذلك الدقة الموضوعية النزيهة التي تتصف بها لجنة جوائز نوبل!!!

٤ - أول (عربي!!) يفوز بالجائزة:

كان على العرب أن يعرفوا منذ البدء أنه ما لم يتوافر الشرطان الأساسيان في طلبات المرشحين فإن اللجنة تعيد الطلبات إلى أصحابها أو إلى الوسطاء مع - الاعتذار الشديد -.

وعلى الرغم من أن العرب انتظروا طويلاً فإن اللجنة - حتى حين توافر الشرطان - أعطت المرشح (العربي!!!) نصف الجائزة فقط. وهناك سبب للاعتقاد أن الإشارة غير العادية إلى المستقبل تتضمن وعداً خفياً بالنصف الثاني من الجائزة إذ التزم الفائز - النصف باستكمال الشرطين الأساسيين. وأن غداً لناظره قريب.

٥ - حكاية (الشاويش) الذي أصبح ضبابطاً:

لا علاقة لهذه الحكاية الاستطرادية بما تقدم، ولكن النفس تصر على روايتها. وهي بحد ذاتها - على أي حال - طريفة.

تقول الحكاية أن - شاويشاً - في الجمرك تقدم بعد طول خدمة إلى رئيسه بطلب ترقيته إلى ضابط - وألح إلحاحاً شديداً. وأخيراً أفهمه الرئيس أنه لا يمكن أن يتجاوز - حاجز - الرتبة إلا إذا قام بعمل خارق مشهود.. وقد استبسل - الشاويش - في تفتيش المسافرين وفي ملاحقة المهربين ولكن كل تلك الأعمال اعتبرت جزءاً طبيعياً من مهماته الوظيفية.... وأخيراً تفتق ذهنه عن عملية جريئة نال على أثرها الرتبة المنشودة وكسر الحاجز. وكانت العملية من أغرب ما سمع. إذ دس - الشاويش - في حوائج أمه قطعاً من الحشيش وأوحى لها بضرورة السفر، وحين وصلت - حاجز - الجمرك اكتشف الحشيش المهرب، وأبلغ رؤساءه. وحين علم الجميع بأن - الشاويش - طبق القانون حتى على أمه أجمعوا على أن هذا العمل يعتبر خرقاً لحاجز القانون حتى على أمه أجمعوا على أن هذا العمل يعتبر خرقاً لحاجز - المألوفية - وبذلك نال - الشاويش - الترقية ومعها جائزة قيمة.

وتقول الحكاية أن الشاويش كان يحرص على تفقد أمه في السجن خلال أوقات الزيارة، لأنه كان يفرق تفريقاً شديداً بين - الحب - و - الواجب -.

تشرين الأول ١٩٧٨

* * *

الزيارة والثقافة

(١)

عشية إعلان موعد زيارة السادات إلى فلسطين المحتلة كانت لنا – أنطون مقدسي وأحمد درغام وكاتب هذه السطور - جلسة في المركز الثقافي العربي بدمشق موضوعها (الجيل والثقافة). وقد تكلمنا كثيراً وتكلم الجمهور وسأل، واسترعت انتباه الجمهور بوجه خاص مسألة التخطيط للثقافة.

ولقد تكلمت آنذاك عن ضرورة التخطيط للثقافة وعما تصورته ملامح عامة للثقافة المنشودة. وكانت نفسي تتمزق، ولم أستطع لحظة واحدة أن أنسى أن حركة واحدة من زعيم سياسي، أو تصريحاً، أو «زيارة» يمكن أن تقلب البنيان الثقافي لأي شاب أو مواطن رأساً على عقب وأن تجعل كل ما يعلمه وكل ما اختزنه من أحكام ركاماً تذروه الرياح.

وقد تأكد لي هول الأمر، من ناحية التركيب الثقافي الداخلي للمواطن وللشاب، حين بدأت أسمع وقائع هبوط الطائرة الساداتية - ولا أقول المصرية - الأولى في مطار العدو. كانت رحلة جميلة وممتعة - هكذا قال سيادة رئيس الوفد.. ماذا تبقى في ذهن أي مواطن من معنى للجمال وللمتعة إذا كان الذهاب إلى مقر العدو هكذا بدون سلاح وباستخذاء وباستجداء وبمذلة وبدون أية شروط.. أية ثقافة يمكن أن تصمد لهذا الموقف؟ وكيف يمكن أن أفسر الجمال أو المتعة لأي طالب أو شاب أو قارئ من اليوم فصاعداً.

وبالطبع هذا هو الجانب الأكثر ظلاً والأقل بروزاً من المعاني الكارثية للزيارة ولكنه مثل لابد أن يرد. ولنتصور أستاذاً في صف يطلب غداً إلى أحد

تلاميذه ممن سمعوا تصريح سيادة رئيس الوفد ورئيس ديوان سيادة صاحب الزيارة أن يضع كلمة جميلة أو ممتعة في جملة مفيدة فإذا الطالب يقول:

- كانت رحلة الوفد إلى مطار العدو جميلة وممتعة.

ولنتصور أي تمزق يصيب الطالب بعد أن يتذكر أنه منذ أن دخل المدرسة وهو يشحن بالأفكار حول العدو الصهيوني التوسعي الغاصب الذي يحتل أرضنا وينتهك حقوقنا ويتربص بنا الدوائر.

إن «الزيارة» هي انخلاع سياسي بالغ الأثر ولكنها أيضاً انخلاع ثقافي مخيف ومدمر. إنها امتحان لمتانة الثقافة الوطنية لدينا جميعاً وأي امتحان.

لنترك الرحلة التحضيرية، ولنأت إلى الرحلة الأساسية. ينزل الرئيس السادات من الطائرة فيحيي العلم الإسرائيلي برفقة مناحم بيغن. قد يقول اللبراليون: وماذا في الأمر؟ إنه تجاوز.

ولكن هل يستطيع أي لبرالي من رجال الحاشية الساداتية أن يمنع أي مواطن من المقارنة بين الصورتين التاليتين:

صورة الكولونيل الإسرائيلي عساف ياجوري قائد اللواء المدرع وهو ينحن أمام العلم المصري أيام ملحمة العبور، وصور الرئيس السادات وهو يأخذ التحية إجلالاً للعلم الإسرائيلي وفي حضرة الإرهابي مناحم بيغن؟

إن فكرة هذه المقارنة حق محفوظ لصديق لي من كبار المسؤولين أصر على أن يدخلها في بيان رسمي لأنه رأى فيها لب التمزق الذي يعيشه المواطن العربي اليوم، وأشهد أنني بعد أن سمعتها مذاعة في البيان الرسمي وجدت - كما وجد بعض من سمعها - إنها مقارنة صارخة تذكر بصيحة - وا معتصماه - في عمورية.

إن الثقافة تستند إلى قيم قومية ووطنية واجتماعية وأخلاقية، هي تكتسب ذاتياً وطوعياً وتتغلغل في الإنسان وتشكل دفة فعالة لموقفه من الأشياء والأحداث ولتصرفه في شؤون الحياة ومواسم الحرب والمسلم.

وأكبر مشكلة تواجه الثقافة ليست في تغيير المعلومات أو الاستنتاجات أو الوقائع. إن المشكلة هي في ضرب القيم التي تتكئ عليها الثقافة.

ونحن هنا في الأقطار العربية أصبحنا لا نفاجأ حين تضرب قيم الثقافة من قبل أولئك الذين ينبغي أن يكونوا حراسها وسدنتها. لكن مفاجأة - الزيارة - فاقت كل تصور وكل توقع.. إنها ضربة صاعقة كاسحة لقيم الثقافة، إنها ليست فحسب إحراجاً لأساتذة الجيل أمام جيلهم ولا إحراجاً للكبار أمام الصغار.. إنها إحراج للمرء أمام نفسه، إحراج لإدراكه ومحاكمته ومنطقه الداخلي والاختيارات الثقافية التي بنى على أساسها مقوده الداخلي.

ههنا أكثر من أية مناسبة أخرى، يجب أن يدعو الإنسان إلى تعميق قيم الثقافة القومية، وإلى التخطيط الثقافي وإلى البناء الداخلي للمواطن وللشاب وللمثقف. وإزاء ظاهرة وجود رؤساء، مثل صاحب الزيارة وصاحب ما قبلها أيضاً، يمكن أن يقدموا على أعمال وأقوال تتناقض بنسبة ٣٦٠ درجة مع ما هو منتظر ممن كان في مركزهم أو مع ما أخذوا البيعة على أساسه من قيم، نقول: علينا أن نهتم بالبناء الثقافي الداخلي للمواطن حتى يستطيع أن يصمد لتقلبات المسرح السياسي. وأنها تقلبات بهلوانية جالية للكوارث وكفيلة بتمزيق أي إنسان حتى تتساقط نفسه كسفاً وحتى يصبح منفياً في وطنه، إن لم يكن مستنداً إلى جدار متماسك من قيم الثقافة الوطنية يساعده على الاحتفاظ ببلغة من دمائه.

(٢)

إلى أين يهرب المرء من أسبوع (الزيارة) وفي كل مكان، في البيت في الشارع، في النادي، لا حديث إلا حديث (الزيارة).

قلت لنفسي: أفر إلى مخطوط رواية بعث بها إلى اتحاد الكتاب لأزورها وأعجم عودها، لعلها تقودني بعيداً عن كابوس أسبوع (الزيارة). وما هي إلا بضع صفحات حتى عدت إلى ما هربت منه، وعرفت أن لا مفر من حديث

(الزيارة).. يصف مؤلف المخطوط بدئ الخصام بين قبيلة (عنزة) العمانية وقبيلة (مرة) السعودية في أطراف الربع الخالي. قتلت الأولى شاباً من (مرة) وقتلت الثانية شاباً من (عنزة) وارتفع صوت العقل بكلمتي (سلم) و(مصالحة). وها هو المعلم (عربي من سورية) يحاول أن يسهم مع قبيلة (مرة) في جهود السلام:

«كلف شيخ القبيلة أحد الرجال بأن يذهب إلى قبيلة (عنزة) العمانية للتفاوض معهم وعقد صلح طالما أن هناك ضحيتين من القبيلتين كلتيهما قد ذهبا هدراً، وبدون سبب.. هنا تدخلت وطلبت من شيخ القبيلة أن أذهب معه، وسأكون الناطق بلسانه، وعليّ أن أقنعهم بالكلام المعقول.. وافق الشيخ.. وبعد أن امتطينا حصانينا توجهنا نحو القبيلة المذكورة.. بعد سير نصف نهار تقريباً وصلنا عقر دارهم، نزلنا في خيمة شيخ قبيلتهم، وبعد أن حدثناه الكلام المعقول، أطرق رأسه نحو الأرض مفكراً، وعندما رفع رأسه ليتكلم.. صاح به ابنه الأكبر قائلاً:

- أنسيت اتفافك يا والدي؟

أجبته قائلاً:

- و أي اتفاق؟!

أجابني بلهجة شديدة!

- ليس من شأنكم معرفة ذلك.

صمت شيخ القبيلة برهة من الزمن ثم أردف قائلاً:

- بلغا شيخ قبيلتكم أن يرحل عن الأراضي التي أنتم فيها.

قاطعته قائلاً:

- وإذا لم يرحلوا، ماذا تفعلون؟؟

- سوف نرحلكم بالقوة، أو نقضي عليكم.

- ذلك يكلفكم الكثير، واعلموا أنكم أخوة في العروبة.

- هذا قراري الأخير، وليس لدي قرار آخر.

بعد وقوفنا على الحقيقة، عدنا أدراجنا لنخبر القبيلة بأن تكون حذرة من غدر الطغاة الظالمين».

(انتهى مقطع الروية بلسان المعلم والأغلاط اللغوية على مسؤوليته)

كل شيء هنا يرد الإنسان إلى جو (الزيارة) ومعناها. هل يحتاج الأمر إلى شرح.

- الصراع التاريخي الوجودي الحضاري القومي العسكري السياسي استحال إلى (شجار) بين عشيرتين. ومعلم المدرسة (الراوي) هنا يأخذ الصراع بين (عنزة) و(مرة) بجدية تفوق جدية صاحب الزيارة.

- التشديد على (الكلام المعقول) هنا واضح. فليس بالكلام المعقول تحل الخلافات التاريخية ولاسيما بين المعتدي والمعتدى عليه، ومتى كانت المسألة مسألة إقناع ونوايا طيبة؟

- و(الاتفاق) هنا، كما في الزيارة، هو الأصل، وحين يكون الإنسان مرتبطاً باتفاق فلن يجدي معه كلام معقول أو غير معقول.

- وحين يكون مبدأ الطرف الآخر: «سوف نرحلكم بالقوة أو نقضي عليكم» فهل ينفع معه عناق أو لهفة أو تودد أو طهارة أو براءة أو حتى استسلام؟

على أن هناك فروقاً واضحة بين زيارة (الرواية) وبين زيارة (الأضحى). ففي زيارة (الرواية) أن شيخ القبيلة لا يذهب بنفسه بل يرسل المعلم لكي يتكلم (الكلام المعقول). ذلك أن الرؤساء لا ينخزلون إلى أعدائهم، وقد وضعوا الأكفان فوق أجسامهم حتى بين القبائل والعشائر.

وفي زيارة (الرواية) يحاول المعلم أن يتوصل إلى السلام، ولكنه لا يطيل الكلام لئلا يصبح الكلام حواراً، والحوار هو الشيء الذي يعرف الناس

متى يبدأ ولا يعرفون متى ينتهي. إن معلم المدرسة يفهم بسرعة، وعلى الرغم من أن موقفه صعب فهو يفضل أن يريق دمه وحده بدلاً من أن يريق ماء وجهه أولاً ثم يريق دم قبيلته بعد ذلك.

وفي زيارة (الرواية) خاتمة ذات مغزى: «عدنا أدراجنا لنخبر القبيلة بأن تكون حذرة من غدر الطغاة الظالمين».

وفي زيارة (الأضحى) عاد الزائر والجوقة ليغرقوا القبيلة في التطبيل والتزمير حتى تغطي على صوت الحراب التي سنها العدو لتكون مكافأة الزيارة.

وهناك خواطر كثيرة يمكن أن تخطر للإنسان من خلال المقارنة بين (الزيارتين)، ولكن بالتأكيد لو كان الحكم لأحد منظري (الفن للفن) لفضل زيارة (الأضحى) ألف مرة على زيارة الرواية. ففي الرواية يحاول المؤلف أن يسخر (الزيارة) لصالح الواقع، وهو خطأ قاتل في الفن، أما زيارة الأضحى فهي محاولة صارخة لتسخير الواقع لصالح الفن، إنها بدع جديد متجاوز التراجيديا والكوميديا والملحمة ناهيك عن القصيدة الغنائية ومقطعات السوناتا ورباعيات الخيام.

هناك سابقة واحدة قبلها في التاريخ الواقعي الفني، وهي إحراق روما. ولكن نيرون اكتفى بالمتعة الحسية، أما صاحب الزيارة فقد أحرق قضية بأكملها حسياً ومعنوياً، وفعلته أرفع بدرجات. وإذا كان أصدقاؤه يرشحونه لجائزة نوبل للسلام فلماذا لا نرشحه لجائزة نوبل للأدب والفن. ولعله يفضل جائزة (بولتزر) لأنها مباركة من بلاد (العم سام).

تشرين الثاني ١٩٧٧

* * *

ميرتشا ناديا

ميرتشا أنجليسكو أديب وباحث روماني، يذكر حياؤه وتواضعه بالقيم العلمية الخالدة التي بدونها لم تقم للعلم والفكر قائمة في أية مرحلة من مراحل التاريخ، والتي عرفها العرب وقدسوها وكان لهم في ممارستها أمثلة تستحق الإعجاب.

قال أنجليسكو أنه سعيد جداً بزيارة سورية، وومضت عيناه ببريق الصدق والمحبة، وقال إنه خصص أيامه ولياليه لدراسة البلاد العربية أدباً ولغة وتاريخاً وحضارة، وأنه دائماً متشوق لرؤية البلاد العربية والتفاعل مع إنسانها والتباحث مع علمائها.

وقلت للضيف الروماني:

كيف تستطيع أن تجمع بين الاهتمامات الأدبية والبحثية وبين مهمتك الإدارية بوصفك أميناً عاماً للرابطة الرومانية للدراسات الاستشراقية ورئيس تحرير مجلة رومانو - أرابكا وأستاذاً في الجامعة وغير ذلك.

وقال بخجل:

إنه التكريس، وأضاف أن حقل الاستشراق هو من حقول المعرفة التي لا يستطيع الإنسان أن يصب على مشاقها إلا إذا كان لديه ولع خاص بالمادة التي يعالجها.

وبدا من كلام أنجليسكو أنه مدرك تماماً لما هو عليه حقل الاستشراق من اتساع ووعورة وتداخل وتعدد وإيغال في الماضي. وبدا تماماً أنه هيأ

نفسه للرحلة الشاقة وأنه لا يتردد ولا يتوقع أن يجزئ جزءاً مباشراً وسخياً لقاء ما يقدمه من بحث واكتشاف.

وقال لي اجليسكو أنه ينوي المشاركة في المؤتمر التاسع للرابطة الدولية للأدب المقارن - النمسا٠ - آب ١٩٧٩، ويهيء بحثاً عن الأدب العربي الروماني في نهاية القرن التاسع عشر وطبيعة المؤثرات الخارجية التي ولدته، وتمنيت لو أن أنجليسكو، بفضل معرفته لآداب أوربة الشرقية، يضيف جديداً على ما كتب عن المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي عند بدء النهضة الحديثة.

ولم يتح لي أن أتحدث مع الضيف الأريب حول كتابه الجميل: «الأدب الروماني والشرق» الذي ظهر عام ١٩٧٦ عن دار (منيرفا) في بخارست وتضمن تتبعاً للعلاقات الثقافية والأدبية بين رومانيا وبلاد الشرق خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وفي هذا الكتاب الذي هو الأول من نوعه في رومانيا يثبت الباحث الروماني أن الأدباء الرومانيين من شعراء وقصصيين وكتاب رحلات لم يكونوا أقل من أقرانهم الأوربيين اهتماماً بالشرق وآدابه وحكاياته خلال القرون التي تلت عصر النهضة الأوربية، وأن هذا الاتصال أسهم في إنتاج أعمال أدبية جميلة ذات نكهة خاصة مثل كتابات: ميخائيل كونمالنيتشانو، وفاسيلي أليكساندري، وديميتري بولينتينيانو، واليكساندرو كريستوفي، واميل كوبولتشيسكو، وغريغوري غرانديا، وكونستانتين روستي، وميخائيل ايمينسكو، وكثيرين غيرهم.

* * *

وخلال اللقاء القصير مع انجليسكو كان اسم زوجته الباحثة ناديا انجليسكو يتردد باستمرار. إن ناديا هي رئيسة قسم اللغة العربية في جامعة بخارست، وقد زارت سورية قبل ثلاث سنوات وتركت أجمل انطباع في

نفوس الذين قابلوها. كما خلفت الزيارة في نفسها ذكريات جميلة جداً حرص ميرتشا على تكرار التأكيد عليها وفي ذلك الحين كان الامتحان الأكبر أمام ناديا هو التحدث باللغة العربية أمام جمهور عربي، وقد اجتازت الامتحان بشجاعة. أما ميرتشا فقد أسرّ إلي أنه لا ينوي دخول هذا الامتحان.

وقد سمعت منه كلمات عربية قليلة، وفهمت أنه يكتب أبحاثه بالرومانية وأحياناً بالفرنسية أو الإنكليزية، ولكنها تنشر بعد إعادة صياغتها.

إن ميرتشا وناديا أنجليسكو ليسا مجرد باحثين مهمتين بالآداب العربية، إنهما نموذج للتعاضد الزوجي والانقطاع للبحث والتعلق بالمادة المدروسة والانفتاح الفكري والإنساني.

كانون الأول ١٩٧٨

* * *

لغتنا الجميلة ومسؤولياتها

اللغة، بمعناها القومي، هي رمز الهوية ورمز الحياة ومؤشر المستقبل وعنوان الثقافة الأصيلة.

واللغة، بمعناها العلمي، ليست مجرد أداة للقول أو كساء للفكرة أو وسيلة للتعبير، بل هي أداة تلقي المعرفة وأداة التفكير ورمزه وتجسيده. إنها الفكر نفسه في حالة العمل، إذ لا وجود لفكر مجرد بغير رموز لغوية، وهكذا بقدر ما تكون اللغة دقيقة وحية ومنظمة يكون التفكير دقيقاً وحياً ومنظماً.

هذا هو معنى اللغة بوجه عام، أما بالنسبة للغتنا العربية فإن هذا المعنى يتخذ أبعاداً شديدة التعقيد والتداخل لأن العربية في عصرنا تحمل هموماً كثيرة بالإضافة إلى همها الخاص في التعامل مع الحياة والتكيف مع تطوراتها.

فهناك أولاً **الهمّ القومي الكبير** الذي يرتب على اللغة العربية مسؤوليات جساماً ربما لا تعرفها لغات أخرى كثيرة في العالم. وأبرز هذه المسؤوليات النبيلة أن تظل اللغة العربية عامل توحيد وتقريب وتفاهم مشترك في ظل واقع التجزئة الذي تعاني منه الأمة العربية. ويظل صحيحاً أن أكبر انتصار حققه العرب ضد التجزئة هو التمسك باللغة العربية وما يتبع ذلك من تمسك بالأدب العربي وبالفكر العربي، ولكن يظل صحيحاً أيضاً أن اللغة العربية تعاني في كل قطر عربي أنواعاً مختلفة من المعاناة وتتعرض لأشكال مختلفة من التجارب السلبية بعضها غير مقصود والكثير منها مقصود.

وفي هذا المجال يجب أن يسجل المرء للقطر العربي السوري دوره البارز، لا في رعاية العربية محلياً فحسب، بل في رعايتها على المستوى القومي، وفي تقديم كل دعم ممكن لمعركة التعريب في أقطار المغرب العربي بوجه خاص. وقد أصبح معروفاً في جميع الأوساط المعنية باللغة العربية أن سورية هي التي تقود معركة التعريب، وأنها ليست السابقة زمنياً إلى قيادة المعركة الصعبة بل هي السابقة فضلاً وفعالية وحماسة وتضحية.

وهناك ثانياً **الهمّ الاجتماعي**:

فاللغة العربية مطالبة بأن تخدم الحاجات اليومية والدنيوية وكذلك الرفيعة والبديعية لشعب عربي ممتد على مدى قارتين كبيرتين، تتفاوت درجة التمدن بين أجزائه تفاوتاً كبيراً حتى يمكن قياس المسافة الزمنية أحياناً بين مجتمع البادية مثلاً ومجتمع الحاضرة ببضع مئات من السنين، كما تتفاوت تفاوتاً شديداً حظوظ العلم والرزق بين أبنائه، حتى يمكن القول أن السلم الطبقي للمجتمع العربي يمثل كل أشكال الفوارق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعرفها المجتمعات المعاصرة.

إن تلبية الحاجات اللغوية، النظرية والعملية، لمثل هذا المجتمع المتباين عسيرة وشاقة ولكنها - بالجهد والتنظيم والعلم - ممكنة وغير مستحيلة.

وهناك ثالثاً **الهم الثقافي**:

ذلك أنه بالإضافة إلى مشكلة التباين الثقافي - الاجتماعي في البلاد العربية، هناك مشكلة التباين القطري التي نجمت عن خضوع الأقطار العربية لفترات الظلم الاستعماري في أزمنة متفاوتة وتحت وطأة أنظمة ثقافية أوربية متباينة. ولقد حاول المستعمرون دائماً القضاء على اللغة العربية لأنهم وجدوا فيها الحصن الحصين ضد غزوهم الثقافي. ولقد أخفقوا في ذلك

ولكنهم استطاعوا أن يخلقوا نوعاً من التباين الثقافي بين كل قطر عربي وآخر ولاسيما بين مشرق الوطن العربي ومغربه. وتعاني اللغة العربية اليوم كثيراً من آثار هذا التباين. وفي المجال الثقافي تبرز أيضاً مشكلة الموقف الثقافي المنشود في أمتنا العربية التي تعتبر من أكثر الأمم اعتزازاً واعتداداً بتاريخها وتراثها وكذلك من أكثر الأمم تفتحاً وتشوقاً للاندماج في حضارة العالم المعاصر والإسهام فيها. وهذا يتطلب إقامة توازن لغوي خلاق بين الولاء للماضي العريق والالتزام بالحاضر المبشر بالإمكانات الزاهية.

ولن يفيدنا كثيراً ولن يفيد قضية لغتنا أن نكون أبناء ماضينا على حساب عصرنا. ولا أن نكون أبناء عصرنا على حساب ماضينا.

* * *

وهكذا نرى أن اللغة العربية تحمل مسؤوليات مزدوجة ومتداخلة. فعليها من جهة أن تتصدى للمسؤوليات القومية والاجتماعية والثقافية، وعليها من جهة أخرى أن تطور نفسها من الداخل وأن تكيف نفسها لمواجهة متطلبات العصر، وأن تكون اللغة الفعالة المرنة للجماهير العربية، لا لغة النخبة من المثقفين المترفعين، ولا اللغة المعزولة التي تعلم في المدارس من أجل النجاح في الامتحان.

وإن ما نراه من تدني مستوى اللغة العربية في مختلف مراحل التعليم ليس ناجماً فقط عن وجود مشكلة تربوية تعليمية، أو عن عدم التشدد في امتحان اللغة العربية أو غير ذلك. إنه ناجم في الأساس عن تعقد المشكلات التي تواجه اللغة العربية اليوم وعن ضخامة المسؤوليات. ويرتب علينا هذا الإدراك أن نواجه المسألة بعقل مفتوح وبتحليل علمي وأن ندعم لغتنا بالدراسات اللغوية الحديثة وأن نتجه إليها اتجاهاً قومياً بقلب واحد حادب

عليها متفهم لمشكلتها بحيث لا يتناولها كل قطر على حدة وكل فرد على حدة وكل مؤسسة على حدة.

* * *

ولابأس بأن نتغنى باللغة العربية، ولابأس بأن نشيد بعظمتها، ولابأس بأن نشبب بها على نحو ما يشبب العاشق بمعشوقة، فهي معشوق جميل فتان والحق يقال. ولكن المطلوب، إلى جانب ذلك، أن نحاول تفهم مشكلاتنا اللغوية وأن نعالجها بجرأة وموضوعية وثقة بالنفس حتى تصبح لغتنا العربية الغنية العريقة اللغة الحية لجماهير مجتمعنا العربي الموحد الذي تتطلع إليه بوصفه أمل حياتنا وضمانة مستقبلنا والمستنبت الخصب لازدهار لغتنا ولغة أجدادنا المدعين.

نيسان ١٩٨٠

* * *

لغويات

حزنت لمقابلتين أدبيتين مستفيضتين سمعتهما في أسبوع واحد، واحدة في الإذاعة (برنامج اتحاد الكتاب) وواحدة في الإذاعة المرئية: الأولى مع ناقد أدبي والثانية مع قاصة ودارسة أدبية، وكلاهما يتمتعان بشخصية أدبية متميزة...

حزنت لأن الأديبين كليهما جازفا بإفقاد المقابلتين نصف قيمتيهما على الأقل، وذلك لإصرارهما على التحدث بعامية مغرقة في بعدها عن اللغة الأدبية، وقد بدا الشرح القيّم للصورة الشعرية عند ت.س. إليوت منقوصاً وأقل قدرة على الإيصال من خلال العامية العميقة. كذلك بدت أفكار العدالة في النقد وتحليلات عبقرية تشيخوف مثل الوجه الجميل في الأسمال البالية.

أطرف ما في الأمر أن المذيعين في الحالتين كلتيهما كانا يوجهان الأسئلة بالعربية الفصيحة ويتمسكان بأهدابها ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً، أنهما لم ينتبها إلى محاولات المذيعين لجرهما إلى الحديث بالفصحى، وما من شك أن الفصحى لا تستعصي على لسانيهما... وحين اتصلت بمن هو مسؤول في الإذاعة عن مثل هذه الأمور تبادر إلى ذهنه فوراً أن المذيع هو الملوم - جرياً على العادة - وشرع في الاعتذار. ولما اتضح له الأمر ارتفعت رنة صوته ولم يخف علي ابتهاجه.

أسوق هذه الملاحظة لا معرضاً ولا غامزاً ولا لائماً، ولكن معرباً عن رأي مستمع من بين مئات أو آلاف أو عشرات آلاف المستمعين!. كان هناك نشاز في المقابلتين لا لأن الفصحى زينة وتاج على رأس متكلمها (وأجمل بها

من تاج)، ولكن لأنه لكل مقام مقال، ولكل فكرة دقيقة مصطلح، ولكل مستوى من الكلام مستوى من التعبير، وأنه لصالح الأفكار التي تطرح المقابلة، ولصالح الرؤوس التي تتلقاها، ولصالح الحاسة الجمالية لدى الطرفين، وكذلك لصالح قضيتنا القومية - ربما فوق كل شيء - يحسن بنا الالتزام دون هوادة باللسان العربي المبين الذي نكتب به ونفكر به ولابد لنا من أن نعود أنفسنا التكلم به، على الأقل حين يسعف المقام.

والمسألة بعد ليست مسألة فصحى وعامية، إنها مسألة الانسجام بين مستوى التفكير وفعالية التعبير. وحتى في البلدان التي تعانى من الازدواجية بين اللغة الأدبية واللغة اليومية يلاحظ تماماً الفارق اللغوي الكبير بين مقابلة تتعلق بشؤون الثقافة ومقابلة تتعلق بشؤون الحياة العملية. وفي البلدان التي تقدم أقنية متعددة للإذاعة المرئية هناك فروق حتى في لغة تقديم البرامج (لغات خاصة) لقطاعات النشاط الإنساني المتنوعة. فلماذا نحرم النشاط الأدبي بالذات لغته الخاصة (وهذا أضعف الإيمان طبعاً)؟.

تشرين الثاني ١٩٧٧

* * *

القسم الرابع

الماضي في منظور الحاضر

- مسائل تراثية
- مشكلة إحياء التراث
- دعوة إلى الانتقاء
- التراث للجميع
- مفاتيح الماضي.

مسائل تراثية

لا يجوز أن تبقى مسألة التراث نهباً موزعاً بين وجهتي نظر بسيطتين ومفرطتين في الحماسة.

تفيد الأولى بأن كل ما قاله الأقدمون أو كتبوه أو فكروه أو تخلوه أو فعلوه هو (تراث) مقدس لا يأتيه الباطل من خلف أو من بين يدين، وتفيد الثانية بأن ما فات مات وأن (مخلفات) الماضي لا تصلح للحاضر وأن لكل زمن قوانينه وأفكاره وأذواقه وطرز حياته، وأن الارتباط بالماضي افتئات على الحاضر وعرقلة لبناء المستقبل، وهي وجهة نظر غير بريئة دائماً وغير محصنة أمام الشبهات والمآرب الهجينة والأغراض الخفية.

إن قضية التراث أشدّ تعقيداً وأكثر تداخلاً من أن يحلها موقف حاد متعصب.. ثم إن المسائل التي تتفرع عنها تكون عادة مصحوبة بالحدة والاتهام والتشدد مما يشكل كارثة على الناس وكارثة على القضية نفسها التي من أجل سواد عينيها يتخذ الموقف الحاد.

وفيما يتعلق بقضية التراث نفسها يمكن القول أن وجود التراث أو عدمه من حيث المبدأ ليس مسألة إرادية أو رغبية وإن كان مدى هذا الوجود وأهميته وتوظيفه خاضعاً لاعتبارات إرادية أو تخطيطية. ذلك أن التراث هو امتداد الماضي في نفوسنا وعقولنا وعاداتنا، والحياة دوام لا يقبل الانقطاع ولا البتر، والتراث موجود دائماً بشكل أو بآخر، وأية عملية لإحياء التراث ليست في الحقيقة إحياء لما هو (ميت)، ولكنها تصحيح لطبيعة الارتباط وتقرّ من التراث بشكله الصحيح وينابيعه الصافية، وتقويم لمعناه ومفهوماته وإنعاش لتذوقه واستيعابه. وهي بالتالي وسيلة لتحويل عناصر التراث من زمن إلى

زمن، بحيث تتفاعل مع الحاضر لتسهم معه في صنع المستقبل وفقاً لدى ما تحمله من طاقة وحيوية وجدوى.

ومن هنا كان غير وارد وغير حقيقي وغير قابل للتطبيق حلم يوليوس قيصر الذي أسند إليه جورج برنارد شو (جريمة) إحراق مكتبة الإسكندرية العظيمة (دافعاً بذلك عن العرب هذه التهمة التي ألحقت بهم افتراء وظلماً). ويصف لنا برنارد شو في أحد مشاهد مسرحية (أنطونيو وكليوباترا) يوليوس قيصر وهو يتلذذ بالتفرج على ألسنة النار المندلعة من حطام المكتبة وقد انبرى له المؤرخ هيرودوت يعاتبه. يقول المؤرخ:

- ذاك الذي يحترق هو ذاكرة الإنسانية.

ويجيب القائد المتغطرس:

- ذاكرة مخجلة. فلتحترق.

ويقول المؤرخ مستنكراً:

- أوَ تريد أن تدك الماضي؟!

ويجيب القائد متأكداً:

- نعم! لأبني الحاضر على أنقاضه.

وكذلك ليس حقيقياً ولا قابلاً للتطبيق ولا منطقياً الكلام على التراث بصيغة التقديس المطلق التي تصل إلى درجة عبادة الماضي واعتباره غير قابل للنقاش، ولاسيما حين تتذكر أن كثيراً مما تقع عليه أيدينا من التراث كان عرضة للنقاش في عصره وكان موضع نظر واختلفت فيه مذاهب القول. وإذا كان قيصر (برناردشو) يمثل أقصى حالات التطرف المضادة للتراث فإن ردیارد كبلنغ - وهو إنكليزي آخر معاصر لشو - يمثل أقصى حالات التعصب للتراث، فالماضي عظيم ومسلم به عنده، ولكنه يريد للأجيال أن تضيف إلى التراث (ماضيها) الخاص الذي يحمل براءته وقدسيته من عصر إلى عصر حتى قبل أن يصبح تراثاً:

يا رب السموات الذي يحبنا جميعاً

أستجب لدعاء أبنائك إذ يدعون

أن توفقهم لبناء تراث يمضي غير مدنس

من عصر إلى عصر.

وليس هذا التناقض الحاد في موقفين من التراث حكراً على الإنكليز أو غيرهم من الأمم. فالمناقشات التراثية ساخنة جداً وذات جوانب متعددة. وتكتسب في البلاد العربية بالذات حدة مرهفة ونكهة خاصة بسبب ارتباطها بعوامل كثيرة مذهبية وقومية وتاريخية.

* * *

وعوداً على بدء، لنقل أن المواقف الحادة من التراث سلباً أو إيجاباً لا تفيد قوماً ولا فرداً ولا قضية، وأن حلّ مسألة الخلاف حول التراث قد يكون في المباشرة بمناقشة للمسائل التراثية النوعية المختلفة من شأنها أن تزيد صورة التراث وضوحاً وملموسية وبالتالي تساعد على تحديد طبيعة الموقف المنشود منه وتحديد منهج إحيائه وسلم أولوياته.

ومن المسائل الأولى التي لابد من التصدي لها مسألة البعد الزمني للتراث: متى يبدأ التراث ومتى ينتهي لدى كل جيل ولدى كل أمة في مرحلة معينة من مراحل عمرها. وحتى إذا تمَّ الاتفاق على ذلك ينبغي أن يتبعه نوع من التحديد لما يمكن أن يعتبر تراثاً ولما لا يمكن. وليس من الحكمة اعتبار الدعوة إلى هذا التحديد هرطقة أو إلغاؤها بجرة قلم. ذلك أن الغموض في هذا المفهوم هو الذي يجرّ أناساً كثيرين لاتخاذ مواقف مضادة غير متبصرة من التراث نتيجة لتداخل عناصر المفهوم.

ومن المسائل الشائكة في قضية التراث مسألة تحديد مكانته في الحاضر. وقد ثارت في حياة الأمم المعاصرة مناقشات كثيرة حول هذه النقطة، وكانت أقوى الحجج التي قدمت لصالح إحلال التراث مكان الصدارة من التنشئة الفكرية والفنية للأمة هي حجة الحفاظ على الهوية في عالم تختلط

فيه الثقافات والأزياء وطراز العيش والأفكار. وكانت أقوى الحجج التي قدمت مقابلها هي حجة الاهتمام بالحاضر حتى تستطيع الأمة أن تصمد لتيارات المنافسة الحياتية من اقتصادية وسياسية وعسكرية وأن تدخل العصر بمنطق العصر. وتتبع ذلك بالطبع مسألة الهدفية، أي تحديد الهدف الذي من أجله يتم إحياء التراث: هل هو الهدف القومي النبيل؟ أم هو الهدف المذهبي العريق؟ أم هو الهدف النفعي العملي أم غير ذلك؟.

ويقود ذلك بالطبع إلى قضية الانتقاء ومعاييره، وسواء كان المرء مع الانتقاء نظرياً أو لم يكن - وأغلب الناس ليسوا معه - فإنه لابد لدى تناول التراث من الاستئناس أو التقيد بسلم من الأولويات من شأنه أن يجعل عملية الإحياء ممكنة أو لا وقادرة ثانية على أن تنتقل من عملية (إحياء) إلى عملية (استيعاب). ذلك أنه لن يكون من باب (إحياء) التراث في شيء أن يتغير شكل كتبه مثلاً من مخطوط إلى مطبوع، أو أن يتخذ زينة للمجالس والقصور، وإنما يكون (الإحياء) الحقيقي للتراث في إقبال الناس على الاتصال به حتى يصبح جزءاً فاعلاً من وجدانهم أو تركيبهم العقلي.

* * *

وبعد، فما أكثر المسائل التي تنبثق من قضية التراث والتي تحتاج إلى مناخ من المناقشة الحرة المتبصرة. ونحن العرب ليس لدينا ما نخشاه في هذا الصدد، وبسبب مميزات كثيرة أهمها اتصال حاضرنا بماضينا وتآلف طبيعة تراثنا وانسجامه الداخلي، وعظمة ماضينا وطابعه الإنساني ومكانته العالمية الكبرى في تاريخ الحضارات، وإجماعنا على أن نكون (أنفسنا) وأبناء تراثنا.. بسبب هذه العوامل وعوامل أخرى كثيرة من جنسها، يمكن أن نكون مرشحين لأن نجعل من تجربتنا في التقرب من التراث نموذجاً يحتذى بين شعوب العالم المعاصرة التي تتنازعها عوامل (التقليد) و(المعاصرة) و(الهوية) و(الانفتاح الإنساني)... وأن في تراثنا ذاته من المقومات ما يمكن أن يسهم في إنقاذ الإنسانية من هذه البلبلة.

* * *

مشكلة إحياء التراث

هناك إجماع عام لدى الأكاديميين والمثقفين والجمهور على أن الاهتمام بالتراث مسألة بدهية لا تحتاج إلى نقاش. وتظهر المناسبات التي تعقد من أجل إحياء التراث والكلمات التي تقال والأبحاث التي تلقى على وجود اقتناع شامل صميمي بأن التصاقنا بثقافتنا وعروبتنا كان دائماً حبل الأمان الذي عصمنا في وجه التيارات الثقافية والسياسية التي يتعرض لها باستمرار وطننا العربي بسبب موقعه الجغرافي وأهميته الإستراتيجية والحضارية.

غير أن المسألة ليست بهذه البساطة. وهي تطرح أموراً ذات أهمية يجدر بنا معالجتها في سبيل التوصل إلى وضع سياسة عامة لإحياء التراث وتمثله وتوظيفه لصالح معركة الحياة المعاصرة التي يخوضها وطننا العربي.

إن الاحتفال بأبي الفداء والبيروني وبالجاحظ وبابن سينا وبالمعري وبالمتنبي وبابن رشد وبالفارابي وسائر الأعلام المتألقين في موكب حضارتنا البهي هو واجب تجاه ماضينا كما هو واجب تجاه حاضرنا. ولكن بأي معنى أو من خلال أية مفاهيم؟ ولأجل أية أهداف عامة؟

وماذا يخص جمهور القراء من كل ذلك؟ أننا لسنا وراء البحث المحايد فحسب، والاحتفال أصلاً بأعلام التراث ومناسباته على ملأ من الناس وتحت أضواء وسائل الإعلام، معناه الخروج من رطوبة أروقة البحث وبرودة رخام المخابر إلى الهواء الطلق والشمس والناس والحياة. إنّ أخشى ما يخشاه المرء

أن يظل هذا العمل المبارك من الاحتفال بأعلام حضارتنا في حدود قيمه الظاهرية العامة.

ولقد آن لنا أن نثير مسألة الماضي والتراث بعقل متفتح وواع لما يريد. والمسألة ليست بسيطة على الإطلاق، ولاسيما بالنسبة لأمة كأمتنا العربية تعيش مرحلة تفتح وإقبال إيجابي على الإسهام في حضارة العالم المعاصر وتستند في الوقت نفسه إلى تراث خصب وحي ومتصل بالحاضر. إنه لا يكفي أن نردد أمام أجيالنا بأننا يجب أن نقتدي بالسلف الصالح وأن نفعل كما فعل آباؤنا وأجدادنا.

المسألة أعقد من ذلك. إن الأميركيين مثلاً - وهم الذين لا يستندون إلى ما يمكن أن يسمى تراثاً خاصاً - واجهوا هذه المشكلة حين بدؤوا يعون ذاتهم في القرن الماضي وأوائل هذا القرن. كان الشاعر والت ويتمان مثلاً يدعو إلى فن جديد مستقى من الروح الأميركية الجديدة لا من التراث القديم. ومن قبله كان ويليام بليك يقول: «لن نحتاج أياً من النماذج اليونانية واللاتينية إذا استطعنا أن نكون صادقين مع تخيلاتنا الخاصة». وبالمقابل انبرى شعراء مثلا إزرا باوند لتفنيد الحضارة الحديثة ونعيها لصالح أمجاد السلف والعصور الذهبية الغابرة. وبين هذين التيارين كان هناك تيار يشعر بالتوزع بين الماضي والحاضر. فناثانيال هوثورن مثلاً تحدث عن ضغط الحياة الحديثة ولكنه كان يلوم نفسه لانصرافه عنها إلى العصور القديمة بدلاً من تسليط أنوار الفكر الكاشفة لطبيعتها.

إن قضية التراث ليست مشكلة مصطنعة. بل هي قضية أساسية وواردة في معركتنا الراهنة من أجل إثبات الوجود والاتهام في حضارة العصر. ومثلما نقول بملء فمنا: مزيداً من إحياء التراث، مزيداً من الاحتفال بأعلامنا، مزيداً من تحقيق كنوزنا القديمة ونشرها، مثلما نقول ذلك علينا أن نقول: مزيداً من فهم التراث، مزيداً من تحليل التراث، مزيداً من توظيف التراث في بناء حياتنا الحاضرة.

وإنه ليس من الإنصاف في شيء أن ينكر الإنسان تلك الجهود الطيبة التي قام بها أفراد أو مؤسسات في هذا المجال. ولكنه من الواجب أن نقول: أن الحاجة ملحة لتطوير هذه الجهود والانتقال بها من المستوى القطري إلى المستوى القومي، وأن أقطارنا العربية لتحفل بالمؤسسات والجهات التي تجعل من قضية التراث همها الأول أو واحداً من همومها. فلماذا لا تتآزر جهود هذه المؤسسات لوضع سياسة عربية مشتركة لإحياء كنوز التراث العربي وتحليلها وتوظيفها؟.

إننا بذلك، وربما بذلك وحده، نستطيع أن نثبت أننا أوفياء لأولئك المبدعين الذين نحتفل بهم وقادرون على إكمال الشوط الذي قطعوا منه مسافة معتبرة ومازالت أمامنا منه مسافات ومسافات.

ونحن إذ ندعو إلى وضع سياسة عربية مشتركة لمسألة إحياء التراث وتوظيفه نحب أن نشير بوجه خاص إلى مسؤولية الهيئات الثقافية التي تعمل على المستوى القومي وفي مقدمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي بدأت خطوات في هذا المجال لا يمكن أن تعتبر كافية ويجب أن تردف بجهود متصلة حتى تبلغ غايتها.

إن مهمة إحياء التراث لا يمكن أن تكون عشوائية ولا فردية ولا قطرية. إنها مهمة قومية عاجلة لا يمكنها أن تؤتي أكلها إلا إذا استندت إلى سياسة واضحة وهادفة.

* * *

دعوة إلى الانتقاء

منذ زمن يعن لي أن أقترح فتح حوار حول كتب الأقدمين التي اكتسبت قدسية خاصة في نظر الكثيرين لمجرد أنها وضعت خطأ أو صواباً تحت اسم التراث.

لكن المرء، الذي يتعظ بما يجري على أرض الواقع، لابد من أن يفكر خمسين مرة قبل أن يقرر الدخول في مثل هذه التجربة غير الحكيمة. وكما في كل الأمور هناك سبب خاص وسبب عام من وراء الحذر.

السبب العام: هو الخوف من أن يتحول الحوار إلى شجار.. وفي كتاباتنا وصحافتنا وحياتنا البيتية ووظيفتنا وعلاقاتنا الاجتماعية هناك دائماً هذه الظاهرة الصارخة. كل حوار مآله إلى شجار. حتى يكاد المصطلحان يتطابقان. والأمثلة كثيرة ووفيرة. لكن أغربها أن المرء أصبح يستغرب إذا حدث أن حاور أحداً فردّ عليه الآخر بالحجة لا بالعصا. ولم لا؟ فقد أثبتت العصا أنها أفضل وسيلة للإقناع. وقديماً كانت العصا لمن عصى أما الآن فلا يشترط أن يعصي من يستحقها، والعلاقة بعد بين العصا والحجة واضحة تماماً، ولعلها كانت قائمة دائماً في العقل الجمعي اللاواعي الذي أبدع لغتنا العربية الجميلة فكان منها أن العبد (يقرع) بالعصا، وأن الحجة كذلك (تقرع) بالحجة. ولا نريد أن نذهب بعيداً مع مصطلحات مثل: أسكته وأفحمه وألقمه حجراً، لئلا يؤدي بنا ذلك إلى الخروج عن الموضوع.

السبب الخاص: هو الخوف من الحرمة (تابو) المضروبة حول كل قديم. فالقديم لا يناقش، وإذا حصرنا الكلام بالنتاج التأليفي أمكننا أن نلاحظ

بسهولة افتراض وجود حكمة في كل ما وصلنا عن الأقدمين. وبالنسبة لنا نحن العرب تكاد تكون هذه الظاهرة تعويضية وهربية وبعيدة عن الوظيفة. هناك أمم كثيرة مجنونة بكل حرف قديم لأن ما خلفه لها الأقدمون نزر يسير ولأن ماضيها منقطع عن حاضرها. أمام نحن فالحمد لله. مخطوطاتنا تملأ مكتبات العالم ومتاحفه من استنبول إلى صوفيا إلى موسكو إلى كراكو إلى برلين إلى باريس إلى الاسكوريال إلى المتحف البريطاني إلى إيرلندا، هذا عدا مخزونات البلاد العربية من اليمن إلى المغرب. والذي لا يصدق فليراجع منشورات معهد المخطوطات العربية في القاهرة، وبما أن التيار السماعي هو السائد فليسألهم ويستحلفهم بالله... إن هذه الوفرة تسمح لنا بأن نقف موقفاً انتقائياً فنختار ونصطفي ما هو أفضل وأنسب. إن أبسط درس يمكن أن نتعلمه من هذه المخطوطات الوفيرة هو أن عودتها إلى الحياة بالجملة سوف تعني خنق الفرصة أمام ولادة كتب جديدة، تماماً كما لو حدث نشور مفاجئ بدون هدفية (وهو افتراض مستحيل التحقيق طبعاً) وقامت الموتى من قبورها وزاحمت الأحياء على كل شيء. وليس المطلوب بالطبع إيقاف نشر التراث بل المطلوب حسن انتقاء ما ينشر.

أكثر من أية أمة أخرى في العالم نحن نملك فرصة الانتقاء، الانتقاء المستأني المستريح الذي يمكن أن يراعي جملة من العوامل منها العامل القومي والعامل الإبداعي والعامل الاجتماعي والعامل النفعي وغير ذلك.

أكثر من أية أمة أخرى في العالم نحن نملك فرصة الانتقاء المطلق غير المقيد لأن الحاجز اللغوي بين الماضي والحاضر ضعيف الشأن، ولا يكاد يعد شيئاً مذكوراً حين يقاس بالحاجز اللغوي بين الماضي والحاضر عند أكثر الأمم المعاصرة. ونحن في وضع فريد من هذه الناحية إذ يستطيع المتعلم لدينا أن يفهم لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وأشعار زهير بن أبي سلمى دون

أن تعترضه مشكلات اختلاف التركيب اللغوي أو اختلاف أشكال الأفعال، ولعل الصعوبة الأساسية التي تواجهنا في هذه الحالة هي تلك الناجمة عن اختلاف في المفردات المستخدمة.

أكثر من أية أمة أخرى في العالم نحن نملك فرصة الانتقاء من الموروث في مختلف مجالات المعرفة وشعابها. إن موروثنا المتوافر من التنوع وتعدد الوجوه بحيث يسمح لنا بوضع خطة متكاملة للانتقاء تتناول شتى فروع المعرفة ابتداء من النقد وانتهاء بالطب أو الفلك.

ومع الأسف، وأكثر من أية أمة أخرى في العالم، ليس لدينا مقياس للموقف من الموروث. فما يقع بين أيدينا في لحظة ما هو الصالح وهو النفيس وهو موضع الاهتمام.

تموز ١٩٧٨

* * *

التراث للجميع

التراث العربي موجود بين أيدينا ومتوافر، وغني جداً ومتنوع ومتعدد الوجوه. ونحن في هذا المجال نكاد نكون من أسعد الأمم حظاً إن لم نكن أسعدها على الإطلاق.

وليس يكفي في موضوع التراث أن يعكف عليه المختصون وأن يتوافروا على دراسته والتنقيب فيه. كذلك ليس من التراث في شيء أن يقتني كنوزه المترفون وأن يعلقوه، كما تعلق النفائس، في صدور بيوتهم وعلى رفوف جاماتهم، كأنما هو شيء جامداً لا يقرأ ولا يناقش وإنما ينظر إليه من الخارج نظرة استمتاع وإعجاب.

مهم جداً أن يوضع التراث العربي بين أيدي الناس. وبالضبط أن يصبح عاملاً من عوامل تكوينهم الثقافي، وزاداً يدخل في قائمة مطالعاتهم، ومنهلاً مفتوحاً يقبل عليه القراء طواعية ليأخذوا ما يروقهم وما يؤنسهم.

* * *

هناك محاولة من هذا القبيل، جادة، واعية، يحسن أن ينوه بها المرء ويدعو إلى الاقتداء بها وتعميمها. تلك هي مجموعة مقالات «روائع من التراث العربي» التي أصدرها الأستاذ أسامة عانوتي في كتاب جميل الشكل دقيق الصنع، أول ما يلفت النظر فيه حرص الكاتب على سلامة اللغة وضبط الكلمة بالشكل وتنضيد الجمل وفقاً لأحدث طرق التنقيط، ودعم العرض بشواهد أصلية من أقوال أعلام التراث العربي رويت بدقة فائقة وأوردت مشكولة شكلاً شبه تام.

هذه الأمور التي تصنف في باب (الشكليات) عند الكثيرين أصبحت، في المرحلة الحاضرة من الفوضى التي تمر بها الكتابة العربية، هي عنوان القبول أو عدمه بالنسبة لأي كتاب عربي ولاسيما في موضوع التراث. إن هذا النوع من الضبط هو الشرط الذي بدونه لا يتحقق أي شيء آخر (سين/كوا/نون)، فإذا توافر أمكن البحث في الأمور الأخرى. وإلا فمن العبث البحث في مادة كتاب غير قابل لأن يقرأ، لأنها عند ذاك تظل ملكاً لصاحبها وللقلة القليلة التي تجد من الوقت ومن العزم ما يعينها على فك الرموز وخوض المسالك الوعرة التي لا تفضي دائماً إلى أجمل المشاهد أو إلى أطيب الأشجار ثمراً.

وهكذا إذن يفهم من سياق الكلام أن إتقان الشكل وقوة الضبط ليسا أروع ما في كتاب الأستاذ عانوتي. ولقد جرى التنويه بهما عن عمد وتصميم للتأكيد على أنهما في موقع الشرط اللازب. أما بعد ذلك فالكتاب محاولة جريئة للكشف عن تنوع التراث العربي وريادته. فهناك مثلاً تراث الفنون والموسيقى، وهناك تراث العلوم من طبيعيات ورياضيات وطب وصيدلة وجغرافية، وهناك متنوعات فكرية وأدبية وأخلاقية، مما يستحق أن يقف عنده المرء وقفة متأنية وأن يقرأه بإمعان.

آب ١٩٧٨

مفاتيح الماضي

أن يفاخر أجنبي بالعرب. أن يطنب غريب في وصف مآثر العرب وماضيهم وحضارتهم وعمرانهم. أن يتحدث خصم عن نبل العرب ورزانة أحلامهم ورحمتهم عند المقدرة وتماسكهم وقت الشدة... تلك هي الشهادة التي يعتز بها الإنسان ويسعى من أجلها.. وما أكثر الشهادات الطيبة التي صدرت عن علماء وسياسيين ومؤرخين وباحثين وفلاسفة أجانب واعترفت بعظمة التاريخ العربي وبعزة النفس العربية وبإنسانية الحضارة العربية الإسلامية.

ولكن أن يجعل قطاع كبير من أبناء العرب همه الأول دأبه وديدنه التغني بالأجداد والتفاخر بالآثار والاعتداد بالماضي، على سبيل المزاودة بين عربي وعربي وليس على سبيل المفاخرة بين الأمم والشعوب في مجال خدمة مسيرة الإنسانية، فتلك هي المسألة التي يجب الاحتراز منها، ليس لأن تغني الإنسان بماضيه وأجداده وأمته ضرب من العيب أو العبث، بل لأن التفاخر بوجه عام غير محمود، فردياً وقومياً، إلا إذا كان الغرض منه الرد على اتهام باطل، أو شحذ همة، أو ضرب مثل أعلى للعمل.

وأنك لتجد أكثر تقصير في حق شعبهم وأمتهم هم أكثر منافحة عن الماضي المجيد بالقول لا بالعمل. فإذا ذكر الإنسان مخترعاً جديداً استنبطته العقول العلمية المعاصرة قالوا: لقد عرف أجدادنا ذلك قبل مئات السنين، ثم ينسى هؤلاء المخترع الجديد وكيف يستفيدون منه أو يبزونه أو يقلدونه على الأقل، وينصرفون إلى إثبات عظمة العرب في الماضي ويحذفون الحاضر من ساحة أذهانهم.. حتى بات المرء يخشى أن تكون هذه النزعة تعويضاً عن

الشعور باليأس من مجاراة مواكب القوة والأعمار والاختراع في العصر الحديث.

* * *

أوحى إلي بهذا الحديث مجلس ضمني منذ أيام مع رجل كبير سناً وعقلاً، فاضل، متزن، منصرف إلى الدين والفقه والقضاء، قادم من بلد عربي شقيق. وكان الحديث يدور حول التخلف والتقدم ومصائر العرب في القرن العشرين. وكما يكون الحال عادة انصرف معظم المتحدثين إلى توجيه الحديث الوجهة التي يعتقدون أنها ترضي الضيف الكبير. وكان الضيف يسمع كثيراً ويقول قليلاً. وفي المرات الثلاث التي تصدى فيها للكلام حاول أن يرد أعناق الكلام عن التوائها وأن يدفع بها إلى وجهتها المنطقية والسليمة.

تحدث المتحدثون عن انتشار العلوم والمعارف في البلاد العربية خلال العقدين الماضيين من السنين وكثرة عدد أبناء العروبة الذين يتلقون العلم في مختلف فروع المعرفة من أدب وفلسفة وسياسة وعلوم. وأطنب المتحدثون وأشادوا وحسبوا أنهم نالوا من نفس الشيخ موقع رضا وسرور. ولكنه فجأة توجه إلى الجمع بالسؤال التالي:

- لماذا يكثر عندنا طلاب العلوم النظرية والآداب والإنسانيات، ويقل لدينا العلماء العاملون في مجال التطبيق؟

وضرب الشيخ مثلاً بندرة مهندسي الطيران.

وذهب السامعون مذاهب في تأويل ذلك. وكلها جميعاً مذاهب اعتذارية تلتمس الأسباب المخففة وتنأى عن مجابهة الحقيقة الجارحة.

* * *

وجرنا الحديث إلى ذكر العلماء العرب الكُثُر الذين ينتشرون في مراكز البحث العالمية وفي جامعات كثيرة ذات باع في مجال الاختراع والعلم التطبيقي

كذلك. وتحدث الحاضرون عن قصور الرواتب وعن غياب التسهيلات وعن فقدان المناخ العلمي المناسب وعن العجز عن الاستيعاب وغير ذلك.

وقال الشيخ الفاضل:

- نحن ننفق الكثير هنا وهناك وفي وجوه تصح وفي وجوه لا تصح فلماذا لا نعمل على خلق الجو المناسب لهؤلاء العلماء العرب الذين سيسارعون حتماً إلى العودة إلى أي بلد عربي حين يشعرون بتوافر شروط الإبداع، مادامت المشكلة هي مشكلة مناخ مناسب. لا ينقصنا المال ولا الدول.

* * *

وأفضى بنا الحديث إلى ذكر مناهج الأوربيين وتقدمهم في مجال البحث والاختراع ودقتهم في تناول أمور العلم، وذكر أحدنا أمثلة من مؤلفاتهم المتعلقة بجغرافية الشعوب الأخرى وتاريخها ولغاتها وآدابها مقابل ما تلقاه هذه النواحي من إهمال لدى أصحابها أنفسهم، ولاحظ الملاحظون أن هذا الاهتمام نابع من مآرب وغايات، ولكن أحد الحاضرين ذهب إلى حد نفي كل مزية للعالم المتقدم وأصر على أن العرب عرفوا كل هذه الأشياء في الماضي وانتقل إلى أمجاد قرطبة وغرناطة وساعة شارلمان، وشرَّق وغرّب، وظن أنه بلغ من نفس الشيخ أحسن مبلغ. ولكن الشيخ - سلمه الله - قطع الحديث بجملة مفاجئة قصيرة بليغة:

- التغني بالماضي عمل طيب، ولكن يا ليته يقرن دائماً بالتفاتة إلى متطلبات الحاضر.

أيلول ١٩٧٨

* * *

القسم الخامس

المنطق الأعرج

- الخداع المزدوج (١ -٢)
- الأمن الإسرائيلي منبع القيم
- برلمانيون بعيون عوراء
- الفيل والذبابة
- الفيل والذبابة أيضاً
- حوار وسياسة
- المعجم الذي عرج (١ -٢)

الخداع المزدوج

(١)

هل الفكر الغربي أعرج في الأصل أم أنه يعرج كلما تعرض لأي موضوع يمس اليهود والصهيونية؟.

نحن، في هذه المنطقة من العالم، نكتشف كل يوم عجز هذا الفكر، ولاسيما سياسياً وإنسانياً، عن فهمنا وفهم حقنا في الوجود، بل عن فهم طبيعة الظلم الذي أنزلته الصهيونية بنا وعمق المعاناة التي نرزح تحت وطأتها.

وخلافاً لكل ما يقال -سواء في المناسبات المحلية أو العربية أو في المنتديات الدولية -يخطر لي أنه لم يحدث كبير تغير فيما يتعلق بفهم عناصر الكفاح العربي ضد الصهيونية وفي سبيل حق تقرير المصير والاستقلال والسيادة. وهذا التغير الذي تتحدث عنه صحافة العالم، وهذا التغير الذي نطمئن أنفسنا بأنه متجه بسرعة إلى الأفضل، ليس سوى خدعة حواس ناجمة عن اختلاف النسبة والمسافة.

أرأي إلى الطائرة تبدو في الجو صغيرة كالعصفور، ثم تنحدر باتجاه الأرض فإذا هي تكبر وتكبر حتى تغدو بنياناً ضخماً يحمل في أحشائه مئة راكب ومئتين وثلاثمئة ويزيد.

إن المشابهة ليس تامة هنا بالطبع. فليس الغرب طائرة ولسنا نحن أرضاً، كذلك ليس الغرب أرضاً ولسنا نحن طائرة. إن وجه الشبه هنا محصورة بمسألة خداع الحواس وما ينجم عنه من خداع أدهى وأمر، وأعني به الخداع العقلي.

ولكن المسألة بيننا وبين الغرب تتجاوز الخداع المفرد إلى الخداع المزدوج. فمن جهة نحن نخدع أنفسنا بتوهم اقتراب الغرب منا أو اقترابنا منه حتى أصبح في مقدوره أن يرانا رؤية أفضل، ومن جهة أخرى نحاول جاهدين أن نؤكد وجود هذه الرؤية الأفضل بالعمل المتواصل على التخلي التدريجي عن مواقعنا ومبادئنا وحقوقنا ومنطلقاتنا.

وفي كل يوم نسلم للغرب بمقولة جديدة فيثني علينا لقاء ذلك فنطمئن أنفسنا بأن الغرب يتغير باتجاهنا. أما حقيقة الأمر فهي أننا نتغير باتجاهه ونموّه هذه الحقيقة المرة بأن نزعم لأنفسنا بأنه يتغير باتجاهنا.

وهذا هو الخداع المزدوج.

والأمثلة بعد واضحة بل صارخة.

- هل الخلاف أصلاً بيننا وبين الصهيونية الغاصبة على السلام أم على اغتصابها أرضنا وانتهاكها لحقوقنا؟

- هل الخلاف أصلاً بيننا وبين الصهيونية على احتلالها أراضي عربية عام ١٩٦٧ أم احتلالها الأرض العربية منذ عام ١٩٤٨؟

- هل الخلاف بيننا وبين الصهيونية على مفهوم السلام ومعنى العلاقة الطبيعية بين دول متجاورة، أم أنه خلاف على طبيعة الدولة التي أقامتها الصهيونية وعلى ما تنطوي عليه من أخطار تهدد المنطقة بأسرها؟

- هل الخلاف بين الدولة الصهيونية وبين هذه الدولة العربية أو تلك حول قطعة أرض احتلت أو غارة شنت أو حدود انتهكت؟

إن هذا الكلام لا يعني (تصلبا) في الفهم، ولا هو قفز عن ثلاثين سنة من التطور، ولكنه مجرد تنكير بأننا نحن الذين نسعى، ونحن الذين نتغير، ونحن الذين نتزحزح، وعدونا ثابت في مواقعه إن لم نقل أنه يزداد تشبثاً وتعنتاً.

ولابأس بأن نتغير، ولابأس بأن نتمسك بأهداب المرونة، ولكن على شرط واحد هو أن نعرف إلى أي حد نحن نتغير، أو عند أي حد ينبغي لنا أن نتوقف.

(٢)

في رسالة استلمتها هذا الأسبوع من السيد ألان جورج الذي يعمل في المركز العربي البريطاني في لندن، وهو مركز تشرف عليه هيئة بريطانية برلمانية في معظمها، يلاحظ السيد جورج بسرور أن الرأي العام البريطاني قد بدأ يتفهم ما يجري في الشرق الأوسط وأن أوساط الشباب الجامعي والمثقف بوجه خاص احتجت بشدة على احتلال جنوب لبنان وتابعت مؤامرات بيغن وحيله المختلفة للتملص من أي التزام إسرائيلي باتجاه السلام.

وفي إجابتي على هذه الرسالة أكدت للسيد جورج أن الطريق إلى التفهم الذي يقصده ما زالت طويلة وشاقة وأن المرء لا يملك إلا أن يتفاءل حين يقيس الأمور بالماضي القريب الذي كان الموقف الأوربي فيه أسود كالحاً تجاه العرب وأبيض ناصعاً تجاه الصهيونية.

ولقد أعادتني هذه الرسالة إلى ما كنت نبهت إليه أكثر من مرة حول ضرورة فهم موقف الغرب الحالي من القضية العربية والشعب الفلسطيني ومسائل الشرق الأوسط. إن الفهم الدقيق لهذه الناحية أساسي من أجل التصور العام لوضع قضيتنا وكذلك من أجل التحرك السياسي العلمي الفعال.

هناك تغير في الغرب، ما في ذلك شك، هناك تغير في الموقف الرسمي باتجاه محاولة إقامة شيء من التوازن بين تأييد إسرائيل ودعمها الطرف العربي الذي له موقفه الخاص ومنطقه ومصالحه. وهذا التغير الرسمي حذر متأن يزين كل كلمة في الميزان الحساس ويحرص على ألا يعطي الصهيونية أي سبب للاعتقاد بأنه في سبيل إحداث أي تغيير في مواقعه.

وهناك تغير في الرأي العام المسيّس الذي بدأ يدرك على الأقل أن إسرائيل ليست حملاً وديعاً ولا هي حمامة سلام وليس كل ما تقوله صحيحاً منزلاً.

وهناك في الأوساط الشابة الناقمة بدء تعاطف مع قضية الشعب العربي الفلسطيني ومعاناته الطويلة، لكن كل ذلك نسبي. وهو حين يقاس

بالفهم العالمي شبه الشامل لطبيعة الصراع في الشرق الأوسط ولدور إسرائيل التوسعي الاستفزازي المناهض للسلام فإنه يثير العجب، لأن الغرب - ولاسيما الغرب الأوربي - هو أقرب مناطق العالم إلى المنطقة العربية وأشدها اتصالاً بها سواء من حيث الثقافة أو التعليم أو الحضارة أو التجارة أو الاقتصاد، ناهيك عن السياسة والبترول، ويزيد الأمر عجباً أن العرب منذ سنوات يمدون أيديهم إلى أوروبا يعرضون التفاهم والتعاون والتبادل الأمني والتجاري والمقايضة بين البترول والتكنولوجيا، ويقيمون مؤتمرات الحوار الرسمي والبرلماني، ويشاركون في الندوات التي تنظمها الأحزاب والهيئات والمراكز... وتكون النتيجة دائماً أن هناك أقلية ضئيلة تدرك حقيقة الأمر ولكنها لا تستطيع أن تؤثر في المجرى العام للأمور. على حين أن الأكثرية - في أحسن الأحوال - قد تتوصل إلى التسليم بوجود (جانب) من الحق في وجهة النظر العربية، ولكنها غير مهتمة بهذا الجانب بقدر ما هي مهتمة بأمن إسرائيل وسلامة إسرائيل وطيب خاطر إسرائيل. إن كل اتفاق أو تعاون أو تفاهم يجب - عندهم - أن يكون مشروطاً بضمان سلامة إسرائيل وسيادتها وأمنها، وهذا الشرط له الأولوية والصدارة.

كأن العرب هم الذين يحتلون ثمانين ألف كيلو متر من أراضي إسرائيل، وكأن العرب هم الذين يشردون حوالي مليونين من الإسرائيليين ويقهرون مثل هذا العدد تحت سنابك الاحتلال. وكأن العرب هم الذين بنوا - اليد الضاربة - العسكرية وهم الذي يهددون باجتياح غيرهم في أقل من ستة أيام.

لو أن زواراً من كوكب آخر غير هذا الكوكب أتيح لهم أن يسمعوا بعض ما يقال للعرب بشأن الحرص على أمن إسرائيل ثم أتيح لهم أن يعرفوا ما يجري فعلاً على أرض الواقع لاعتقدوا أن حكمة العرب في الصبر وطول البال هي أغرب ظاهرة على سطح الكرة الأرضية.

(٣)

مرة قال لي أحد البرلمانيين الأوربيين:

- أنا معكم في أن الشعب الفلسطيني يعاني ويتعذب وهو ضحية لا ذنب لها، ولكن يجب ألا تتعرض سلامة إسرائيل للخطر نتيجة إدراكنا هذه الحقيقة.

قلت له:هل أحلف لك بالله العظيم أننا لا نريد تدمير إسرائيل.

قال: ولكن يمكن أن تغيروا رأيكم في المستقبل.

قلت: ميزان القوى - حسب ما تورده معاهد الدراسات الإستراتيجية عندكم - يشير بوضوح إلى أننا لن نستطيع ذلك حتى لو أردناه.

قال: قد تتغير الظروف فتستطيعون ذلك.

قلت: نحن نقبل كفالتكم بشأن المستقبل.

قال: من واجب كل دولة أن تعتمد على نفسها.

ولا تستطيع أية جهة أن تضمن الحياة لجهة أخرى!

قلت: ألا تسمع تصريحات بيغن وزملائه في الكنيست.

قال: إنهم مخطئون ونحن نقول لهم ذلك.

قلت: عجباً لكم، تخطئونهم في موقفهم ثم تناقشوننا من خلال حججهم.

ومع ذلك سوف نمضي في شوط الحوار إلى أن تكتشفوا اللعبة. لقد تعلمنا الصبر من الجمل، ابن أمنا الصحراء.

حزيران ١٩٧٨

* * *

الأمن الإسرائيلي منبع القيم

جملة الآراء العامة التي نسمعها عادة من المفكرين والسياسيين والبرلمانيين الأوربيين تؤكد باستمرار رسوخ حالة (الخداع المزدوج) في الموقف الأوربي من قضية فلسطين وسائر قضايا العربية.

هؤلاء القوم مازالوا بعيدين عن فهم ما يجري في المنطقة. والمسألة بالنسبة لهم ليست مسألة نقص في المعلومات أو قصور في التحليلات. ولكنها في الأصل مشكلة خطأ في المنطلقات. وبعض هؤلاء يعطي انطباعاً بأنه حتى لو أتت تطورات درامية معينة (على سبيل الافتراض) وأدت في النهاية إلى تغير ما في الموقف الإسرائيلي من السلام فإنهم سوف يظلون ثابتين عند مواقعهم وسوف يصمون الإسرائيليين بالتفريط والتهاون!!

أبرز المنطلقات المضللة عند هؤلاء، وكثيرين غيرهم في الغرب، الاعتقاد بأن ما يسمى بأمن إسرائيل هو قيمة مطلقة لا يأتيها الباطل من قدامها ولا من خلفها، وأن كل شيء مسوغ ومقبول ما دام منسجماً مع متطلبات الأمن الإسرائيلي. فإذا حجبت الصهيونية عن الشعب العربي الفلسطيني حقه الطبيعي في تقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة فوق ترابه فإن ذلك مقبول لأن حق الشعب العربي الفلسطيني قد يتعارض مع مبدأ الأمن الإسرائيلي.

وإذا قامت الصهيونية باحتلال أراضي دولة عربية عضو في هيئة الأمم المتحدة وبالشكل السافر الذي تم في لبنان فإن ذلك لا يخدش مبادئ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لأن هذا الاحتلال، عندهم، إجراء وقائي للدفاع عن النفس.

وأكثر من ذلك، تحتل إسرائيل أراضي عربية منذ عام ١٩٦٧ وتعمل على تهويدها واستيطانها وإلحاقها. ومع ذلك فإن مبدأ عدم جواز اكتساب الأراضي بالقوة ينطبق على كل الحالات المعاصرة ما عدا هذه الحالة لأن متطلبات الأمن الإسرائيلي عند هؤلاء هي فوق القيم والاعتبارات الإنسانية.

والاحتلال بحد ذاته، سواء أكان مؤقتاً أم دائماً، هو أبغض الأعمال في وجدان الإنسانية المعاصرة، ولكن حين تذكر السياسيين والمفكرين والبرلمانيين والعسكريين والوسطاء الأوربيين بالاحتلال الإسرائيلي فإنهم قد يأسفون في أحسن الحالات، ولكنهم يصارحونك بأن الاحتلال هنا شيء مختلف ويحسن أن يعالج من خلال منطق مختلف.

وحين تذكرهم بأن نظرية الأمن الإسرائيلي ليست إلا ستاراً للتوسع بدليل ادعاءات القادة العسكريين الإسرائيليين حول القوة الجبارة لجيشهم (الدفاعي) وتفوقه عدة ومقدرة، وبدليل الأمر الواقع في الأراضي المحتلة، فإنهم يذكرونك بأن العرب في النتيجة هم الأكثر عدداً والأوفر إمكانية وبأنه ليس من الحق أن يتعرض (اليهود - هكذا) لأية مخاطرة بالنسبة لمصيرهم، مهما كانت هذه المخاطر غير منظورة في الوقت الحالي.

وأنه لمن الحق الاحتياط في الحكم بالتأكيد على أن هذه الفئات ليست كلها سواء، وأن بعضها يختلف عن بعض في التحليل، وأن المجال موجود دائماً للحوار والمداولة في هذه النقطة أو تلك، وأنه من المفيد دائماً أن نهيئ المناخ المناسب للحوار.

ولكن من الواجب أيضاً الانتباه إلى أن السلام عند أكثر هؤلاء مشروط بعدم المساس بالقيمة المطلقة لمبدأ أمن إسرائيل، وغير مشروط بأية قيمة أخرى فيما يتعلق بضحايا الأمن الإسرائيلي..

أيار ١٩٨٧

* * *

برلمانيون بعيون عوراء

تتيح الاجتماعات البرلمانية الدولية فرصة ثمينة –لمن شاء أن يغتنمها - للتعرف على اتجاهات النخبة المسيّسة بالنسبة للقضايا العالمية المختلفة. ومما يساعد على اكتشاف الآراء والاتجاهات أن البرلمانيين الذين يشاركون في هذه الاجتماعات يكونون عادة غير رسميين، ولذلك يعبرون عن مواقفهم تعبير أكثر حرية وأقل تحفظاً مما يفعل الرسميون.

وفيما يتعلق بالقضية العربية بالذات، لا يكون الإنسان مغالياً إذا لاحظ أنه في كل سنة تزداد نسبة التفهم العام للموقف العربي من العدوان الصهيوني، والتقدير لأهمية الوطن العربي الإستراتيجية والاقتصادية، والتوقعات المتصلة بما يمكن أن يكون لعرب هذا العصر من إسهام في بناء حضارة المستقبل.

لكن مقابل هذه الصورة المشرقة والباعثة على الاستبشار يحس الإنسان أن هناك شخصيات وأحزاباً وبلاداً تتغلغل فيها الدعاوة الصهيونية على شكل جراثيم (زنطاريا) مكيّسة مزمنة، عششت وطاب لها المقام حتى استطاعت أن تحدث شرخاً عميقاً في منطق الناس، ولاسيما في بلد مثل أوربا قامت حضارتها على المنطق، ومازالت تعتز بأن كل مرافق الحياة فيها مسيرة من خلال الميزان الحساس للمنطق العقلي.

وإذا كان في العالم من يحق له أن ينقم على الصهيونية وإسرائيل بعد العرب مباشرة فإنها أوربا التي ضللتها الصهيونية ولعبت بعقلها وجعلت منطقها أعرجاً كسيحاً في كل ما يتعلق باليهود وإسرائيل والصهيونية. وإنك

لترى الرجل الأوربي، سياسياً كان أم عالماً أم فناناً، فيعجبك منطقه واتزان حكمه وحرصه على أن يرى جانبي العملة من كل مسألة أو مقولة، ثم تحدثه عن الاحتلال الإسرائيلي فيطرق ويقول لك: ذلك شيء آخر، وتقدم له خلاصة تحقيق جريدة (الصنداي تايمز) حول تعذيب السجناء العرب في إسرائيل وتريه الصور والوثائق وتقرأ له الأسماء والشهادات فيزم شفتيه ويمتنع عن أي تعليق، وفي أحسن الحالات يمكن أن يقول لك: سامحهم الله، وأصلحهم الله. وفي حالات أخرى يقول لك: إن الحقيقة ضائعة ومثل هذه التهم أخطر من أن يتخذ الإنسان قراراً متسرعاً بشأنها.

وبالطبع هناك حد أدنى من معرفة الأمور ومن المقدرة على الحكم يفترض أن يتوقف عند البرلمانيين الأوربيين بالذات، حيث يوحى للناس أن هؤلاء ينتخبون في بيئة ولا كالبيئات، تزدهر فيها حرية الرأي، وتنتشي النزاهة فرحاً أيام الانتخابات، وتزدان عقول الناس بالانفتاح على الحقائق وتظهر استعداداً مستمراً لتغيير القناعات بمجرد ثبوت الوقائع أو الأدلة.

مع أمثال هؤلاء نحن نفترض أن الإقناع أسهل شيء في الوجود، ومع أمثال هؤلاء نصطدم يومياً بنماذج من التحزب والتحيز والتحامل والانغلاق والعناد، مما يكاد يشككنا بعدالة قضيتنا وصحة أحكامنا، لولا أننا ننظر من حوالينا فنرى برلمانيين آخرين من دول يقال أن الحريات فيها مكبوتة وحقوق الإنسان مضغوطة، ومن بلاد أخرى يقال أن التخلف قد ضرب أطنابه فيها وطاب له المقام، ومن أصقاع نائية لا يسمع لصوتها دوي في حلبة الصراع العالمي،... نرى هؤلاء يعرفون أن هناك شعباً في العالم فريداً في مأساته، جزء منه أقلية غريبة في وطنها، وجزء منه بقي مطروح تحت سنابك الاحتلال، والباقي أشتات ممزقة تحت كل كوكب. ونرى هؤلاء يعرفون من الغاصب ومن المغصوب، ومن الذي يهدد السلام ومن الذي يسعى إلى السلام، ومن الذي يتوسع عسكرياً في كل بضع سنين، ومن الذي ينشئ المستوطنات على أراضي الآخرين، ومن الذي

يفتخر بالقوة العسكرية الغاشمة، ومن الذي يمد الجسور مع دول الأنظمة العنصرية التي نبذها العالم، ومن الذي ينكر وجود الآخر، ومن الذي يصنع القنبلة الذرية، ومن الذي يريد أن يهوّد الأراضي حتى حجارتها الصماء.

كيف يعرف المتخلفون ومسلوبو الحرية من برلمانيي العالم هذه الحقائق وكيف لا يسمع بها برلمانيو الدول الحرة والديموقراطية والمتحضرة؟!

إن هؤلاء البرلمانيين - ولاسيما برلماني هولندا وألمانيات الغربية بالإضافة إلى برلمانيي أميركا طبعاً - ينبرون دائماً للدفاع عن الاحتلال ويعتبرونه نعمة للأراضي المحتلة وسكانها، وبين هؤلاء من احتلوا أراضي الناس أثناء الحرب العالمية الماضية ومن مازالت أراضيهم محتلة وممزقة، ويظهر هؤلاء برمهم بأعمال المقاومة التي يقوم بها الشعب ضد الاحتلال لأنها - على ما يقولون - تخريب وتهديد لأمن دولة الاحتلال. ويقول زملاء لهم وجيران في جنة الديمقراطية، أن كل المشكلة في الشرق الأوسط تنحصر في أن الفلسطينيين لا يعترفون بوجود إسرائيل، وأن المنظمة خطر أساسي على سلام العالم لأن هناك مادة في دستورها قد تتحول إلى جيش يدك أركان إسرائيل. ويقول جيران لهؤلاء الجيران - يسهل متابعتهم على الخارطة الأوربية في نصفها الغربي - إن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين مشكلة غريبة لا علاقة لها بإسرائيل، وما على هؤلاء إلا أن يتفقوا مع أخوانهم العرب حتى يستوطنوا ويستريح العالم من ضوضاء الشرق الأوسط. أما أصحاب الإفك أنفسهم فيقولون: إن المسألة لا تحتاج إلى دليل أو برهان فإسرائيل ديمقراطية صغيرة مفتوحة حدودها للجميع، ومن أراد أن يتأكد هل هناك تعذيب أم لا فليتكرم بزيارة القدس وحيفا وتل أبيب. أما ما تنشره الصحف عن حوادث المقاومة والمظاهرات والعصيان المدني وإلقاء القنابل ويوم الأرض، فتلك أمور تقوم بها أقلية مضللة لا تعبر عن رأي السكان الرافلين في نعم الاحتلال.

قبل ثلث قرن كنا نسمع مثل هذا المنطق فلا ننفعل. لأن الأوضاع كانت مقلوبة وملتبسة على كثير من الناس. ولكننا اليوم، بعد كل الذي حدث وكل الذي اتخذ من قرارات دولية وكل الذي نشر من أخبار وتحقيقات وبعد كل تلك الشهادات التي صدرت حتى من معقل الإفك، لا نملك إلا أن نسلم العنان لهزة انفعال، ولكن سرعان ما نتمالك أنفسنا ونرثي لمنطقهم الأعرج، ونبحث عن وسيلة لإنقاذهم من عرجهم غير وسيلة الحجة والبينة واستسقاء النوايا الطيبة، فقد أصبح هناك من الحجج والبراهين ما يمكن أن يقنع حتى الصخور الصماء.

تشرين أول ١٩٧٧

* * *

الفيل والذبابة

من خلال لقاء مثير جرى تنظيمه بين وفد من المهتمين بالدراسات العربية في الجامعات الأميركية وبين مجموعة من الكتاب العرب السوريين في رحاب اتحاد الكتاب العرب كان عرج المنطق الأميركي بالنسبة لمسائل الشرق الأوسط موضوع ساعتين من النقاش والمجادلة.

- حاول الكتاب العرب أن يفهموا من الدارسين الأميركيين كيف تسلم دولة فائقة القوة والإمكانات قيادها لدويلة تبعد عنها آلافاً من الكيلومترات وتصغرها بنسبة واحد إلى تسعين من ناحية عدد السكان وواحد إلى ما شاء الله من ناحية الإمكانات.

- وقال الأميركيون: إن السر هو في سيطرة اليهود الصهاينة (هذا هو المصطلح الذي استعملوه) على أجهزة الإعلام ودور السينما والمؤسسات الصناعية والدوائر الرسمية.

وقال الأميركيون: إن الرأسمال الأميركي يلعب دوراً مهماً في تقرير السياسة الخارجية.

والصهاينة في أميركا لديهم رأسمال كثير ولهم نفوذ كبير. وفئات الضغط الصهيونية تمارس ضغطاً منظماً على أعضاء الكونغرس وعلى السلطة التنفيذية وحتى على رئيس الجمهورية نفسه.

والصهاينة موجودون أيضاً في المناصب العالية، ولهم أصدقاء من غير اليهود يشغلون مراكز رئيسية في الحكومة. وهم منظمون ونشيطون وهناك

أيضاً الصحفيون ومخرجو الأفلام وأساتذة الجامعات الذين يسيطرون حتى على مراكز الشرق الأوسط التي تزود الرأي العام الأميركي بالمادة العلمية حول المنطقة العربية.

* * *

وضحك الكتاب العرب في سرهم وتساءلوا باستغراب تساؤل العراف بالعرج المنطقي الذي سوف يتضمنه الجواب.

ولكن كيف تسيطر أقلية من خمسة ملايين على أكثرية تتألف من مئتين وستين مليوناً من الناس المتعلمين النشيطين المطمئنين إلى أنهم يعيشون في ظل نظام ديمقراطي يتيه بنفسه عجباً ويضع تجربته فوق كل تجربة لبرالية أخرى؟

وخطرت للمتحدثين العرب خواطر كثيرة بعضها استطاعوا أن يقولوه وبعضها لم يقولوه.

- مثلاً: كيف يكون المواطن الأميركي حراً ويكون رئيسه أقل الناس حرية في التعبير عن قناعاته؟

- مثلاً: هل تعكس السياسة الخارجية للحكومة الأميركية مصلحة الولايات المتحدة الأميركية أم مصلحة الأقلية المرتبطة بما هو خارج الولايات المتحدة؟

- مثلاً: ما هو مفهوم الأقلية وما هو مفهوم الأكثرية من خلال ما يسمى بالمجموعات الضاغطة؟؟

- وكان السؤال الأهم الذي طرحه أكثر من كاتب عربي: ألا يشعر المواطن الأميركي بهذا الضغط؟ ألا يشعر المسؤول الأميركي بغضاضة من خلال اضطراره لأن يحني رأسه لعاصفة الأقلية؟

- وأجرى أحد الكتاب العرب مقارنة طريفة في هذا المجال. وقال استناداً على إحدى المجلات الأميركية، أن سفيراً لبريطانيا في أميركا تجرأ

مرة وأبدى رأيه في الانتخابات الأميركية فأثار ثائرة الرأي العام وكان مصيره الطرد من أميركا. ولكن أميركا التي طردت السفير البريطاني سمحت لبيغن ودايان ومسؤولين صهيونيين آخرين أن يقصدوا أميركا لتحدي حكومتها وللضغط على الكونغرس وللتأثير في القرار الأميركي. وتساءل المتكلم العربي: ماذا يكون من موقف الإسرائيليين لو أن (فانس) فعل الشيء نفسه في إسرائيل؟

وكان أحسن ما في منطق الضيوف الأميركيين أنهم لم ينكروا وجود مثل هذا العرج المنطقي الكبير في الموقف الأميركي من الشرق الأوسط.

ولكنهم لم يكونوا يائسين جداً من إصلاحه.

حزيران ١٩٧٨

* * *

الفيل والذبابة أيضاً

كثيرة هي الجوانب المتصلة باستقالة السيد أندرو يونغ مندوب أميركا (الأسود) لدى هيئة الأمم المتحدة. لقد أعلن نبأ الاستقالة وقبولها بصيغة شديدة التبسيط ومثيرة للريبة في شهر آب من عام ١٩٧٩.

وقد بدأ ذلك بعد مسلسل ضخم من التعليقات كشف عن اتفاق عام على أن الاستقالة تمت نتيجة احتجاج قدمه السفير الإسرائيلي في واشنطن، وأن السفارة الإسرائيلية هي التي جمعت المعلومات الدقيقة حول اجتماع السفير يونغ، في منزل السفير الكويتي، بالسيد زهدي الطرزي ممثل منظمة التحرير الفلسطينية، لدى هيئة الأمم المتحدة.

وكان السفير يونغ قد حاول تفادي المشكلة من خلال التصريح بأن اجتماعه بالطرزي كان عارضاً. ولكن الأجهزة الإسرائيلية التي تتجسس على الممثلين الأميركيين مثلما تتجسس على المندوبين العرب كشفت هذه الكذبة الديبلوماسية ومن ثم جرت إثارة القضية لدى الحكومة الأميركية وفي الأوساط الصحفية. ويبدو أن ملف اندرو يونغ بأكمله سوف يفتح الآن - كما هي العادة في أميركا - ويبدو كذلك أن الأجهزة الإسرائيلية تحاول الآن أن تكشف عن أمر خطير آخر في اتصالات يونغ. إذ ورد في المؤتمر الصحفي الذي عقده السيد روستون، الناطق بلسان الخارجية الأميركية، بتاريخ ١٤ آب:

(إن السفير السوري وصل إلى شقة السفير الكويتي بعد ثلاثين دقيقة من وصول يونغ الذي كان عند ذلك على أهبة مغادرة المكان).

وقال روستون: (أنه سيحاول أن يعرف ما إذا كان يونغ قد علم مسبقاً أيضاً بأن السفير السوري سيكون هناك).

وبالطبع سيأتيه الجواب من المصادر ذاتها التي تراقب تحركات المسؤولين الأميركيين في هيئة الأمم المتحدة.

وهكذا تكون قبول حكومة الولايات المتحدة الأميركية بخضوع ممثليها لمراقبة عملاء دولة أجنبية (مهما تكن حليفة وصغيرة ومدللة!) هو الجانب الأول من الدراما اليونغية. وبالطبع يستدعي ذلك إلى الأذهان تعاسة المسؤولين الأميركيين الكبار الذين يقعون في قبضة الابتزاز الإسرائيلي، واضطرارهم المستمر لتحوير مصالح الدولة (العملاقة) لتناسب مصالح دولة أخرى (قزمة) تقع في منطقة أخرى من العالم.

* * *

أما الجانب الثاني الذي يلفت النظر في مسألة استقالة يونغ فهو طبيعة السبب الذي أدى إلى الاستقالة. ذلك أن يونغ متهم (يا الله) بالاتصال بممثل منظمة التحرير الفلسطينية. أين؟ في هيئة الأمم المتحدة. ومن أجل ماذا؟ من أجل إيجاد صيغة وسط أو حل ما لمشكلة مشروع القرار المطروح على مجلس الأمن بشأن القضية الفلسطينية. إذن هذا العمل جريمة يعاقب عليها القانون بالطرد من الوظيفة. وفي أي بلد؟ في الولايات المتحدة التي أنبرت –في الظاهر- لحل مشكلة الشرق الأوسط والتي سجل رئيسها المتعب الانتصار الوحيد البراق خلال ولايته وهو عقد اتفاق كامب ديفيد بين السادات وبيغن.. واليت مازالت ترهن جانباً كبيراً من سياستها الدولية على نجاحها في (الوساطة) بين الطرفين المتنازعين في الشرق الأوسط. هذه الدولة - العملاقة - التي نصبت نفسها (حكماً) و(وسيطاً) و(وصياً) لا يجرؤ ممثلوها على الاتصال بممثلي الطرف الأساسي في القضية الفلسطينية أو في مشكلة الشرق الأوسط. وحين يحرم على المندوب الأميركي الاتصال بالمندوب الفلسطيني والمندوب السوري فماذا يبقى له من مقومات الحكم والوساطة؟ بل ماذا يبقى له من دور دولي إذا كان ممثل الدولة المعتدية المنتهكة للقوانين الإنسانية والمتحدية للإجماع العالمي يجره من أنفه كما يجر البعير. بل ما الذي يبقى من عناصر الديمقراطية الليبرالية إذا حرم على ممثليها الحوار؟!

إن الديمقراطية الأميركية تنعى على الآخرين دائماً أنهم مغلقون في وجه الحوار، وأنهم لا يحسنون سوى السير في الطريق المرسوم، وأنهم مسيرون بالأوامر. ألا تنتهك الديمقراطية الأميركية - من خلال منطقها الخاص - أبرز ما تنسبه لنفسها من القيم حين تحرم على مندوبيها الحوار في الساحة التي خلقت أصلاً لكي يتحاور فيها الناس بحرية. أوليست استقالة اندرو يونغ بحد ذاتها وبظروفها الغريبة انتحاراً أخلاقياً للرئيس كارتر الذي حاول أول ما حاول أن يعيد للسياسة الأميركية نفسها الأخلاقي المفقود؟

* * *

لكن كل ما تقدم بسيط إزاء حقيقة مذهلة مفادها أن الإدارة الأميركية تدلي بتصريحات وترسل الرسل محاولة أن تقيم جسراً ما مع منظمة التحرير الفلسطينية. ولقد آن للكثيرين أن يعرفوا أي جسر تريده أميركا! أنها تبحث عن جسر للعبور المعاكس. فمثلما حققت للإسرائيليين عبوراً معاكساً لعبور حرب تشرين استطاعوا بواسطته أن يدخلوا قلب مصر من أوسع الأبواب، فإنها كذلك تبحث عن عبور معاكس يوصلهم إلى قلب فلسطين تحت عنوان الوساطة والمساعي الحميدة.

* * *

ولكن الأميركيين يخطئون التقدير، ولا يظهرون أي استعداد لقراءة تاريخ (المناعة) الفلسطينية، وسياستهم سجل من التخبط والتقلب، يضطرون من خلالها إلى التضحية بالأميركيين التعساء الذي يسند لهم التاريخ مهمة المصالحة المستحيلة بين الأخلاقية المعلنة والوصولية المبطنة، وكذلك بين عظمة أميركا الظاهرية وصغارها الحقيقي أمام القزم الإسرائيلي.

آب ١٩٧٩

* * *

حوار وسياسة

في طرابلس ليبيا وفي مستهل شهر تشرين الأول ١٩٧٨ دار حوار غريب غير متوقع بين فريقين يبحث كل منهما عن حل لمعضلة العلاقات العربية الأميركية. وفي ذهن كل فريق صورة حية عن صعوبات الحوار وعن جسامة الفجوة وعن تداخل المسألة. ولم يكن أي منهما واثقاً إلا من شيء واحد هو ضرورة الحوار.

كان الفريق العربي مؤلفاً من سياسيين وعلماء مختصين وثوريين وأساتذة جامعات لا ينتظمهم قاسم مشترك من اختصاص أو ولاء أو مستوى فكري اللهم إلا التوجه للعمل العام.

وكان الفريق الأميركي أيضاً متنوعاً، وقد ضم سياسيين مثل السناتور فولبرايت، وعدداً كبيراً من أساتذة الجامعات ومن المختصين في مراكز البحوث ومن هواة العمل السياسي - لا المحترفين -. وكان أكثر من نصفه من الأميركيين المنحدرين من أصل عربي. وكانت الذاكرة العربية لبعضهم طازجة فإذا العربية تنطلق من أفواههم دافقة عذبة على طريقة الميدان أو خان الخليلي أو البسطة أو الكرخ، وكان لدى بعضهم نصف ذاكرة عربية فهم يفهمون ولا يرسلون وإن كانت مازالت تحيا في أذهانهم الكلمات الخالدة من مثل: مرحبا، والسلام عليكم، وإن شاء الله، ومع السلامة الخ...

وكان بعضهم قد تأمرك على حد أنه يلفظ أسم أبيه وجده بإنكليزية تصنعة: آدل، غتاس، مسود. - عادل، غطاس، مسعود الخ...

ولم يكونوا كلهم من الجيل الجديد. كان بينهم شيوخ من الجيل الأول وكهول من الثاني وشبان من الثالث، ولم يكن تقسيمهم اللغوي تابعاً للجيل بقدر ما كان تابعاً لمفهوم الارتباط بالوطن الأم.

وكان الأمريكيون قادمين من ولايات عديدة.

* * *

كان الحوار شعبياً، وأكد الطرفان أنهما يريدان أن يقبضا على الشيء الذي لم تستطع الحكومات أن تقبض عليه. وما أن دارت عجلة الأحاديث قليلاً حتى اكتشف المتحاورون بسرعة أنه لا وجود لأية عداوة أو عقدة تاريخية أو ثأر أو حقد أو كراهية أو معضلة بين الشعب العربي وبين الشعب الأميركي - من الناحية النظرية -. وبسرعة كذلك أقر الحاضرون أنه لا وجود لتضارب أو تناقض بين مصالح الشعبين وآمال الشعبين ودورهما في إطار العمل الإنساني المعاصر.

وبسرعة كذلك أقر الحاضرون أن كل فريق منهم لا يمثل بأي شكل من الأشكال واقع البنية السياسية لدى أي من الشعبين وأنه لا يتمتع بأية سلطة تمثيلية وأنه لا ينطق باسم مجموعة معينة، ولكن الفريقين كليهما أكدا أنهما يمثلان شيئاً مهماً هو الرغبة الصريحة أو الكامنة لدى كل من الشعبين في إزالة سوء التفاهم وفي تنقية صورة كل طرف في وجدان الطرف الآخر وفي البحث عن أقنية للتعاون والعمل المشترك لمصلحة الشعبين وخيرهما ولمصلحة الإنسانية وخيرها.

* * *

وكان الحوار صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة. وما أن انقضت الجولة الأولى التي كانت مخصصة لتأكيد النوايا الطيبة حتى أتت جولة الحقائق المرة. وتبين تماماً أن ردم الهوة الكبيرة التي تفصل بين الطرفين

ليس بالأمر السهل. كان الطرف العربي مجمعاً ودون أي نشاز من أية جهة - بما في ذلك ممثلي شعب مصر العربي - على أن سياسة الولايات المتحدة في المنطقة العربية هي التي تقطع الطريق على أي أمل في التفاهم. إن الولايات المتحدة هي التي تمد إسرائيل بالطائرات والمدافع والدبابات، وهي التي تملأ خزانتها بالدولارات، وهي التي تحميها في المجالات الدولية، وهي التي تضغط على الحكام المتخاذلين ليمدوا لها يد الاستسلام، وهي التي تتستر على انتهاكاتها لحقوق الإنسان. وهذا هو الظاهر فقط، أما المخفي فالله أعلم به.

وقال العرب للأميركيين كما قال المضيف للضيف في حكاية عربية قديمة مفادها أن ضيفاً وفد على مضيف، وأراد المضيف أن يقدم أفضل برهان على كرمه فذبح للضيف ناقة. والتهم الضيف البرهان بأكمله وامتد بطنه مسافة على أمامه. وحين هم بالمغادرة مد يده ليودع المضيف ولكن يده لم تصل إلى يد المضيف، واستغرب ذلك أشد الاستغراب وأعاد للذهن أنه حين قدم إلى خيمة المضيف استطاع أن يصافحه بالراحة. وقال المضيف متحرقاً:

- أتراك نسيت أن هناك ناقة أصبحت تفصل بيني وبينك.

ولم يبد على كثير من الأميركيين أنهم يشعرون بالناقة التي التهمتها حكومتهم. ولكن الحوار يجب أن يستمر، فلعلهم يشعرون حين تشتد عليهم آلام الهضم.

تشرين الأول ١٩٧٨

* * *

المعجم الذي عرج

(١)

إن المرء يستبشر ويفرح كلما وقع على أية محاولة جادة لإيضاح الشعاب المتداخلة للفكر الحديث وللفن الحديث وللأدب الحديث. من ذلك مثلاً ما أصدرته دار (فونتانا - كولنز) في لندن من «معجم فونتانا للفكر الحديث» بإشراف الكاتبين آلان بللوك وأوليفر ستاليبراس. وقد ضم المعجم بين دفتيه سبعمئة صفحة وأربعة آلاف مادة مرتبة حسب أحرف الهجاء. وأسهم في تحضير المواد نخبة من الباحثين والمختصين منهم كنغزلي أميس، دانييل بيل، أنتوني كونتون، السير بيتر مداور، وغيرهم.

يظل الإنسان مستريح الأعصاب مع صفحات المعجم إلى أن يأتي إلى المواد المتعلقة بالشرق الأوسط. وهي تبلغ أربعاً وعشرين مادة متصلة اتصالاً مباشراً بتاريخ المنطقة وحاضرها وسياستها وفكرها. وقد كتب خمس عشرة مادة منها السيد دونالد وات أستاذ التاريخ الدولي في جامعة لندن. كما كتب مواد أخرى غيرها تتعلق بالشؤون الدولية ومنها شؤون مبدأ عدم الانحياز والأمم المتحدة ونظم الانتداب والإرهاب.

منذ البدء يشم الإنسان رائحة الهوى والتحزب. إن مصطلح مناهضة السامية «انتيسميتزم» يأتي في أول الأبجدية، وهو عند معجم فونتانا - مازال قوة كامنة في الحياة السياسية لأوربا الشرقية وكذلك في الدول العربية حيث يتخفى تحت مظلة العداء للصهيونية -.

ويتجاهل كاتب التحرير تماماً أنه يتحدث عن عداء الساميين لأنفسهم على الأقل حين يدور الكلام على العرب.

ويأتي بعد ذلك دور القومية العربية. وها هو تعريفها كاملاً:

«عاطفة التضامن السياسي والثقافي التي يشعر بها أبناء الدول العربية في وجه المؤثرات والضغوط السياسية غير العربية، وغالباً ما يعبر عنها بلغة مزوقة وعنيفة. وهي تختلف عن القومية الأوربية في كونها تمزج مفهومين منفصلين هما:

الأمية: أي الولاء للأمة - الشعب.

والوطنية: أي الولاء لدولة عربية معينة أو منطقة.

ونتيجة لشعور المسيحيين العرب بأن الانتساب إلى الأمة يتضمن الانتساب إلى العقيدة الإسلامية فقد عملوا على تجنب وضع من الدرجة الثانية في دولة إسلامية وذلك بالعمل على إعطاء القومية العربية عنصراً علمانياً مستعاراً من الأنماط غير الإسلامية مثل اللبرالية الغربية، والماركسية والفاشية والماوية».

* * *

إن هذا التعريف أسوأ وأشد تهافتاً من أن يؤثر في أي إنسان مهما بلغ جهله بمسائل المنطقة وبذلك يسمح المرء لنفسه بإيراده كما هو ليكون شاهداً من جملة شواهد عديدة على عرج المنطق الغربي حين يتعرض لمسائل تخص المنطقة العربية. وهو شاهد فكري طازج جداً يضاف إلى الشواهد السياسية التي تحيط بنا من كل جانب والتي يجب أن تفتح أعيننا على الظاهرة التي سبق أن اقترحنا لها تسمية «الخداع المزدوج».

(٢)

ولم يكن العرج المنطقي في فهم القومية العربية هو العرج الوحيد في منطق «معجم فونتانا للفكر الحديث». كل ما يتعلق بالشرق الأوسط إنما ينطلق من سوء فهم وفي كثير من الأحيان من تحزب وهوى وتحامل.

ويتساءل روجر هاردي، الذي تصدر لنقد هذا المعجم في مجلة «ميدل إيست انترناشنال»، عما يكون من موقف لأنصار الصهيونية لو أن «واط» عرفها - كما فعل بالنسبة للقومية العربية - بأنها حركة عاطفية تضم أمشاجاً من الفكر الأوربي..

وغريب أمر (دونالد واط) هذا. إن حزب الدستور يصلح مادة منفردة عنده، ولكن جمال عبد الناصر لا يؤلف مادة وإنما يوضع تحت عنوان «الوحدة الإسلامية»!! وكذلك حركة «فتح» توضع تحت عنوان «فدائيون» ويترك (واط) لغيره الكلام عنها. وفي مادة منظمة التحرير الفلسطينية يتحدث (واط) عن أولئك السكان العرب الذين كانوا يعيشون في ظل الانتداب البريطاني السابق لفلسطين -!!- والذين هربوا من بيوتهم بعد تأسيس دولة إسرائيل -.

وهو لا يعنى بتفسير كلمات مثل «هربوا» ومثل «السكان العرب». وتحظى منظمة «أيلول الأسود» باهتمامه فيفرد لها مادة خاصة وكذلك يفعل بالنسبة لمنظمتي إيرغون وشتيرن الصهيونيتين.

ويقف (واط) وقفة متعمدة عند كلمة «جهاد» ويحاول أن يربطها بمناسبات معاصرة، فيذكر مثلاً أن الثوار الجزائريين سموا أنفسهم مجاهدين في حربهم ضد الفرنسيين (١٩٥٤ -١٩٦٢)، وكذلك فعل العرب في حرب ١٩٦٧؟ وكذلك فعلت «العناصر الإسلامية في فلسطين». وقد يكون بعض هذه المعلومات صحيحاً جزئياً ولكن المقصود بها طبعاً إسباغ صفة التعصب الديني على النضال العربي ضد الاستعمار.

* * *

ويزيد من استغراب المرء لهذا التحزب والعرج المنطقي أنه يصدر في سنة ١٩٧٨ أي بعد أن أصبحت معظم مسائل الشرق الأوسط السياسية والاجتماعية وكذلك التاريخية واضحة للعيان. كذلك يزيد من استغراب المرء أن المعجم يصدر في لندن، وهي من أكثر العواصم الأوربية اتصالاً بالمنطقة

العربية اقتصادياً وسياسياً وعلمياً وغير ذلك. ويزيد من استغراب المرء كذلك أن (دونالد واط) هو أستاذ التاريخ الدولي في جامعة لندن.

وأي تاريخ دولي هذا الذي يعرفه ويدرسه؟

إن هذه المغالطات ومثيلاتها مازالت موجودة فيما يكتب عن العرب ومنطقهم ومنطقتهم وتاريخهم وسياستهم في المراجع الغربية. وإذا كان المرء يتعرض إلى هذا الموضوع رغبة في التنبيه إلى خطر «الخداع المزدوج»، أي التنبيه إلى المبالغة في الاعتقاد بأن الغرب يسير نحونا خطوات في حين أننا نحن الذين نسير نحوه، فإنه من الضروري التأكيد على أننا لا ننكر وجود تغير نسبي، لعل أبرز مظاهره أن كثيراً من هذه المغالطات تلقى من يرد عليها هناك في بلد المنشأ. وفي حالتنا هذه كان (روجرز هاردي) هو الذي تصدى لتحزبات (واط) وفنّدها.

إن المطلوب هو أن نعرف بالضبط أين نحن منهم وأين هم منا، وأن نتصرف في ضوء ذلك.

حزيران ١٩٧٨

* * *

القسم السادس

الهم الأكبـر

- تعديلات شاملة وانسحابات طفيفة (مسلسل ١ -٤)
- الهنود الحمر
- دلالات نضالية
- الشبيبة الفلسطينية والنضال المتعدد الوجوه
- الخطر الصهيوني المدمر
- بيغن يكشر عن أنيابه
- وثيقة الصهيونية في العهد القديم
- الأكاديمية الزائفة

تعديلات شاملة...
وانسحابات طفيفة

(١)

يقول المثل الشعبي:

«من جرب المجرب كان عقله مخرب».

وحتى ينسجم المثل مع اللغة العربية ومع أصله الفصيح يمكن إدخال تعديلات طفيفة عليه فيصبح:

«من جرب مجرباً كان عقله مخرباً».

وتستريح اللغة ومعربوها.

ولكن هيهات للذين لا يعرفون هذا المثل ولا يعملون به أن يستريحوا.

والمجرب (بفتح الراء) هنا هو الموقف الإسرائيلي الثابت ضد السلام.

والمجرب (بكسر الراء) هنا هو كل من يأمل أية جدوى من السعي بالحسنى مع الإسرائيليين لتحقيق السلام. وليست هذه مرافعة ضد السلام ولكنها مرافعة ضد الأوهام. وهي إذن لصالح السلام، لأن كل تقرب وهمي باتجاه السلام يعني إضاعة الوقت دون طائل وأحكام طوق الغربة من حول السلام. نحن نريد السلام والسلام لا يمكن إلا أن يكون عدلاً وحقاً وإلا فلن يكون سلاماً إنما يكون هدنة مؤقتة لأن أحد الطرفين عاجز ومغلوب وغير قادر على الشكوى ومستسلم مؤقتاً ومتربص إلى أن تحين الفرصة. والعدو الصهيوني يريد (السلام الروماني)، يريد السلام الذي

يتيح له الهيمنة والسيطرة والاستقرار القائم على الغلبة والتسلط والانفراد بخيرات المنطقة.

وهو لا يقبل ذلك، وبديله الطبيعي هو الحرب، ولولا مخافة أن يتهم المرء بالمبالغة والشطط لجرؤ على قول الحقيقة المرة، وهي أن الصهيونيين قد لا يقبلون بالسلام الروماني نفسه حين يتخيلون أنه سيحرمهم من متعة الحرب والقتل والتدمير ولو مؤقتاً.

وعلى الرغم من أن كل الناس تقريباً يعرفون حقيقة الموقف الصهيوني من السلام أو - على الأقل - الجانب الأكبر من هذه الحقيقة فإن بعضهم يصر على أن يثبت أن عقله مخرَّب لأنه يجرِّب المجرَب.

وبالطبع ليس المقصود بهذا الكلام أولئك الكبار الذين يصنعون الأعاجيب من خلال الزيارات والمفاجآت. ولغة هؤلاء هي لغة الصفقات، وقد تكون هذه الصفقات وهمية أو نصف وهمية، وقد يدفعون كل شيء مقدماً على أمل أن تكون آخرتهم فاخرة كالكنافة النابلسية. وهؤلاء أحياناً لا يظفرون حتى بالمقبّلات، ولغتهم غير لغتنا، فلنخاطب الناس الطيبين عسى أن يطور هؤلاء في المستقبل غير البعيد لغة لمخاطبة أولئك.

(٢)

إن التجربة في السياسة، كما في الفكر، كما في الحياة مفتوحة دائماً، وهناك أمم لها أهمية في العالم المعاصر تعتمد (التجريبية) فلسفة لها ومنهجا (الأنكلو سكسون مثلاً).

ولكن أول درس في التجربة ألا يجرب المرء ما جربه سابقاً وإلا فإنه سيعيش في دوامة من التجارب التي تلوك ذاتها ولا تقود إلا إلى نقطة البدء. ومن هنا كانت حكمة المثل العربي.

«من جرب مجرباً كان عقله مخرباً».

وأبسط حقائق تجربة السلام مع العدو الصهيوني أنه كان دائماً يخطط لئلا تقترب ثمرة السلام من النضج، فضلاً عن أن تربة وجوده في الأصل تحمل مصولاً وأسمدة مضادة للسلام بطبيعة تركيبها.

وخلال ثلث القرن الماضي كان هناك حوالي ثلاثة وثلاثين مشروعاً للسلام أو التسوية أو الحل السلمي، بمعدل مشروع واحد في كل عام.

وتطوع أناس من الشرق والغرب و الشمال والجنوب ليبتدعوا صيغاً تجمع طرفين يفصل بينهما تناقض حيوي أصلي.

وفي البدء كان العدو الصهيوني يلعب بالكلمات ويتظاهر بالقبول وكان العرب أشبه بالدب الذي يلعب به الثعلب آكل اللبن ويلطخ وجهه بشيء من اللبن حتى يلصق التهمة به وينجو بنفسه.

ولكن العرب أدركوا اللعبة منذ سنوات ولاسيما بعد أن حلت حرب تشرين كثيراً من عقدهم، واتجهوا إلى المناداة بالسلام وبزوا عدوهم في ذلك وكسبوا عليه الجولة الدولية. ولم يعد هناك ريب في ثبوت معاداة إسرائيل للسلام، فطوال السنوات الأربع الماضية كانت المحافل الدولية تصدر الإدانة تلو الإدانة ضد الدولة العاصية حتى مل الناس من القرارات والإدانات والشجب واللوم والأسى والأسف والتهديد بالإجراءات والعقوبات، ولم تكن المسألة بحاجة لمبادرة «سلام» بقدر ما كانت بحاجة لمبادرة «قوة».

وقد كانت كل إدانة لإسرائيل تحفزها على مضاعفة قوتها، وكان الجواب الصهيوني الطبيعي لنداءات السلام الصهيونية، أصبحت الضفة الغربية غير قابلة للتفاوض لأنها «خنجر» في ظهر إسرائيل، وقطاع غزة غير قابل للتفاوض لأنه جزء من أرض إسرائيل «أريتز إسرائيل»، والجولان لا يمكن التخلي عنها لأن الإسرائيليين لا يمكن أن يسلموا رقبتهم مرة ثانية للسوريين، والقدس عادت مرة إلى أيدي المشتاقين لها ولن يفلتوها مرة أخرى ولو صار العالم كتلة من نار، وسيناء مملوءة بالمعادن وفيها نقاط عسكرية وفيها مستوطنات وفي الأصل تاه فيها الإسرائيليون أربعين عاماً، فعلى الأقل يجب أن يقيموا فيها غير تائهين لمدة

أربعين عاماً. وهكذا يصبح قرار مجلس الأمن المرقم ٢٤٢ شيئاً آخر بين يدي الإسرائيليين، ويصر مناحيم بيغن على أنه لا يعني الانسحاب الشامل مع تعديلات طفيفة وإنما يعني «تعديلات شاملة مع انسحابات طفيفة».

وهذا بيت القصيد. وغير هذا لن يكون إلا حين تكون لغة الحسنى مبطنة بمعان غير مهذبة.

إن التجربة التي يجب أن نكف عنها هي استجداء السلام.

وأما التجربة التي يجب أن نعمل لها بكل قوانا فهي صنع السلام.

(٣)

من الثابت أن النوايا الإسرائيلية لن تكل في المسعى من أجل التوصل إلى تجويف قرار مجلس الأمن المرقم ٢٤٢ وتحويله إلى مهزلة، تماماً كما كان الأمر بالنسبة لمختلف القرارات غير السعيدة التي صدرت عن هيئة الأمم المتحدة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وأزمة الشرق الأوسط.

وليس القرار ٢٤٢ مما يدافع عنه أو يتمسك به أو يترحم عليه الإنسان، ذلك لأنه أسوأ قرارات مجلس الأمن على الإطلاق. ومع ذلك فإن الإسرائيليين منذ البدء حاولوا التملص منه أو تفريغه من أي معنى لغير صالح مطامعهم مع أن كل الناس فهموا أن القرار المذكور وضع أصلاً لصالح إسرائيل.

إن القرار الذي فسرته مختلف الأوساط الدولية المعتدلة بأنه يعني انسحاباً شاملاً مع تعديلات طفيفة في الحدود حيثما اقتضى الأمر ذلك قد أصبح اليوم عند الإرهابيين الرسميين يعني: «تعديلات شاملة وانسحابات طفيفة». وليس هذا بمستغرب عند من يعرف طبيعة العقلية الصهيونية وخصوصاً حين يجتمع لها الجناحان: بيغن الإرهابي ودايان (الحريجي).

وبعد مضي سنة فقط على صدور القرار غير الطيب الذكر، أدلى دايان في اجتماع مغلق لكتلة حزب العمل ببيان جاء فيه - وفقاً لما نشرته جريدة «معاريف» في ١٩ حزيران ١٩٦٨ -:

"على إسرائيل ألا توافق على قرار مجلس الأمن تحت أية ظروف لأن هذا القرار يدعو بوضوح إلى انسحابنا إلى خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧. وليس من المفيد أن يتلاعب الإنسان بالكلمات في محاولة لفهم القرار فهماً مغايراً لذلك».

وجاء في هذا البيان أيضاً:

«بالنسبة لإسرائيل تشكل المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط ونهر الأردن وحدة أرضية متماسكة. وإنني أقاوم بشدة تخطيط أية حدود من شأنها أن تقسم هذه الوحدة الأرضية».

وبعد عشر سنوات من تاريخ هذا التصريح يجد موشي دايان ورئيس وزرائه بيغن «أنه من المفيد أن يتلاعب الإنسان بالكلمات» لكي يتملص من الالتزام بالانسحاب. وإذا بالقرار نفسه يمكن أن يفهم «فهما مغايراً»، وإذا بمناحيم بيغن يدلي أمام المؤتمر الصهيوني في القدس (١٩٧٨/٢/٢٦) بما يفيد أن القرار لا يلزم إسرائيل بالانسحاب الشامل لأنه يقول: «انسحاب من أراض محتلة» وحسب، وأنه بوجه خاص لا يشمل الضفة الغربية التي «ليست أرضاً محتلة بل أرضاً إسرائيلية محررة».

وهكذا إذن لا مجال لتقييد العقلية الصهيونية بقرار دولي أو بالتزام تعاقدي، ولن يوقفها شيء سوى ما يوقف المعتدين عامة من وسائل القوة. ومن سخرية الأقدار أن العالم كله يعرف ذلك ما عدا بعض الجهات العربية التي يجب أن تعلم ذلك قبل غيرها لأن لها من الأراضي المحتلة أكبر نصيب.

* * *

وعلى الرغم مما يتضمنه شعار «تعديلات شاملة وانسحابات طفيفة» من مرارة تشاؤم فإنه لا يعكس الحقيقة المرة بكاملها. ولقد أثبت الاحتلال الإسرائيلي المتكرر لجنوب لبنان أن الانسحابات الطفيفة لن تكون من الأراضي المحتلة إلى داخل إسرائيل بل ستكون من إسرائيل إلى أراض

عربية جديدة. والتعديلات الشاملة لن تكون من الأراضي المحتلة إلى داخل إسرائيل بل ستكون من إسرائيل إلى أراض عربية جديدة. والتعديلات الشاملة لن تكون - في تخطيط الإسرائيليين - على حساب الأراضي المحتلة منذ أحد عشر عاماً فقط ولكن أيضاً على حساب أراض عربية جديدة. وهكذا يكون احتلال جنوب لبنان إشارة لبدء تنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وفقاً للفهم الإسرائيلي له.

والولايات المتحدة الأمريكية مستعدة دائماً لأن تشهد بأن الفهم الإسرائيلي هو الشرعي وهو المنطقي، وأن تعاند كل شعوب الأرض بوضع حق النقض (فيتو) في خدمة المنطق المقلوب.

وهذا ما يرشحها في نظر بعض الجهات العربية لأن تكون (حكَماً) مطلق الصلاحية، هذه الجهات التي تعرف أكثر من غيرها أنه من أبسط شروط (الحكَم) ألا يكون (خصماً).

(٤)

إن احتلال لبنان ليس وليد ساعته، ولا هو رد على عملية طريق حيفا –تل أبيب، ولا هو إطفاء لنار المخاوف الإسرائيلية على مستعمرات الشمال. إنه –كما هو شأن كل ما يفعله العدو- تطبيق لسياسة قصدية مرسومة منذ حوالي قرن من الزمان، وقد سبقته محاولات وتجارب عديدة كان غرضها تطبيق المبدأ التوراتي –الصهيوني الثابت وهو الاستيلاء على الأرض بغير سكان. وحين توافر هذا الشرط بالإضافة إلى التغطية الدولية اللازمة من داخل المنطقة ومن خارجها اجتاح جيش الإرهاب منطقة الجنوب اللبناني بمثل هذه الاستعراضية وبمثل هذا التحدي السافر للمنطقة وللعالم.

وكان عدوان ١٩٦٧ قد حقق لإسرائيل احتلال جزء كبير من المناطق العربية التي تضمنتها الخريطة التي قدمها الوفد الصهيوني إلى مؤتمر الصلح

في باريس سنة ١٩١٩. وكان ينقص هذه الخريطة الرسمية للإيديولوجية الصهيونية جنوب لبنان وبعض المناطق الأخرى. إن الصهيونيين يقصدون كل ما يقولونه: ولذلك علينا أن نقرأ الكلمات التالية بمنتهى التبصر:

«يحد فلسطين غرباً البحر الأبيض المتوسط، وفي الشمال جبل لبنان، وفي الشرق الصحراء السورية صحراء الشام وفي الجنوب شبه جزيرة سيناء، هذه هي الحدود التي حددتها الطبية لفلسطين».

«وبكلمات أخرى تضم فلسطين النقب برمته، واليهودية، والسامرة، والجليل، وسنجق حوران، وسنجق الكرك - بما في ذلك معان والعقبة - وجزءاً من سنجق دمشق. أي أقضية القنيطرة ووداي عنجر وحاصبيا».

ولقد ورد هذا التحديد في مقال نشرته جريدة «فلسطين» اليهودية في حزيران سنة ١٩١٨. أما كاتبا المقال فهما:

- دافيد بن غوريون، أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني، وقد دامت رئاسته حوالي عقدين من الزمن.

- اسحق بن زفي، ثاني رئيس دولة للكيان الصهيوني.

وما أكثر ما يتكرر مثل هذا الكلام في المراجع الصهيونية.

ولقد أثبتت أحداث ثلث القرن الماضي أن هؤلاء يعنون ما يقولونه حرفياً. أنهم لا يعملون في طريق الانسحاب ولكن في طريق استكمال المرحلة الأولى للمشروع الصهيوني.

وهكذا فإن منطق التوسع الصهيوني لن يرضى حتى لو تحقق التلاعب الكلامي وانقلب الشعار (المعتدل جداً) من «انسحاب شامل وتعديلات طفيفة» على «تعديلات شاملة وانسحابات طفيفة».

آذار ١٩٧٩

* * *

الهنود الحمر

في منتصف الستينات وقبل هزيمة حزيران بسنتين أتيح لي أن أزور في لندن الكاتبة البريطانية (أثيل مانين) مؤلفة الروايات المعروفة عن نكبة فلسطين مثل «الطريق إلى بئر السبع» و«الليل والعودة».

كانت أثيل مانين تردد في كل لحظة أن الفلسطينيين هم الهنود الحمر للنصف الثاني من القرن العشرين. وكانت ترى بوضوح أن ما تطلبه الصهيونية ليس أقل من استئصال شعب بأكمله.

ويومها قلت لأثيل مانين أن الفلسطينيين ليسوا سوى الطعم والمقدمة، وأن المقصود بالمؤامرة الكبرى هو الوطن العربي بأكمله الذي تقع فلسطين موقع القلب منه.

وظلت أثيل مانين تكرر طوال حياتها:

«الفلسطينيون هم الهنود الحمر، ومصيرهم مصير هنود أميركا وليست مذبحة دير ياسين سوى نموذج لما يخطط له الإسرائيليون من إبادة لشعب فلسطين».

خلال حرب ١٩٤٨ كانت مقدرة الإسرائيليين على الذبح محدودة، فذبحوا من الفلسطينيين بقدر ما استطاعته أسلحتهم وإمكاناتهم.وبعد حرب ١٩٦٧ اكتشفت إسرائيل ضخامة قدرتها على الذبح، وسلطت قواها الغاشمة على جنوب لبنان، وهكذا منذ اثنتي عشرة سنة مازالت هذه البقعة الصغيرة من الأرض العربية تتعرض للغزوات البرية والإغارات الجوية والهجمات البحرية حتى أنه لن يكون من قبيل المبالغة أن توصف منطقة جنوب لبنان

بأنها منطقة تدريب عسكري حي للقوات الإسرائيلية وحين يفتقد المرء مغزى سياسياً للحملات العسكرية الإسرائيلية فإنه يجب أن يجد التفسير في مجال الضرورات التدريبية العسكرية.

* * *

وليست الضحية شعب فلسطين وحده. إن الجرح الفلسطيني ينزف وينزف وينزف، والناس يقتلون بالعشرات والمئات، والمخيمات تدمر وسيل النزوح متواصل. هناك إلى جانب الشعب العربي الفلسطيني، اللبنانيون العرب المعذبون في الجنوب وهم يذبحون ويقصفون ويهجرون، وتدمر منازلهم وتنهب خيراتهم، ولا يستقرون على حال.

هذا الجرح النازف دماً ومعنويات، لا يحس به منذ عقد السنين –إلى جانب المكويين بناره- سوى القطر العربي السوري. إنه جرح عربي يهدد الأمة العربية في الصميم، ولكنه أصبح عند كثير من الناس مسألة روتينية يقرأون عناوين أخبارها في الصحف ولا يكلفون أنفسهم مشقة تذكر أرقام الضحايا على الأقل.

وبالطبع ليس هذا الكلام من قبيل إنكار التعاطف العربي أو الالتفاف العربي حول القضية وشعبها. لكن القاعدة هي أن الذي يواجه والذي يضحي هو الذي يتحسس أكثر من غيره. وقد أثبتت الوقائع المستمرة أن العرب السوريين هم الذين ما برحوا يؤكدون أن هناك من سيتصدى ويشارك ويضحي في سبيل تخفيف النزيف عن الجرح الفلسطيني اللبناني الذي هو جرح العرب أجمعين، وأن سورية العربية، كما كانت دائماً، تضع مصيرها كله في الرهان، وهي تعلم تماماً ما هي مقدمة عليه من مجابهة، وتعلم تماماً أن كل شبر من التراب العربي يقع في نطاق مسؤوليتها القومية، مثلما ينبغي أن يقع في مسؤولية أية دولة عربية قادرة.

ولكن كارثة جنوب لبنان، تمر في وجدان بعض أبناء قومنا، كما مرت كوارث أخرى كثيرة في السابق، دون أن تثير ما ينبغي أن تثيره من تآلف

قومي، ونهوض إلى العمل، واضطلاع بمتطلبات المسؤولية، وكأنهم بعيدون عن متناول النار المشتعلة.

وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الذي خان في كامب ديفيد وفي القدس وفي الإسماعيلية وفي الإسكندرية يعمل الآن على توسيع خيانته لتشمل جنوب لبنان بل لبنان بأكمله بل قلعة الصمود التي تجاور لبنان.

ولعل أسوأ جانب من جوانب كارثة جنوب لبنان، أنها تبدو مستمرة بغير نهاية ولا يستطيع إنسان أن يقول أنها تنتهي اليوم أو غداً أو بعد غد. كما أنه لا يستطيع مراقب أن يقول أنها ستنتهي على هذا النحو أو ذاك.

* * *

ولئلا تستمر الأمور على ما هي عليه، ولئلا تتطور الأمور إلى أخطر مما هو ظاهر في ساحة الرؤية حالياً، فقد أصبح من الواجب أن يقال لجميع المتفرجين من الهنود الحمر الذين لم يلفحهم وهج النيران المشتعلة بعد:

- إن المسألة تخصنا جميعاً، ومن غير الحكمة أن ننتظر حتى يأتي دور كل منا على حدة، كما كان الشأن دائماً منذ مطلع هذا الزمن العربي الصعب.

تموز ١٩٧٩

* * *

دلالات نضالية

تستمر السلطات الإسرائيلية في ملاحقة شباب «الحركة القومية التقدمية» التي تضم معظم الطلاب العرب الذين يدرسون في مؤسسات التعليم العالي في الكيان الصهيوني. ويبدو أن هذه السلطات باتت على قناعة بأن وسائل الملاحقة العادية وما يتبعها من تعذيب وسجن وإهانة وتجريد من الحقوق (بشهادة أصدقاء إسرائيل!) هذه الوسائل ليست على درجة كافية من الجدوى والفعالية. ومن هنا بدأت الأصوات الصهيونية تتنادى إلى معالجة الموضوع على مستوى فكري سياسي، وهناك ما يشير إلى وجود اتجاه لعقد مؤتمر مصغر من الاختصاصيين يهدف إلى تحليل ظاهرة «الحركة القومية التقدمية» واستخلاص الأساليب النوعية الناجعة لمعالجتها بما يعيد الطمأنينة إلى نفوس المسؤولين الصهاينة الذين يدركون تماماً ما تعنيه هذه الظاهرة.

وقد التفتت الأنظار إلى ظاهرة «الحركة القومية التقدمية» منذ الاجتماع الرابع عشر للمجلس الوطني الفلسطيني بدمشق في شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٩. إذ حاولت هذه الحركة بمختلف الطرق إيصال رسالة إلى المجلس تؤكد أن الطلاب العرب في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ - وهم يحملون الجنسية الإسرائيلية بحكم الزمن والواقع - يرفضون الكيان الصهيوني من أساسه، ويتمسكون بهويتهم العربية القومية التقدمية، ويشيرون بأصبع الاتهام إلى أي حزب أو تنظيم سياسي ينطلق من قبول الوجود الإسرائيلي، ويعتبرون أنفسهم طليعة نضال الشعب العربي الفلسطيني الموحد:

«الحركة القومية الفلسطينية، بكونها جزءاً من الشعب الذي يعاني من نير الاحتلال الصهيوني في كل فلسطين، هذا الشعب الذي يناضل ضد الاحتلال ببطولة نادرة، لا تقبل بالكيان الصهيوني».

ومن هذه النقطة المبدئية تنطلق مجموعة من المواقف السياسية الواضحة لهذه الحركة وأهمها:

- النضال ضد محاولات التسوية والتصفية.

- رفض «زيارة الخيانة التي قام بها رجل نظام الحكم البورجوزي المصري المتمثل في السادات».

- المناداة بتوحيد منظمات المقاومة الفلسطينية.

- إقامة جبهة وطنية فلسطينية - أردنية.

- إقامة جبهة قومية عربية تضم غالبية حركات التحرير والحركات القومية والحركات الشعبية في الوطن العربي.

- العمل من خلال ميثاق طرابلس وجبهة الصمود والتصدي.

- تأييد نضال العمال المصريين والشعب المصري.

- تأييد الثورة الإيرانية.

وليس هذا المجال مجال تفصيل هذه البنود وتحليها ويمكن للقارئ المهتم مراجعة مجلة الأرض لمتابعة نصوص هذه المواقف وتوضيحها (ع١١، س٦، ١٩٧٩/٢/٢١)..

إن المهم هنا التأكيد على دلالة ظاهرة «الحركة القومية التقدمية» من حيث أنها تعبير عن استمرار الروح العربية وقوتها فيما أصبح يسمى بعد سنة ١٩٤٨ «الأقلية العربية في إسرائيل». إن هذه الحركة تضم طلاب التعليم العالي في الدولة الصهيونية، وقد وقع البيان المشار إليه ممثلون عن مجالس الطلاب في جامعات القدس وتل أبيب وحيفا وبئر السبع، أي أهم الجامعات الإسرائيلية.

وليست هذه الظاهرة معزولة ولا هي فريدة من نوعها. فقد شهدت السنوات الثلاثون الماضيات ظهور حركات سياسية مختلفة تؤكد على الهوية القومية العربية «للأقلية العربية» في فلسطين المحتلة، كما أن العمال والفلاحين هناك لم يقصروا أبداً في الانخراط في صفوف المقاومة الفلسطينية، ولهم الفضل في تنفيذ كثير من العمليات التي جرت في الأرض المحتلة قبل عام ١٩٤٨، كما أنه نبغ من هذه (الأقلية) كتَّاب وشعراء ومناضلون كثر رفضوا الهوية الإسرائيلية وأكدوا على عروبتهم وولائهم للتراب الفلسطيني.

وإذا نحن قارنا قوة هذا النضال وتصاعده بما جرى استخدامه من أساليب صهيونية مدروسة ومخططة بعناية لطمس الهوية القومية لعرب فلسطين ولسلخهم عن ماضيهم وولائهم القومي تبين لنا سبب المخاوف التي تنتاب السلطات الإسرائيلية من هذه الحركات القومية وتحسبها الكبير للمستقبل.

نحن ههنا إزاء أناس لا يناضلون ضد الاحتلال فقط بل ضد الكيان الصهيوني. وهم يزدادون قوة باستمرار.

ومن خلال ازديادهم عدداً ووعياً ومقدرة تزداد الأخطار التي تهدد الكيان الصهيوني من الداخل، ومن خلال تزايد اتصالهم بقوى النضال العربي خارج الأراضي المحتلة تتضاعف مقدرتهم على العمل الفعال.

إن العدو غير غافل عن هذه الأخطار وهو يهيئ الخطة تلو الخطة لمواجهة الظاهرة القومية العربية في الأرض المحتلة. وإن المرء يلفت النظر إلى هذه الظاهرة ليس لمجرد الإشادة بالبطولة أو التغني بروح النضال فحسب بل قبل ذلك من أجل التنبيه إلى ضرورة إبراز معنى هذا النضال من جهة إلى ضرورة دعمه بالوسائل الفعالة والمدروسة التي تكفل له الاستمرار - من جهة أخرى.

وبالطبع أن أعظم دعم يمكن أن نقدمه لهم هو إقامة جسر من التواصل بينهم وبين الحركة الثورية الفلسطينية ومن خلال تحركها ضمن برنامج موحد للعمل والاتصال والتنظيم. كما أن أخطر ما يمكن أن يتعرضوا له هو العمل على تقاسمهم من مختلف الجهات وتعريض جهودهم للتبعثر تحت وطأة التعددية.

وليس هذا هو الجانب الوحيد للمشكلة، ولكن هناك في تجربتنا الراهنة ما يدفع إلى الاعتقاد بأنه أشد الجوانب حساسية، ذلك أن الشعور القومي والعمل النضالي كانا موجودين دائماً على أرفع مستوى بين أهلنا في الأرض المحتلة عام ١٩٤٨، وكان التبعثر دائماً من أخطر الأزمات التي عانى منها هذا النضال البطولي العظيم.

فليكن ابتداؤنا من معالجة هذه النقطة.

آذار ١٩٧٩

* * *

الشبيبة الفلسطينية..
والنضال المتعدد الوجوه

تتفاوت حظوظ الشبيبة في هذا العصر تفاوتاً شديداً، سواء في داخل كل بلد أو بين كل بلد وآخر من بلدان هذا العالم. وقطاع الشبيبة هو القطاع الاجتماعي الأكثر معاناة في العادة لأنه القطاع الذي تتحدد ظروفه اليومية وجزء كبير من مصيره على ضوء الشروط الاجتماعية التي تميز المرحلة، باعتبار أن الجيل الصاعد في أية مرحلة من المراحل يكون إما على وشك التهيؤ لدخول الحياة العملية أو في بداءة هذه الحياة، وفي الحالتين يجد الجيل نفسه مضطراً إلى البدء من النقطة التي وصلت إليها الشروط الاجتماعية في تلك المرحلة. ففي البلدان الرأسمالية والبلدان التي لم تقطع شوطاً ملموساً في التحول اللارأسمالي يجد معظم الشباب (باستثناء أبناء الطبقة ذات الامتيازات) أنفسهم أمام تحديات اجتماعية قاسية ويدخلون الحياة دون أن تتوافر لهم فرص كافية من التعليم والإعداد المهني والعناية الصحية والتوجيه الاجتماعي وأحياناً السياسي. ولكن ليس هذا هو الوجه الوحيد للتفاوت. فهناك التفاوت الآخر بين فرص الإعداد والتهيؤ للحياة التي تتاح للشبيبة في الأقطار الأكثر تقدماً في العالم وبين الحرمان المتعدد الوجوه الذي تعاني منه الشبيبة في البلدان المتخلفة.

وبالنسبة للشبيبة الفلسطينية تتخذ هذه الفروق شكلاً أوسع وأكثر حدة. فمن جهة تشكل الشبيبة المحرومة، سواء تحت ظل الاحتلال الصهيوني أو تحت وطأة المنفى وظروفه المختلفة، القطاع الأكبر من الشبيبة الفلسطينية، ومن جهة ثانية يكاد الحرمان الذي تعاني منه فقط، ولا هو حرمان ثقافي فقط،

بل هو حرمان نفسي إن صح التعبير وشعور - ظاهر أو باطن - بالذل والإهانة والاستلاب والنفي. ولذلك يمكن القول أن ظروف الشبيبة الفلسطينية، بالنسبة للظروف العامة التي تحيط بالشبيبة في أقطار العالم المعاصر، هي أسوأ الظروف وأقساها وأشدها تجهماً.

ويعلمنا التاريخ أن كل وضع قائم على الظلم يحمل في ذاته بذور تغييره. وقد أثبتت التجربة أن الشبيبة الفلسطينية لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء ظروفها الصعبة ولا هي تعقدت بنتيجة هذه الظروف بالذات، بل استمرَّت في نضالها الإيجابي من أجل أحداث التغيير المطلوب على المستويين القومي والاجتماعي، وخلق ظروف أفضل للشباب الفلسطيني في إطار النضال القومي المشترك للشبيبة العربية.

على أن هذا التصميم يضع أمام الشبيبة الفلسطينية مهمات نضالية مزدوجة ومتعددة الجوانب، ولابد للشبيبة من أن تدرك طبيعة هذه المهمات حتى يأتي نضالها في مستوى التحديات من جهة وحتى تكون الخطوط الإستراتيجية لهذا النضال - من جهة أخرى - متدرجة ومترابطة وذات مدى بعيد، ذلك لأن النضال ليس اندفاعاً وراء الاستشهاد أو تكفيراً عن الذنوب أو تأكيداً على البطولة ولكنه معركة ذات أهداف، والغاية الطبيعية لكل معركة هي تحقيق النصر.

ومن الواضح أن النضال التحرري هو الوجه الأول والمقدَّم على مختلف الوجوه الأخرى لنضال الشبيبة الفلسطينية. وهذه الأولوية تنبثق طبعاً من واقع الشعب العربي الفلسطيني الذي اغتصبت أرضه كلها خلال ربع القرن الماضي وأصبح بنتيجة ذلك نصفين يعيشان في ظروف متباينة ولكنها ملتقية عند معاني البؤس والقهر والاستلاب. إن نصف الشعب العربي الفلسطيني يعيش في أرضه تحت ظل الاحتلال الصهيوني الاستيطاني الذي يعمل على تهويد الأرض المحتلة وتحويل الجماهير الشعبية، والشبيبة بالدرجة الأولى، إلى قطيع بشري غريب عن هويته القومية والثقافية، وظيفته الأساسية في هذه الحياة أن يوفر الأيدي العاملة

الرخيصة لعجلة الاقتصاد الرأسمالي الذي يتخذ من إسرائيل قاعدة ومعبراً للانطلاق. أما النصف الثاني فهو يعيش منذ سنة ١٩٤٨ حالة تشتت في الأقطار العربية وفي مناطق أخرى من العالم، وتتدنى فرص كسب الرزق والتعليم والعمل السياسي بالنسبة له إلى درجة تقرب من الصفر في مناطق كثيرة.

والشبيبة. كما هو واضح، هي التي تعاني أكثر من غيرها بل هي المستهدفة بالدرجة الأولى من وراء المؤامرات الاستعمارية والرجعية، ولذلك يترتب عليها أن تقوم بدور أساسي في النضال الثوري الذي يخوضه الشعب العربي الفلسطيني لتحرير أرضه. إن تجربة الثورة الفلسطينية لتشهد بأن شبيبة فلسطين كانت وقود الثورة وعمادها، وأنها هي التي تولت المهمات العملية للقتال. واليوم تتصاعد مسؤوليات النضال الثوري الفلسطيني وتتشعب، وتتصاعد أيضاً مسؤوليات الشبيبة الطليعية ويطلب إليها أكثر من أي وقت مضى أن تقوي من عزيمة النضال الشعبي الثوري وأن تمده بنفس المقاومة الأصيلة العنيدة وأن تؤهله ليقوم بدور طليعي في خلق المناخ المناسب لحرب التحرير الشعبية على مستوى الوطن العربي بأكمله.

ولكن الكفاح المسلح في سبيل تحرير الأرض العربية ليس هو الوجه الوحيد للنضال. فالشبيبة الفلسطينية التي تدرك عمق المؤامرة الاستعمارية لتصفية شعب فلسطين وقضيته تدرك أيضاً أن من بين واجباتها الرئيسية الوقوف في وجه مؤامرات التصفية وخلق جميع المقومات السياسية والاجتماعية التي تكفل لشعب فلسطين العربي الاستمرار في وجوده وفي قيامه بدوره النضالي سواء في الأرض المحتلة أو في مناطق التجمع الفلسطيني خارجها، وهذا يستدعي العمل من أجل تحقيق الوحدة الوطنية العملية بين أبناء الشعب العربي الفلسطيني أينما وجدوا. ومن الزاوية الخاصة للشبيبة تبرز هنا أهمية التنظيم على المستوى الفلسطيني الشامل في الخارج والداخل وكذلك أهمية اللقاءات والمشروعات المشتركة بين الشبيبة الفلسطينية في المناطق المختلفة.

وجنباً إلى جنب مع هذه المهمات هناك مهمة العمل المشترك في إطار الشبيبة العربية، والإسهام معها في وجوه نضالها القومي والاجتماعي، ذلك لأن شعب فلسطين جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، وذلك لأن القضية الفلسطينية هي القضية العربية المركزية الأولى وعليها يتوقف مصير المنطقة العربية بأسرها، وكذلك لأن أي نضال فلسطيني معزول عن النضال العربي سيكون قائماً في الفراغ لأنه يقوم على تجاهل معطيات الصراع على الجانبين.

على أن هذا البعد القومي لنضال الشبيبة الفلسطينية لابد من أن يرقد ببعد آخر على المستوى العالمي، وهو النضال المشترك مع شبيبة العالم الثائرة ضد الظلم والاضطهاد والتفرقة العنصرية والاحتلال والرجعية والتخلف. وإن شباب فلسطين وفتياتها مؤهلون كل التأهيل للقيام بهذا الدور النضالي على المستوى العالمي لأن القوى التي تحاربهم وتساند عدوهم هي قوى الاستعمار والامبريالية التي تضطهد شعوب العالم وتحيله إلى حلبة للاستغلال والتدمير. وشباب فلسطين يدركون أكثر من غيرهم البعد العالمي لقضيتهم ويعرفون أن اجتثاث الاستعمار الصهيوني من أرضهم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنتيجة المواجهة الشاملة بين قوى الاستعمار من جهة وقوى التحرر والتقدم من جهة أخرى.

إنها لمهمات صعبة ومتعددة، ولكن التاريخ عودنا أن النضال لابد أن يكون في مستوى التحديات، وإن المؤشرات التي تحملها حركة الشبيبة الفلسطينية لتدل على أنها مدركة لأبعاد النضال الذي تخوضه، مصممة على المضي به إلى أهدافه المرسومة، عاقدة العزم على بذل الغالي والرخيص في سبيل معركة التحرير، ومؤمنة - قبل كل شيء - إيماناً لا يتزعزع بأنها تناضل في سبيل هدف حق وأنها قادرة على رفع مستوى نضالها إلى مستوى قدسية الهدف حتى يتحقق النصر المنشود وتعود فلسطين عربية حرة.

* * *

الخطر الصهيوني المدمر

(١)

عتب صديق في موقع المسؤولية على أولئك الذين لا يجدون موضوعاً سوى الصهيونية وإسرائيل. وتحدث عن المبالغة في هذا الشأن حتى أوحى لي بأن الصهيونية هي موضوع من لا موضوع له من الكتّاب، فكأنها مهنة التعليم التي يقبل عليها الإنسان حين لا يجد مهنة أخرى. فلذلك كل الناس يبدأون مثلاً معلمين والسعيد السعيد من ينتهي إلى مهنة أخرى ذات أهمية. العجيب أن الصديق المسؤول من الذين انتهوا إلى مهنة أخرى مهمة والأعجب أن جانباً كبيراً من مهمته يكمن في تجنيد التأييد العالمي للحق العربي وللنضال العربي ضد الصهيونية.

يخطر لي الآن فقط هذا الخاطر:

- إما أنه يقرأ كل ما يكتب في صحفنا عن الصهيونية ولذلك ضاقت به نفسه ولم يبق للصبر مكان عنده.

- وإما أنه لا يقرأ شيئاً ويكتفي بما يردده كل يوم، وينام على لحن: القناعة كنز لا يفنى.

وما كنت لأهتم بما يقوله صديقي لو كان ظاهرة خاصة أو معزولة. إنه نموذج لقطاع من الناس بدأ يضيق ذرعاً بما يكتب في هذا الموضوع.

أقول:

- إذا كان هذا الضيق مدفوعاً بالاتجاه إلى التشديد على مزيد من العمل واختصار من القول فيا مرحبا به، وما أظنه إلا اتجاه صديقي ذاك.

- أما إذا كان باتجاه إلقاء الراية والزحف وراء (الزيارة) بمناسبة اقتراب (العيد) - وما أظن الأمر كذلك - فتعساً له ولأصحابه وليموتوا بغيظهم.

إن التصدي للعدو بكل شكل وفي كل دقيقة هو همّنا الأول والأخير حتى تنجلي الغمة وتنام آمين.

(٢)

ضمتني على وقعة غداء حلقة من الأصدقاء، فيهم إنسان يتهيأ للسفر في مهمة طويلة، وقد حزم حقائبه فإذا هي تملأ السهل والجبل لأنها تضم هموم الوطن الكبير كله... حدثنا عن همّ كبير جديد لم يستطع أن يحزمه في الحقيبة وآثر أن يحمله على منكبيه كما يحمل المسافر الباكستاني لحافة الأثير حين يمتطي (بيا) أو (السورية) من كراتشي إلى لندن.

إنه ليس همّاً جديداً بل عودة إلى التأكد من حدس قديم قديم. قال: إن الصهيونية أخطر من النازية لأنها أكثر دهاء من جهة ولأن قدرتها الكامنة أكثر خفاء من جهة أخرى.

وتحدثنا عن السلاح الذري الإسرائيلي، وتحدثنا عن الخمس عشرة قنبلة المخزونة، وتحدثنا عن (سرقة) اليورانيوم من مستودعات الحكومة الأميركية - كأن اليورانيوم سيارة جارنا أبي عبد الله -، وتحدثنا عن التعاون الذري بين إسرائيل وجنوب إفريقية، وتحدثنا عن مشروعات ذرية وجرثومية مشتركة بين إسرائيل وحليفاتها.

وتساءلنا:

هل تخطط الصهيونية لأن ترهن وجودها بوجود العالم، بحيث تهدد بتدمير العالم أو المنطقة على الأقل إذا شعرت بأي تهديد لوجودها... وإلا فما معنى هذا التكديس العسكري وهذا التركيز على العلم العسكري التدميري.

وتساءلنا كذلك:

- حين تشعر إسرائيل بالخطر المحدق هل ستفكر في الخيار الذري على نحو ما يفكر بعض الباحثين العرب الذين يعتقدون بصعوبة لجوئها إلى هذا الخيار؟

واسترسل بنا الخيال وتلوَّنت الجلسة وتشعب الكلام وذهب بنا مذاهب. ثم تفرقنا غير مطمئنين إلى ما توصلنا إليه، ولكننا كنا متفقين على شيئين اثنين:

الأول: إننا يجب أن نبرز بشدة فكرة العداء الصهيوني للعالم، والخطر الذي تنطوي عليه التطبيقات المنتظرة لهذا العداء، مع التأكيد على إمكان القضاء عليه خلافاً لما تعطيه مثلاً (بروتوكولات حكماء صهيون) من تأكيد على أن مفاتيح العالم وقعت نهائياً في قبضة الصهيونية.

الثاني: إننا مستمرون في الكفاح لأجل العرب ولأجل الإنسانية مهما طالت الطريق وبلغت التضحيات وساءت الاحتمالات، وأنه -كما قال مناضل بارز من مناضلينا - لكل حادث حديث والاحتمال الذري الإسرائيلي لابد أن يقابله احتمال عربي من نوع مماثل.

والمهم أن نضع في ساحة وعينا باستمرار أن المسألة جد إلى أقصى حد.

تموز ١٩٧٨

* * *

بيغن يكشر عن أنيابه

المصطلح العربي (كشّر عن أنيابه) يفيد معاني عدة منها التحفز للانقضاض على الفريسة وتمزيقها بالأنياب، ومنها المحاولة المفتعلة للابتسام البشع، ومنها محاولة تغطية الانقضاض بالتظاهر بالابتسام، وغير ذلك.

ابتسامة الإرهابي بيغن كانت دائماً بشعة ومفتعلة، ولكنها خلال المؤتمر الصحفي الذي عقده في الإسكندرية (١٩٧٩/٧/١١) مع صديقه الحميم وفريسته المخدرة أنور السادات كانت في أقصى حالات القبح، وربما استوحاها أحد الرسامين نموذجاً لما يكشف عنه افتعال الجمال (لأن الابتسامة جمال) من إمكانيات مخبوءة في بطون القبح.

ورب قائل يقول: هل أصبحت المسألة بيننا وبين بيغن مسألة قبح أو جمال؟ والحق أنها ليست كذلك ولن تكونه. ولكن المتمعن في سر قبح تكشيرة بيغن يستنتج بسهولة أنها تستمد قبحها من لا إنسانية الموقف الذي تحاول أن تغطيه ومن زيفه كذلك، وقد تعلمنا دائماً نحن أهل الأدب أن الشكل يحمل في طياته سر المضمون.

يقول الإرهابي بيغن في المؤتمر أمام الصحفيين، مستصغراً عقل صديقه وفريسته، ومستهتراً بمنطق سامعيه، ومتحدياً المعلومات المتوافرة لدى كل الناس:

- إن إسرائيل على حق في إقامة المستوطنات. لأنها تقيمها فوق أرض بور قاحلة لم يعتن إنسان بزراعتها واستثمارها.

ويقول كذلك أن إسرائيل تمارس حقاً طبيعياً في استثمار الأرض.

ويطمئن الصحفيين كذلك بأنه متفق مع صديقه وخليله السادات على أنهما مختلفان حول هذه النقطة.

وهكذا أصبحت الضفة الغربية أرضاً خراباً ونابلس والخليل امتداداً للصحراء. وهكذا تصبح بلاد الناس مشاعاً لمن يستثمرها من الشاطرين. وبالتالي تصبح رسالة إسرائيل - من خلال منطق الإرهابي بيغن - هي إعمار كل منطقة في العالم يقصّر أهلها عن إعمارها.

لكن أين القبح في كل ذلك؟

لنقل أنه باختصار على الصورة التالية:

لكي لا يجرح بيغن المشاعر الرقيقة لصديقه وخليله وفريسته، ولكي لا يثير الرأي العام العالمي ضده بتكرار أقواله السابقة في كون الضفة الغربية أرض إسرائيل، فإنه حاول أن يوارب الأمر بالحديث عن ممارسة حق الإعمال والإثمار لأرض بوار.

وبهذا يكون قد نجح في تجنب تجريح المشاعر الرقيقة لصاحبه وتجنب إثارة الرأي العام العالمي. وذلك عن طريق ذبح منطق صاحبه من جهة والاستهتار بمعلومات الناس ومداركهم من جهة ثانية، وهو نجاح لا يمكن تمريره إلا بطريقة التكشير على الأنياب.

تموز ١٩٧٩

* * *

«وثيقة الصهيونية في العهد القديم»

«وثيقة الصهيونية في العهد القديم» كتاب جريء إلى أبعد حدود الجرأة، إنه «وثيقة» من نوع خاص يقدمها الدكتور جورجي كنعان متوخياً الدقة العلمية، وملتصقاً بالنصوص، والشواهد، ومقتصراً من الاستنتاج على ما هو ظاهر جلي.

والحماسة التي ترافق المقدمة والخاتمة وبعض المواضع الأخرى في الكتاب هي حماسة مشروعة، لأنها غير مسقطة من الخارج على الكتاب بل منبثقة من حرارة الاكتشاف ومن قوة الاحتكاك الناجمة عن مقارنة الماضي بالحاضر.

يتناول الكتاب بالتفحص والتحليل الجزء الأول من الكتاب المقدس في كتاب «العهد القديم» من عدة جوانب:

١ - حقيقة وروده بوصفه كتاباً دينياً مقدساً. (لماذا فرض وكيف فرض؟..).

٢ - محتوياته ومادته من حيث صحتها ودقتها التاريخية، وعلاقتها بالنصوص المكتشفة مجدداً في بلاد ما بين النهرين ومصر وسورية. أي علاقتها بما كان سائداً قبلها في المنطقة من معتقدات وأخبار.

٣ - استخدام الصهيونية لكتاب العهد القديم كوثيقة سياسية واستغلالها المشاعر الدينية التي يثيرها في النفوس من أجل حشد التأييد السياسي لخطط الصهيونية وإسرائيل.

٤ - استناد الصهيونية إلى نصوص معينة في «العهد القديم» والانطلاق منها لتسويغ خطط الاستيطان والتوسع والفتك بالسكان والتهجير والإرهاب وإنكار حقوق الآخرين في الحياة.

٥ - الحرص ما أمكن على التخطيط للأحداث التاريخية بحيث تبدو وكأنها تحقيق لما جاء في «العهد القديم» من نبوءات تتعلق بعودة الإسرائيليين إلى السيطرة على الأرض المقدسة.

وفي خلال ذلك كله يعمد الدكتور جرجي كنعان مناقشة الدوافع التي تختفي وراء نصوص العهد القديم من خلال منطلق منطقي إنساني، ويطرح من حولها تساؤلات كثيرة شديدة الأهمية.

* * *

إن كتاب «وثيقة الصهيونية في العهد القديم» غني بالشواهد والنصوص، بارع في ربط مواقف الحضارة بالمواقف القديمة، ولكن يظل أهم ما فيه التنبيه إلى ما تورثه التربية الدينية - في أوربا وأميركا بوجه خاص - من استعداد نفسي لدى المتدين العادي لتقبل الأفكار السياسية للصهيونية والتغاضي عما فيها من شطط وافتئات على حقوق الآخرين ومخالفة لأبسط المبادئ الإنسانية.

وبالطبع هذا سبب رئيسي - من بين أسباب أخرى لا تقل أهمية - في كون الرأي العام المتدين في أوربا وأميركا يقبل من الصهيونيين ما لا يقبله من غيرهم.

- فمثلاً الاحتلال دائماً عمل مرفوض أخلاقياً ودينياً وإنسانياً وسياسياً بوصفه عائقاً أساسياً في وجه السلام. ولكن الاحتلال الإسرائيلي عند الغربيين شيء آخر.

- والإبادة الجماعية جريمة لا تغتفر في أي مكان من الأرض، ولكن حين يرتكبها الصهيونيون فلابد أن لها مسوغاتها من خلال منطق الأمن الإسرائيلي.

- وحق تقرير المصير حق مقدس دائماً. ولكن قدسيته سرعان ما تزول إذا كان الأمر متعلقاً بالشعب العربي الفلسطيني لأن تطبيق هذا الحق قد يحمل تهديداً لسلامة إسرائيل واطمئنانها!!

- الغارات الجوية على المدنيين عار عسكري وسياسي وأخلاقي، ولكن حين ترتكبها الطائرات الإسرائيلية تصبح تدبيراً ضرورياً ليس من شأنه أن يخرق سلّم القيم الغربي أو يهز الوجدان الديني أو الأخلاقي وهكذا دواليك.

ويعطينا الدكتور كنعان شاهداً على التعبئة الفكرية والنفسية التي تنجم عن قراءة «العهد القديم» في الاعتراف التالي للسياسي البريطاني لويد جورج، الذي كان رئيس وزراء بريطانيا عندما صدر وعد بلفور:

«لقد تربيت في مدرسة، تعلمت فيها عن تاريخ اليهود أكثر بكثير مما تعلمته عن تاريخ بلادي. وفي وسعي أن أخبركم بجميع ملوك إسرائيل، ولكني أشك في مقدرتي على أن اسمي لكم ستة من ملوك انكلترا. لقد تشبعنا كل التشبع بتاريخ الجنس العبري».

* * *

حين يدرس تاريخ الغرب المعاصر، بموضوعية كافية، سيثبت أن الصهيونية، أكثر من أية ظاهرة أخرى، هي التي أفسدت الوجدان الأخلاقي لدى الذين آزروها واحتضنوها، وهي التي شوهت منطقهم وتركت في محاكمتهم ثغرات مروعة.

نيسان ١٩٧٨

* * *

الأكاديمية الزائفة

تقوم الحياة الصهيونية في إسرائيل على سلسلة من الأعمدة الضخمة، ذات بريق خارجي من شأنه أن يخدع الرائي عن بعد، ولكن جوهر هذه الأعمدة خداع وتضليل وزيف... وهذه الحقيقة تفسر لنا سرعة انهيار البناء الدعاوي الصهيوني في مختلف أصقاع العالم، ذلك أنه خلال عقد واحد من السنين، وربما ابتداء من حرب تشرين التحريرية، تهاوت معاقل النفوذ الإعلامي والسياسي الصهيوني في معظم أنحاء العالم باستثناء ذلك الجزء من العالم الذي يسمي نفسه «العالم الحر»، وحتى في ذلك الجزء من العالم الذي يسمي نفسه «العالم الحر»، وحتى باستثناء ذلك الجزء من العالم اهتزت للصهيونية مواقع كثيرة، ولكن ما زال لها دولة وسلطان لأن الهيمنة الفكرية والنفسية الصهيونية لا تعتبر حتى الآن افتئاتاً على «حرية» العالم الحر.

ولسنا نقول هذا الكلام من منطلق كوننا عرباً وأعداء للصهيونية - وحق لنا أن نقوله أن العالم سيدرك في المستقبل أننا ندافع عن إنسانيته بوقوفنا في وجه التشويه الصهيوني لجوهر الحياة الإنسانية - ولكننا نقول هذا الكلام من خلال الملاحظة الموضوعية للمعادلة التالية:

«نادراً ما يكون هناك اعتدال في الموقف من الصهيونية، فإما أن يكون الإنسان (أو الحزب أو الجهة أو الدولة) معها نتيجة قبول مقولاتها دون تفحص، وإما أن يكون ضدها وبحماسة نتيجة اكتشافه مدى التضليل الذي تلفع به الغذاء الفكري والسياسي الذي نحاول دوماً وضعه موضع الصدارة على موائد الصحافة العالمية ووسائل الإعلام».

والصهيونيون من أقدر الناس على تلفيع خزعبلاتهم بمظاهر الدقة والأكاديمية والبراءة العلمية. وإن ما نشروه مثلاً عن تجربة المستعمرات العسكرية الزراعية (كيبوتس) انطلى على عدد كبير من الكتّاب والصحفيين والباحثين حتى كانت تجربة (الكيبوتس) مدار اهتمام كبير في العالم خلال نهاية الخمسينات وبداءة الستينات.. وقد ألفت كتب ومقالات وأبحاث كثيرة حول هذا الموضوع ونشرت في الغرب، وأغرت الناس بالتطوع للعمل في مزارع الكيبوتس، حتى انجلت الغيمة أخيراً، واكتشف الناس أن هذه المزارع ذات العنوان الاشتراكي تخفي وراءها مضموناً عسكرياً عدوانياً اسبارطيا ليس له شبيه في الزمن الحاضر سوى النازية المهزومة.

وآخر ما تفتق عنها الذهن الدعاوي الصهيوني ذو الغطاء الأكاديمي هو مؤتمر «الإرهاب الدولي» الذي عقد في القدس خلال الأسبوع الأول من شهر تموز ١٩٧٩، وحشد له باحثون غربيون ذوو سمعة أكاديمية، ومسؤولون كبار في السلطة، وصحافيون بارزون، وإعلاميون من مختلف المستويات.

وقد قدمت في هذا المؤتمر «أوراق عمل» ترتدي طابع الجدية، والتقت كلها في قرار مشترك خلاصته مايلي:

«إن الإرهاب الدولي يحمل خطراً مزدوجاً، فهو من جهة يؤدي إلى قتل الأبرياء، ومن جهة أخرى يضطر الدولة اللبرالية (الحرة) إلى اتخاذ إجراءات غير لبرالية لحماية موطنيها، وبذلك يخرجها عن خطها اللبرالي».... أي يقلل من فرص انتشار الديمقراطية اللبرالية في العالم.

وبالطبع المقصود بالإرهاب هو الأعمال النضالية التي تقوم بها حركات التحرر الوطني ولاسيما منظمة التحرير الفلسطينية، وبالطبع المقصود بالدولة اللبرالية الدولة الصهيونية، وربما أيضاً الجيوب الغربية الأخرى في العالم الثالث مثل روديسيا وجنوب إفريقيا!!.

وبهدوء ودقة وتنظيم قدم الباحثون أوراقهم ثم استمعوا إلى صوت الإرهابي مناحيم بيغن وهو يقسم الإرهاب إلى إرهابين:

إرهاب صهيوني لا يعتبر إرهاباً لأنه دفاع طبيعي عن حق شعب الله المختار في إثبات مكانته تحت الشمس وفوق الأرض التي تسكنها الشعوب الأخرى.

وإرهاب غير صهيوني تقوم به حركات التحرير، فتعكر صفو الأنظمة والقوانين.

ورحب المؤتمر بدفاع مناحيم بيغن عن عملية نسف فندق الملك داوود سنة ١٩٤٧، وأعطاه التبرئة اللازمة.

وفي الوقت نفسه كانت الطائرات الصهيونية تقصف القرى اللبنانية والمخيمات الفلسطينية، وتدمر البيوت فوق رؤوس سكانها من المدنيين الأبرياء، كما اعتادت أن تفعل منذ سنين..

ولم يستطع الباحثون المنصفون في مؤتمر الإرهاب سماع أزيز الطائرات ودوي القصف وأنين المصابين، لأن أجهزة الترجمة الفورية التي هيأتها لهم المؤسسة الأكاديمية الصهيونية، لم تكن تضم في قائمة لغات الترجمة هذه اللغة التي استبعدت من المؤتمر ربما بدافع من الأمانة الأكاديمية على الطريقة الليبرالية.

تموز ١٩٧٩

* * *

القسم السابع

فلسطين في الوجدان

- يا أبا سلمى
- وليد مسعود وتجربة الشتات
- معيار العشق العظيم
- الفلسطينيون بعيون بولونية
- فلسطين بقلوب ألبانية
- فلسطين والمعري والمعجم العربي

يا أبا سلمى..

يقول الولد الفلسطيني أحمد دحبور أن الشاب الفلسطيني محمود درويش والرجل الفلسطيني ياسر عرفات ومئات بل آلاف من الناس الفلسطينيين بالدم أو بالنسب أو بالولاء أو بالمعاناة أو برابطة العروبة، كلهم أقروا لك بأنك أبوهم وأبو شعرهم وأبو فلسطينهم.

إلى أي مدى تبتهج أنت لمصطلح «الأبوة»؟ لست متأكداً من الجواب، فما عرفتك دائماً إلا شاباً وشيخ شباب في فلسطينيتك، في جرأتك النفسية، في جرأتك مع النساء، في تعبدك للجمال، في شجاعتك الفكرية، في وضوح آرائك، في تقدمية مبادئك.

لا تستغرب أبا سلمى. فعلى الرغم من أنني، وآلاف الحناجر، ناديتك «أبا سلمى» وأحياناً «أبا سعيد» فما كنت أبداً، ولا كان غيري فيما أحسب، أعني الأبوة بمعنى الشيخوخة والهرم والتقاعد. كانت «رابطة الأبوة» في المصطلح الذي نستخدمه هي رابطة الاحترام والتقدير والاستعداد للإصغاء لسحرك الحلال الواضح البسيط المستقيم الذي يذكر أكثر شيء بالمأثور من أقوال السلف الصالح - أيام الصفاء.

لم أرتح، أبا سلمى، لهذه الأبوة يسبغها عليك من يؤنسون في أنفسهم الفتوة الموّارة، وما أروعهم من فتيان، لأنني خشيت أن توحي أنك أصبحت أقل فتوة من ذي قبل ولو بمقدار شعرة واحدة، وإذا كان المرء بأصغريه: قلبه ولسانه - كما قالت العرب - فما أزكى الجنان الذي بين جنبيك وما أحلى اللسان حين تديره في وطنية أو شعر أو غزل أو مودة.. ولقد كنت دائماً فتى الفتيان.

شيء واحد فقط هدأ من روعي وواساني، أتدري ما هو؟

طول عمري أقرأ اسمك «أبو سلمى» وأسأل: من سلمى المحظوظة هذه.. لا أنكر أن أحداً سألك من عهد قريب عن «سلمى» هذه لأنهم ألفوها، والألفة مخدر كما تعلم. الآن أستطيع أن أقول لهم عنك أن سلمى هي فلسطين، وأنت أبوها، لأنها حين ضاعت كلها أو قاربت، لأنها حين نسيت وطمست، لأنها حين أحيطت بالضباب وظن العدو والصديق أنها انتهت، كنت أنت الذي حفظت ذكراها وغنيت مواويلها وأكدت أنها هناك مقيمة على العهد، صابرة على البعد، متحفزة في القيد، يومها كنت الصوت الوحيد القوي.. اليوم، يغني كثيرون لسلمى، وقد نضج حبهم واكتمل، وأثبت أن «سلمى» وجدت لتبقى، إنها حقيقة أكثر من كل القلاع والمستوطنات والأساطيل. أما يومذاك، يوم أطبقت مؤامرة الصمت فقد كانت صوتك، صوت المشرد الذي تمرد على النسيان، هو الذي أحيا أفئدتنا وأبقى الجمرة متوهجة في أعماقنا:

يا فلسطين! وكيــف الملتقــى
هل أرى بعد النوى أقدس ترب
أيها الباكي! وهل يجدي البكــا
بعدما أصبحت في كــل مهــبّ
كفكف الدمع وسِرْ فــي أفــقٍ
حافل بالأمل الــضاحك رحــب
تنــشر الأنجــم فــي موكبــه
موكب الحرية الحمراء يُــصبي
يا أخي! ما ضاع مــن وطــن
خالد نحملــه فــي كــل قلــب

كانون الأول ١٩٧٨

* * *

«وليد مسعود» وتجربة الشتات..

تثير رواية جبرا ابراهيم جبرا «البحث عن وليد مسعود» تساؤلات كثيرة حول شخصية «وليد مسعود» وحول بيت القصيد في الرواية وحول معنى التجربة التي تتحدث عنها وحول هويتها العامة: هل هي رواية فلسطينية إقليمية أم رواية عربية، وهل مركز الثقل فيها هو الفلسطيني، أم الفلسطيني العربي أم العربي الفلسطيني!

ومن زاوية التساؤلات المثارة وحدها يمكن اعتبار هذه الرواية «البحث عن وليد مسعود» حدثاً جديداً ذا شأن في مسيرة الرواية العربية المعاصرة لأنها تشير إلى أننا بدأنا ندخل الآن في تجربة الرواية ذات الرؤية المركبة والجوانب المتعددة بعد أن عانينا طويلاً من الرواية المصطنعة النحيلة ذات البعد الواحد. إن الرواية هي الحياة كما أكد دائماً د. هـــ. لورنس، وكما لم ينف ذلك عنها أي إنسان، وهذا يعني بالطبع أن تكون تجربة الرواية ذات زخم كاف وذات زوايا متعددة وذات تداخل وتركيب، وأن تكون تبعاً لذلك مفتوحة لإمكانات متجددة من الفهم والتفسير، ولكن بشرط ألا تكون لغزاً مغلقاً وأن يكون فيها من العناصر والمؤشرات ما يسعف في إمكان فهمها من هذا الجانب أو ذاك.

ومن خلال القراءة الأولى السريعة، أحببت أن أقدم للقارئ المؤشر الأساسي الذي يمكن أن ينطلق منه الإنسان لفهم طبيعة تجربة «البحث عن وليد مسعود». وهذا المؤشر هو مقطع يأتي في الصفحات الأخيرة من الرواية، أي كأنما هو خلاصة التجربة، على لسان إبراهيم الحاج نوفل، أحد الباحثين عن حقيقة وليد مسعود في بغداد.

«فوليد إنما هو ذلك الفلسطيني الرافض، الزائد، الباني، الموحد - إذا كان لأمتي أن تتوحد -، العالم، المهندس، التكنولوجي، المجدد، المحرك للضمير العربي بعنف. وليد، كما عرفته، كان يرفض القيام بدور لا يتقنه. ودوره الأهم هو تغذية الروح الجديدة المبنية على العلم، على الحرية، على الحب، على التمرد على السلفية - تحقيقاً للثورة العربية كلها. والثورة لديه ليست مجرد تغيير طبقي في نظام الحكم، أو مجرد وضع اليسار مكان اليمين، أو بالعكس. الثورة لديه هي وضع العربي في خضم العالم الكبير، وإثبات قدرته على الصمود من جهة، وعلى العطاء من جهة. إذا لم أستقرئ حياة وليد على هذا النحو، فإنني لن أفهمه. سأبقى أناقشه، وأخاصمه، وأحاجه، ولكنني أعلم أنه واحد من هؤلاء المنفيين، الذين من مواقع منفاهم يزعزعون العالم العربي ليعيد النظر في كل ما صنع وفكر، ويملأون العالم ذكراً لاسم العربي، مهما تكن النعوت التي يطلقها عليه الأعداء الذين تركبهم العقد النفسية تجاهه.

أينما كان هناك بروز في علم، أو مال، أو فكر، أو أدب، أو تجديد وجدت ذلك الفلسطيني المنفي: تراه فاعلاً، محرضاً، منظراً، محققاً لكل ما هو مختلف. أينما كان هناك عمل جريء ينتهي إلى التضحية بالذات، وجدت الفلسطيني. فلا عجب أن يميل علي رجل ككاظم إسماعيل ويهمس في أذني: «الفلسطيني خطر. خطر..» أنهم من الخلف يأتونك يا وليد، وأنت لا تجزع، ولا تستدير، ولا تنسى».

من هذا المقطع يحسن بالقارئ المتبصر أن يبدأ في فهم طبيعة تجربة وليد مسعود، على أن يؤخذ الكلام هنا مجرد دليل للفهم، وألا يعتبر تحديداً حاسماً وباتاً في موضوع التجربة التي هي أغنى من أن تفسر من خلال مقطع واحد أو حتى عقل واحد.

تشرين الثاني ١٩٧٨

* * *

معيار العشق العظيم..

تعتبر رواية «العشاق» لرشاد أبو شاور رواية الموضوع الفلسطيني الصميم. إنها رواية العشاق والأرض المعشوقة. وعلى الرغم من أن "العشاق" لا تنسب لنفسها أية ادعاءات نظرية بطرح السؤال الصعب:

ما معنى أن يكون المرء فلسطينياً أو عاشقاً من فلسطين؟

فإنها في كل لفتة وفي كل موقف تقدم مادة غنية للإجابة على هذا السؤال. ومما يساعدها على الإجابة أن الرواية تتركز حول العشاق لا حول أشخاص بارزين منهم. وأنها لا تخلو من بعض شخصيات واضحة المعالم، ولكنها بوجه عام تعنى بتجربة الجميع وتتخذ من الفلسطينيين بجملتهم مادة لتجربتيها.

وببساطة الفطرة تقول لنا الرواية أن معنى الفلسطينية الحق هو التعلق بالتراب والخشية الدائمة من الانفصال عنه والاستعداد المستمر لدفع ثمن عشقه على الرغم من عدم وضوح النتيجة.

وهذا هو مقياس الفلسطيني عند رشاد، ومن لا ينطبق عليه هذا المقياس من الفلسطينيين فهو غير فلسطيني أو لما يصبح بعد فلسطينياً. إن الهوية الفلسطينية غير قائمة رسمياً، ولكن مقياسها قائم في النفوس وفي الأفعال وهناك حركة دائبة من أجل تثبيت هذا المقياس الذي يحسن أن يطلق عليه مصطلح «المعيار». إنه معيار قيمي بمقدار ما هو وصفي. إنه معيار قيمة مستمد من واقع ملموس لا ينكر.

والمعضلة الوجودية والوطنية للفلسطيني أن كل شيء يعمل ضد هذا المعيار، ضد تثبيته أساساً للهوية. إن العشاق العاديين يتعلقون أشد التعلق

بالأرض والشجر، وحيثما ذهبوا يزرعون ويعمرون. ولكن هناك قوى أضخم منهم بما لا يقاس تعمل باستمرار على اقتلاعهم من حيثما استقروا. وهم بالتدريج يتعلمون الدرس الصعب وهو ألا يغادروا، ألا يهاجروا مهما كانت الأخطار التي تحيق بهم، ولو لسبب واحد هو أن ما سوف يصيبهم بعد الهجرة أدهى وأمر من كل توقع. إن أحداث رواية «العشاق» تدور في إطار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين حول أريحا، وهؤلاء تأتيهم ظروف حرب حزيران الصعبة، إذ تنهار السلطة ويهرب الجيش، ويجدون أنفسهم بلا سلاح وبلا تدريب وبلا حول ولا طول أمام القوة الغاشمة التي سمعوا الكثير عن بطشها. وهكذا تسود بينهم حالة من الرعب تغذيها وقائع مصير الذين رفضوا من قبلهم أن يهاجروا فكان جيش العدو يذيقهم النكال في كل يوم. ومع ذلك يصمد من هؤلاء عدد كبير، وتبقى الشبيبة الطليعية وتؤكد للناس أن الامتحان الأساسي أمامهم هو التشبث بالوجود. أما الذين خرجوا فمنطقهم معهم، أنهم لاجئون هنا وهناك. لقد تعودوا اللجوء، ولم يحدث أن هيأهم أحد للصمود والاستمرار. لقد صار عدم الاستقرار هو القاعدة في حياتهم. وصار امتحانهم الحياتي (خلافاً للوطني) هو التكيف، مع كل وضع جديد وبأسرع ما يمكن وبأقل ما يمكن من الخسائر.

ومن هنا تبدو صعوبة المعيار الوجوديّ الوطني الذي تحاول الشبيبة الثورية أن تثبته في النفوس وهو معيار التشبث بالأرض تحت أي ظرف ورغم كل العقبات والمعوقات.

وإذا كانت الترجمة الحرفية لهذا المعيار ذات طابع سكوني في عنوانها (أي عدم مغادرة الأرض) فإن لها وجهها الإيجابي الفعلي الذي تقدمه الرواية في كل سطر.. والذي يتمثل في عملية المقاومة والفداء. إن التشبث بالأرض له ثمنه الغالي سواء تحت ظل حراب السلطة أو تحت وطأة الدبابات الإسرائيلية، وفي الحالتين كلتيهما يجب أن تستمر المقاومة، والامتحان الأساسي (للفلسطينية) هو الاستعداد للانخراط في المقاومة. وهكذا تكون

(المقاومة أو الثورة أو الفداء) مبدأ مفروغاً منه وفقاً لمنطق العشاق، فانطلاقاً من علاقة العشق وربما أيضاً من (قيمة) العشق ينبثق الالتزام الثوري انبثاقاً عفوياً لا يحتاج إلى مناقشة أو تسويغ.

ومع العشق هناك ضروب أخرى من المعاناة ربما كانت تنطق جميعاً من مواقف العشق وتلزمه لزوماً. ومن ألوان هذه المعاناة تقبل حالة الشقاء المفروضة كما لو كانت ضريبة لذنب ما خفي غير منظور، والاستعداد الدائم للتضحية دون تساؤل عن النتيجة، وحمل صليب القضية في مواجهة أعتى الرياح صديقة كانت أم معادية، ومصارعة مختلف أشكال القيود التي تدفع بالغريق إلى قرارة اليم، وأخيراً ما يترتب على ذلك كله من نمو طبيعة العناد بوصفها رداً مباشراً على القيود، وما يترتب أيضاً على هذا النمو من مضاعفة ضريبة العشق.

طوال عصور التاريخ كانت المعاناة طريق العشق ومعياره وبرهانه، وإذا اتخذنا المعاناة وحدها معياراً وبرهاناً فالعشق الذي نحن بصدده هو أعظم أنواع العشق التي عرفها الناس على المدى.

حزيران ١٩٧٩

* * *

الفلسطينيون بعيون بولونية

«أنّا بوكوفسكا» كاتبة بولونية زارت سورية مع زميلتها «تاديوش شليفياك» بدعوة من اتحاد الكتاب العرب. حملت أنا معها هدية ثمينة إلى مكتبة الاتحاد وإلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

لم تكن الهدية مغلفة بورق ملون ولم يلتف حولها شريط الزينة المألوف. ولكن من طريقة إمساك أصابع «آنا» بالهدية يمكن للمرء أن يدرك قوة الصلة العاطفية بين الهدية وصاحبتها. حين اجتمعنا مع «آنا» وزميلتها على طاولة المحادثات في مبنى اتحاد الكتاب فردت «آنا» هديتها باعتزاز وفخر. كان هناك كتاب ذو جسامة عليه أحرف بولونية لم نتبينها بادئ ذي بدء. بعد ذلك ترجمت آنا بوكوفسكا العنوان:

«الفلسطينيون: حياتهم ونضالهم».

وفي تفسير موضوع الكتاب وقصته قالت «آنا» إنها تخلت قليلاً عن مهمتها الأساسية وهي النقد الأدبي من أجل أن تكتب كتاباً عن الفلسطينيين. تصورت في بادئ الأمر أنه سيكون كتاباً صغيراً، ثم زاد عدد صفحاته بالتدريج. ومن خلال التجربة وجدت أن تاريخ الفلسطينيين هو التاريخ الحديث لمنطقة الشرق الأوسط وأن من واجبها كتابة تاريخ الشرق الأوسط بكامله إذا أرادت أن تفي الموضوع بحقه. وقد وصلت صفحات الكتاب إلى أربعمئة ووصل تاريخ الكتاب إلى شهر نيسان الماضي ودخلته الزيارة الساداتية إلى القدس المحتلة. ولا تعتقد الكاتبة أن كتابها انتهى إلى حيث كان ينبغي أن ينتهي ولكن كان عليها أن تقف عند نقطة معينة. وهي على أي حال مقتنعة أن «كامب دافيد» ليست بداءة المرحلة الحالية الخطيرة بل أن زيارة القدس هي البداءة.

وتقول آنا بوكوفسكا إن كتابها الذي صدر حديثاً لم يقرأه بعد إلا قلة من الناس. والذين قرؤوه قالوا إنه يقرأ باهتمام كبير كأنه رواية بوليسية، وتفسيراً لذلك تقول «آنا» إنه ريبورتاج تاريخي متسلسل محتفظ بالتركيز على الوقائع الأساسية التي تركت صدى رئيسياً في حياة الفلسطينيين: أحداث ١٩٤٨، أيلول الأسود ١٩٧٠، مهاجمة الفريق الرياضي الإسرائيلي في ميونيخ ١٩٧٢، الغارات والعمليات الإسرائيلية المتكررة ضد مخيمات اللاجئين، الحرب الأهلية اللبنانية وتل الزعتر والتطورات المختلفة حتى شهر نيسان ١٩٧٨، مع وقفة خاصة عند الزيارة الساداتية وما فتحته من أبواب المساعي السياسية للسلام الموهوم.

وكان الخط الأساسي لتطور الأحداث هو النضال، النضال على مختلف الجبهات وبمختلف الوسائل، وتعترف الكاتبة أنها انطلقت من موقف تعاطف مع الشعب المناضل وقالت أن الشعب البولوني ناضل كثيراً ولذلك لابد له من أن يتعاطف مع المناضلين.

وقد قدمت الكاتبة سجلاً كاملاً للأحداث منذ عام ١٩٤٨ راعت فيه منتهى الدقة التاريخية وأرادت أن تعطي الكتاب صبغة الاتصال بالوقائع والأحداث وأن تبعده عن شبهة السرد القصصي الخيالي.

وأهم من ذلك كله أنها دعمته بتاريخ آخر، أو تاريخ ما يهمله التاريخ عادة. وهو وصف حياة الناس العاديين البسطاء سواء في مخيمات اللاجئين أو في معسكرات الفدائيين. لقد شاهدت هذه الحياة عن كثب واتصلت بالناس وأحبتهم وفهمتهم وحاولت أن تقدم صورة لهم أمينة واقعية.

قالت أيضاً إنها طبعت من الكتاب عشرة آلاف نسخة وأن الدار التي نشرته هي إحدى أهم ثلاث دور للنشر في بولونيا وأنها لم تلق أية عقبة رسمية أو غير رسمية لدى نشر الكتاب.

* * *

قال لها أحد الحاضرين في الجلسة:

لقد حققت ما لم تستطع تحقيقه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. إذ عرض على المنظمة منذ بضع سنوات مشروع من هذا القبيل، وتم إقراره ورصدت له الموازنة اللازمة وجرت الاتصالات المعهودة واستغرقت سنوات ثم نام المشروع كما ينام عباد الله الصالحون في سواد ليلهم لقاء ما يقومون به من نشاط في بياض نهارهم.

وقالت المنظمة للكتاب:

من ساواك بنفسه فما ظلم.

تشرين الأول ١٩٧٨

* * *

فلسطين بقلوب ألبانية

قاربت فلسطين أن تكون ضمير العالم ومرآته.

هناك صورة - مرآة لفلسطين في معظم أقطار العالم اليوم، في الهند، في الصين، يوغسلافيا، في الاتحاد السوفياتي، في بولونيا، في إسبانيا، في كوبا، وحتى في بعض بلدان أوربا الغربية، وفي بلدان أخرى كثيرة.

بفلسطين وقضيتها ومعاناتها وبطولاتها يلهج عالم بأكمله وتخفق لفلسطين قلوب، وتغني حناجر وتجد النفوس الطيبة الرافضة المتفتحة، تجد في قضية فلسطين ملاذاً لها ومتنفساً، وربما رمزاً للتعبير عما لا تستطيع أن تعبر عنه في وضع ما وفي حالة معينة.

* * *

ويبد أن نصيب (ألبانية) من الهم الفلسطيني كبير، لأنها تشارك في الوجدان الفلسطيني الذي أصبح مرآة لوجدان العالم الموحد بالآلام والمعاناة والصبوة الحبيسة والعرق الراشح من العيون المكدودة.

يقول الكاتب الألباني محمد موفاكو في تقديمه لمجموعة قصائد ألبانية عن فلسطين ترجمها إلى العربية لتنشر في المجلات العربية:

«في التاريخ الحديث، تاريخ القوميات المضطهدة، هناك حالة فريدة جمعت بين ظروف كفاح ونضال الشعبين الفلسطيني والألباني في سبيل التحرر والاستقلال. وسط محيط عدائي شرس من مختلف الجهات».

في هذا المحيط كانت مشكلة هذين الشعبين الصغيرين واحدة: شعب حكم عليه سلفاً بالتشرد وصودر حقه في استمراره كشعب وفي تشكيل دولة خاصة به ...:.

ويمضي محمد موفاكو في تقصي ظروف التشابه وذلك في محاولة منه لتبين سبب التعاطف الألباني الشديد وفوق العادي مع الشعب العربي الفلسطيني وقضيته.

ومن خلال الإمعان في المشابهات يكاد ينسى محمد موفاكو أن ما أصاب الفلسطينيين لم يكن بسبب طموح من حولهم بل بسبب ما استورد لهم من مشكلة وما أقحم في ديارهم من وضع جديد.

ومن حسن الحظ أن مجموعة محمد موفاكو تجد طريقها إلى النشر، في مجلة «الآداب الأجنبية» التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب[(١)]، ولا بأس بأن نستأذن محمو موفاكو في تقديم نموذجين بديعين من هذه الغنائية الوجدانية التي تقول في فلسطين كلاماً جميلاً موحياً مفعماً بالصدق.

هو ذا (تل الزعتر) لأنور جرتشيكو:

تل الزعتر

أنت شاطئ بحر دون نهاية

دون صخور، دون رمال

أنت وطني المصغر

الذي ترسمه أصابع وأيادي الأطفال المشوهين بالنابالم

أنت أكثر الأغنيات حزنا

التي تغني للطفل

---

(1) نشرت المجموعة كاملة في مجلة «الآداب الأجنبية»، ع٢٢، س٦، تشرين الأول ١٩٧٩.

المولود بين الحب والحقد

للطفل الذي ينطق اسم أمه.

* * *

وهذه «فلسطين» للشاعر آدم غيطاني:

لن ينتزعك أحد من حلمنا

لا الليل ولا الطاعون

الآن! استريحي في حضني الأسود

واحلمي بالطائر الذي سيعود

روحك في كفي الحمراء

يا زهرة قطعت بمنقار غراب

لا الليل ولا الطاعون

سينتزعك من حلمنا.

* * *

إن هذه الأشعار ومثيلاتها تقول لكل الذين يعجزون عن رؤية حقيقة فلسطين:

إن فلسطين حقيقة أكثر بكثير من أسراب الفانتوم والأساطيل والجيوش الجرارة.

وهي الخالدة والآخرون هم الفناء.

أيلول ١٩٧٩

* * *

فلسطين والمعري والمعجم العربي

لم يسبق لي قط أن حاولت البحث عن كلمة «فلسطين» في المعجم العربي القديم. وعلى كثرة ما أراجع المعجم العربي القديم. وعلى كثرة ما أراجع المعجم لسبب ولغير سبب فإنه لم يخطر لي أبداً أن أسأل كيف عوملت هذه الكلمة من الناحية اللغوية، ربما بسبب حضورها النفسي وتكرار ورودها على الألسن، وما يصحب ذلك من انفعال وحمية وحسرة وأسى وأسف و(من كلمات أخرى يصعب أن يذكرها المعجم العتيد وهي بعد قائمة في القلوب).

* * *

وحمداً لله أنني لم أفعل ذلك من قبل، إذن لكنت اعتقدت أن الكلمة غير موجودة، لأنني كنت سأبحث عنها في باب النون (آخر حرف من الكلمة) فصل الفاء (أول حرف) وسأعاني ما أعاني من البحث فلا أجدها. ولم يكن ليخطر لي أبداً أن أبحث عنها في (فلسط) - كما وجهني أبو العلاء المعري، لأنني لا أجد وجهاً لاعتبار الياء والنون زائدتين ولاعتبار (فلسط) جذر الكلمة.

* * *

وإذن فالفضل كله يعود لشاعرنا الكبير أبي العلاء المعري، الذي بدأت تنساه الناشئة العربية بعد أن تغيرت المناهج وحرمت (رسالة غفرانه) من الظهور على صفحات الكتب المدرسية. والحكاية - بلا طول سيرة - أنني كنت أقرأ في كتاب «عبث الوليد» الذي تلقيته هدية طيبة من محققته المجدة

السيدة ناديا علي الدولة، ووصلت فيه إلى تعليق المعري على البيت التالي للوليد بن عبادة البحتري:

لتسكن ضوضاء العــريش وتنتهــي

فلسطينُ عــن عــصيانها وعنادهــا

وقد رأيت في التعليق من الدقة والأصالة ما جعلني أعتبره نموذجاً للمنهج اللغوي الدقيق الذي اتبعه المعري في التعليق على ديوان البحتري. يقول المعري:

«فلسطين إذا ألزمت الياء في الرفع والنصب والخفض، جعلت نونها بمنزلة نون مسكين، إلا أنها لا تنصرف لأنها اسم بلدة، ومنهم من يقول: فلسطون في الرفع، وفلسطين في النصب والخفض، ويدل على قوة هذا الوجه أنهم قالوا في النسب فلسطي، قال الأعشى:

تخلْهُ فلسطيّاً إذا ذقــت طعمــه

على نيّرات الظلم حمش لثاتهــا

ولو حُمل على اللغة الأخرى لوجب أن يقال «فلسطيني»، وهكذا سائر الأسماء الجارية على هذا النحو مثل: قنّسرين والأندرين. ومثل قولهم «فلسطيّ» قولهم في النسب إلى الأندرين «أندريّ»، قال امرؤ القيس:

أقّب ككرّ الأندريّ خميص

ولوحمله على مذهب من يقول هذه الأندرين، لوجب أن يقول: «اندرينيّ، ولم يستعمل ذلك، لأنهم مالوا إلى الأخفّ إذ كان أقلّ مؤونة من غيره».

وهكذا تعلمت من جملة ما تعلمته في هذا النص أن فلسطين تلتمس في (فلسط)، ورجعت إلى أقرب معجم بين يدي فكان (القاموس المحيط)، وقرأت فيه حول الكلمة ما يلي:

«فلسطون وفلسطين، وقد تفتح فاؤهما، كورة بالشام وبلدة بالعراق. تقول في حال الرفع بالواو وفي النصب والجر بالياء، أو تُلزمها الياء في كل حال. والنسبة فلسطي».

(القاموس المحيط، الجزء الثاني ص ٣٧٨)

وهكذا أيضاً تعلمت - ولو متأخراً - أن فلسطين يمكن أن ترفع بالواو وتنصب وتجر بالياء.

وتعلمت أيضاً - ولو متأخراً - أن النسبة إلى فلسطين يمكن أن تكون (فلسطي) وهي أخف وقعاً على الألسن، ويمكن أن تكون مخرجاً لأطراف (كامب ديفيد) لأنها تريحهم من الكلمة الطويلة وإيحاءاتها ومشكلاتها.

وتعلمت أخيراً أن الأوان قد آن لنرفق بالناشئة وبمحبي اللغة العربية من غير المتشدقين، ونؤلف لهم معجماً يمكن للمرء أن يراجعه لأنه لا يعرف الأصل بدلاً من أن يقصر مراجعته على الكلمات التي سبقت له معرفتها.

والله من وراء القصد.

شباط ١٩٨٠

* * *

n

الصفحة

القسم الأول

القسم الثاني

القسم الثالث

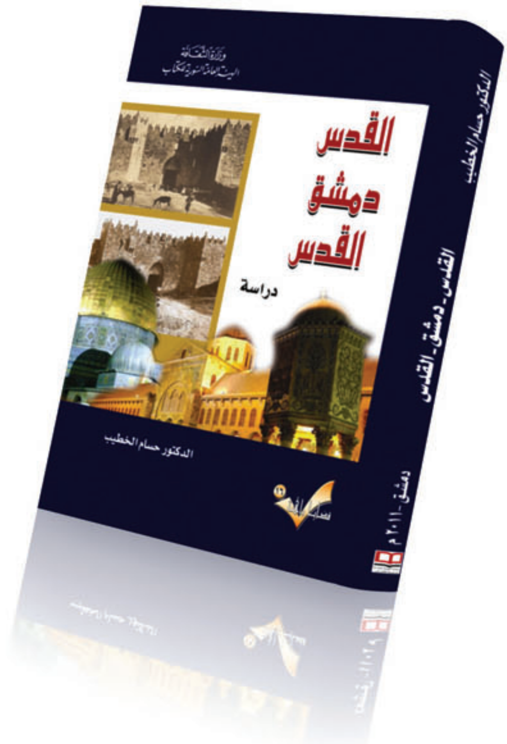
القسم الرابع

القسم الخامس

القسم السادس

القسم السابع

الطبعة الأولى / ٢٠١٠
عدد الطبع ١٠٠٠نسخة



www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١ م

سعر النسخة ١٦٠ ل.س أو ما يعادلها